جميع الحقوق محفوظة

رواية

طائر الحظ والامنيات الثلاثة

بقلم

منى عربيي

2022/2023

طائر الحظ
&
الامنيات الثلاثة
رواية
بقلم منى عريبي

***

اهداء...

اليك أُهدي ما ائتمنتني عليه وتحملتُ المشاق للوصولِ اليه.. اليك أُهدي ما علمتني انت اياه خلال رحلة الغوص في تجارب الحياة لأجل اكتشاف ذاتي والبحث عن هُويتي .. اليك أُهدي رواية طائر الحظ والامنيات الثلاثة.

كل فتاة تولد لتقابل الشخص المقدر لها

انمي قبلة مؤذية

***

ماذا لو عثرت على مصباح علاء الدين وانت تمشي في طريق طويل نهايته غير معروفة ؟؟ فتسنح لك الفرصة بذلك في تحقيق امنياتك الثلاثة !!

وماذا لو تحققت تلك الاحلام بالفعل .. هل ستكون راضيا في النهاية ؟؟ ام انك ستتمنى من جديد وكأن شيئا لم يكن ؟ ... اجل هذه هي حال البشر لا ينفكون عن التمني ابد الدهر واذا قالوا هذه الامنية الاخيرة وينتهي كل شيء فجاة تخلقُ من العدم اماني اخرى تفوق سابقتها اضعاف مضاعفة.. لا عيب في الاحلام ولاضير منها ولكن العيب ان لا يقنع المرء بما لديه من نِعم وخيرات ويطمع بالمزيد دائما بذلك يخسر كل ما يملك في لحظة لم تكن في الحسبان ابدا.

***

ضربت خيوط البرق عنان السماء مُرفقةً بأصوات الرّعد التي خلّفت وراءها دويًا مرعبًا جعل قلبها الصّغير ينتفضُ مكانه من شدة الهلع اضافةً الى الذي تعاني منه،، كانت تراقب هطول الامطار من نافدة سيارة البولو السّوداء وعيناها الزُّمردية على وشك ان تترقرق بالدموع بسبب الوضع الذي أُجبرت عليه وبالرّغم من انها كانت تعلم انه واقع لا محالة،، تمنت تلك اللحظة ان تختفي عن هذا العالم والى الابد كي تختفي معها آلاماها واحزانها التي حلقت فوقها منذ ذلك اليوم المشؤوم ولم تنفك عنها ابدا، لكن هذا ايضا لن يحدث ستكون مُجبرة على مداراة الواقع وبصدرٍ رحبٍ ايضا،، بقيت سارحة بافكارها طوال الطريق ولم تنبس ببنت شفة تلتزم الصمت؛ حتى اتاها صوته الغليظ الرجولي قائلا لها :

- اراكِ تبدين مستاءة ؟ ا هناك ما يُزعجك ؟

اطلقت ابتسامة ساخرة حول كلامه وكأنه يجهل سبب حزنها، وقالت وهي ترمقه بنظرات نارية بامكانها احراق قارة باكملها :

- ا وتجهل الامر حتى تستفسر عنه ؟

تنهد هو بضيق واشاح بنظراته عنها نحو الطريق لا يجد ما يقوله لها، فبالنهاية هي محقة في كلامها،، وهذا امر مفروغ منه؛ ولكن حدث ما حدث الان ولا يمكن تغيير الماضي،، كان يعتقد انها ستعتاد مثلها مثل اي فتاة جمعها القدر بمن لا ترغب به، فقد صادف حالات كثيرة شبيهة بحالتها وانتهت على خير ما يرام وهي كذلك ستتقبل الوضع في النهاية فلا يوجد امامها خيار اخر،، اطلق تنهيدةً عميقة واردف محاولا تلطيف الجو المُكهرب :

- اسمعيني يا ريان، انا اتفهم شعورك هذا فقد مرت علي حالات كثيرة كهذه لكنها ليست نهاية العالم عزيزتي،، حاولي ان تتقبلي الامر كما سافعل انا والا ستُتعبين نفسك وحسب بالتفكير الزائد والعناد

بقيت صامتة ولم تنبس بحرفٍ واحد تغوص بافكارها الى عالمها الوردي الذي وجدته الوحيد من فتح احضانه لها على عكس الجميع،، لم تشأ ان تدخل في نقاشات بيزنطية معه فهو لن يفهمها ابدا وان كان امهر طبيب نفساني عرفته المدينة برُمتها ولن تستفيد شيئا من البوح له عن ما يخالج نفسها فقد صارت زوجته وانتهى الامر.

وصلا اخير الى البيت القابع في حي الزعفرانية بعد ان رفضت فكرة قضاء هذه اللية السوداء في الفندق، فهي ترى حالتها تختلف كثيرا عن الحالات الطبيعية، وقد بقيت مصممة في قرارها بالرغم من اصرار امها وشقيقتها الكبرى، ولأن هارون يعلم بظروفها وافق على الامر دون اي اعتراض متفهما الوضع الذي تمر به،، كانت الامطار قد توقفت عن النزول آنذاك لكن اصوات الرّعد ما زالت تضرِبُ الوسط بكل عنفوانية، ترجّل الاثنان من السيارة

وسارا سويا ناحية البيت تحت ظُلمات الليل الذي يسوده السكون باطياف يكسوها اللون الاسود تتارجح عن اليمين تارة وعن الشمائل تارةً اخرى،، كانت ريان تجد صعوبة في المشي بذلك الكعب العالي والفستان الابيض بأكمام من التل المزين بالترتر اللامع ينتهي بتموجات الى الاسفل غاية في الاناقة، تحلم بارتدائه كل فتاة في ربيع عمرها مقبلة على الزواج، وقد كادت ان تتعثر في حفرة صغيرة وتسقط ارضا لولا خفة هارون وحركته السريعة في الامساك بها من مرفقها، شعر كل منهما لحظتها بكهرباء سرت في انحاء جسديهما وصار قلب ريان يخفق بصورة رهيبة لا تدري ان كان بسبب التوتر ام بسبب الاحراج ام بسبب شيء اخر هي تجهله،، بعد ان اجتازا الحديقة الامامية للمنزل صعدا الدرج حيث منزل هارون والبرد قد نالا منهما هما الاثنان لا يصدقان متى يصبحان داخل البيت،، ادار هارون المفتاح ثلاثة مرات جهة اليسار وفتح الباب يطلبُ من عروسته ان تتفضل الى بيتها الذي تراه هي سجن ليس الّا اتت اليه رغما عن انفها، كان المكان مظلم جدا قبل ان يشغّل هارون الانوار وهادئ ايضا من اي حركة، حيث اثار ديكوره التركي انتباه ريان فهي تعشق هذا النوع من التصاميم،، سارت ببطئ ناحية غرفة النوم التي صادفتها في طريقها بعد ان نزعت حذائها ذا الكعب العالي وارتمت فوق السرير بعشوائية تشعر بتعب شديد،، تنظر في الفراغ الذي كان يحاوطها من كل حدب وصوب،، اما هارون فقد توجه الى غرفة المعيشة وجلس على الاريكة يقوم برخف ربطة عنقه ويفكر في نفس الوقت عن ما سيحدث الان ؟؟ من جهة هو وعدها انه لن يلمسها الا بموافقتها ومن جهة اخرى امه تصر على الامر واكّدت عليه ذلك كما انها اخدت منه وعدا ايضا ان يسلمها ذلك المنديل الاحمر كعادة شرقية قديمة ما زالت العائلة محافظة عليها،، اطلق زفيرا حادا ينُم عن الضّيق الذي سيْطر على وجدانه وراح يمسح حبات العرق عن جبينه ممررا انامله على وجهه.. مضت نصف ساعة وهو على حاله حتى رن هاتفه الجوال حيث اجاب على الخط بعد ان لمح اسم والدته على الشاشة...

- نعم امي ماذا هناك ايضا ؟

- هارون لا تنسى ما تكلمنا فيه ؟؟ غدا اريد ذلك الشيء بين يدي

- لما انت مصرة ؟؟ ا لا تعلمين ان هذه الامور قد اندثرت وصارت نسيا منسيا ؟

- هل تنوي ان تُخالف عاداتنا وعادات اسلافنا ؟ ام انك خائف على مشاعر حبيبة قلبك تلك ؟

- ولكن يا امي ...

لم تدعه سهام يُنهي كلامه واغلقت الهاتف في وجهه تاركةً اياه وسط متاهة عتماء يبحث عن ثغرة للنجاة،، فهو الذي لطالما اوجد الحلول لمشاكل الناس اللذين يقصدونه من كل فجٍ عميق، عاجز الان تمام العجز عن ايجاد حل للمصيبة التي هلّت عليه، وقف مكانه وسار ناحية

غرفة النوم وقلبه يخفق بصورة رهيبة غير معتاد على هذه الاجواء، اختفت هيبته ووقاره واختفى هدوئه وثباته وهو الان مقبل على اصعب امتحان، ادار مقبض الباب ودلف الى الداخل ببطئ ليتفجأ بتلك الملاك التي تنام ببراءة بفستانها الابيض وكأنها عذراء الغابة الخضراء،،، تقدم ناحيتها وصار يتفحص باقي تفاصيل وجهها التي اخذته شغفا منذ اول مرة رآها فيها؛ وخصوصا الان وهي تضع مساحيق التجميل لكن بصورة بسيطة من احمر الشفاه والكحل وغيرها من المساحيق الاخرى الذي يجهلها هو،، اقترب منها وكاد ان يلتهم تلك الكرزتين على غفلةٍ منها لكنه سرعان ما ابتعد عنها عندما باغتته بحركة خاطفة وهي تفتح عينيها تنتفض مكانها من رؤيتها له،، قالت بنبرة متقطعة وقلبها يرتعش من الهلع :

- ماذا هناك ؟ ماذا تفعل هنا وفوق راسي ؟

- اهدئي لا تخافي ...

كان يريد ان يقترب منها ويحاول معها بروية لعلها تستسلم له، لكنها فاجأته بالعكس وصارت تصرخ عليه ان يخرج من الغرفة وفورا فقد سبق وان وعدها بانه لن يمس شعرةً منها دون اذن منها، سكتت قليلا تلتقط انفاسها بعدها واصلت كلامها وهو يقف قبالتها مدهوشا من ردة فعلها التي وجدها مبالغا فيها، كما انه لم ينبس ببنت شفة ...

- اياك ثم اياك يا هارون ان تفكر مجرد تفكير ان تفعلها لقد وعدتني من قبل ولا يمكنك ان تخلف بوعدك فهذا ليس من شيم الرجال ابدا

هي دائما تنجح في استفزازه ولا تدري انها بهذا قد فتحت على نفسها باب جهنم وبئس المصير، من جهة ثقتها الزائدة بذاتها ومن جهة ثانية والدته واصرارها على ذلك الشيء، كل هذا وذاك كان يضغط على هارون كثيرا، لقد حاول ان يتفهمها دائما ويتفهم انها تزوجته رغما عنها لكن هذا لا يعطيها الدافع ان ترفضه بهذا الشكل وهو زوجها وحلالها، تبدّدت ملامحه واختفت تلك الحنية من على وجهه وصارت عيناه السماوية تقدح شرارة جرّاء كل شيء، وامسك ريان من مرفقها بكل قوة لا يآبه بصرخاتها الموجعة وهي ترجوه ان يتوقف، القاها بعنفوانية فوق السرير ونزع ربطة عنقه وقلبه يتطاير داخل قفصه الصدري، اخذ يقبلها بغضب وقد اعمى الحقد بصيرته وجعله لا يُدرك الامر الذي هو بصدد القيام به، صار يمرر يداه على انحاء جسدها وهي تحاول باعتراض بكل ما اوتيت من قوة لكن ماذا ستفعل قطة وديعة بين احضان ذئب شرس قد تم استفزازه بطريقة قاسية، كانت ريان تصرخ وبشدة وتتوسله ان يتوقف دون المساس بها وبهذه الطريقة المؤلمة لكنه لم يكن ينصاع لها ابدا،، لقد دفعت به الى فرض نفسه عليها ولكن بالحلال وتحت سقف واحد.

***

بداية القصة...

مع اقتراب شروق الشمس الذهبية من اواخر شهر جويلية من عام 2022 في حدود الساعة السادسة وربع دقيقة تقريبا؛ استيقظت بطلة روايتنا ريان عبدالله من اجمل حلم راودها ترتسم على شفتيها الكرزية الممتلئة اعذب ابتسامة وراءها اسرار جمّة لا احد يعلم عنها اي شيء، ازاحت اللحاف عنها وترجلت عن سريرها تقوم باغلاق المكيف واطراف جسدها مجمدة من شدة البرد فهذه المرة الاولى لها التي تنام فيها الليل بطوله تاركة اياه شغالا، ولكن كيف لها ان تتذكر امره واليوم سيتحدد مصيرها واخيرا وستُفتح امامها افاق واسعة لاجل تحقيق احلامها وامنياتها، فتحت نافدة غرفتها المطلة على شارع حي النصر لمدينة عنابة جوهرة الشرق الجزائري تستقبل نسائم البحر الصيفية؛ وهي تداعب رموشها السوداء الكثيفة وشعرها الغرابي المجعد الذي يصل اسفل ظهرها تأخده في الهواء عن اليمين تارة وعن الشمائل تارة اخرى؛ وراحت تستمتع بهذا المنظر الصباحي المُفعم بالحيوية والاشراق والمليئ بالحب والعاطفة، جال قليلا في خاطرها ان تُخرج ورقة بيضاء وتمسك بفرشاتها والوانها لتخلق لوحة فنية تنبض بالحياة لمنظر الشمس وهي ترسل باشعتها الذهبية على شكل نوتات تتراقص في الفضاء الفسيح مُشكلة بذلك ايقاعا موسيقيا في منتهى الرقة والجمال.

بقيت على حالها قرابة نصف ساعة سارحة بخيالها نحو الافق البعيد المدى تفكر في حياتها كيف ستكون من اليوم وصاعدا فقد انتظرت هذا اليوم اكثر من ثلاثة سنوات منذ ان نالت

شهادة البكالوريا بمعدل عالي وتخصصت في الهندسة تحديدا فرع الهندسة الكيميائية وليس هذا وحسب بل ابدعت في الرسم بكل ما تتطلبه الموهبة وتحمله من معنى وشاركت في عدة مسابقات على المستوى الولائي والوطني لتحطم الرقم القياسي بعدها في تحويل كل ما هو ملموس الى صورة فنية آية في الروعة، افاقت من شرودها على صوت رسالة نصية وردتها على هاتفها الخلوي من حبيبها الوسيم صاحب العيون الضّيقة شديدة السواد وعضلات حنطية مفتولة القوام، شعره الاملس البني قد اخدها عشقا في عامها الاول من الجامعة حيث عادت بذاكرتها الى الماضي، الى اول يوم تعرفت فيه عليه عندما كانت في المكتبة تبحث لها عن بعض الكتب الخاصة بالفيزياء الكمية دروس مفصلة وتمارينات مع الحل؛ كان الاستاذ قد طلب منهم ان يقوموا ببحث صغير حول آليات عمل المجهر الميكروسكوبي وقد منعهم من اللجوء الى الانترنت والمواقع وامرهم ان يجلبوا المعلومات من الكتب ولم تجد ريان بدا آنذاك الا ان تلجأ الى المكتبة وتبحث لها عن مرادها، كانت اول مرة لها ان تدلف الى هناك حيث سحرها جمالها الباهر.. ذلك الكم الهائل من الكتب الموضوعة بجانب بعضها البعض على الرفوف، والطاولات المرصوصة الى جوار بعضها في القاعة المجاورة عليها عدد قليل من الطلبة والطالبات يقومون بالمطالعة والصمت هو سيد الموقف لا تسمع سوى صوت السكون ينبع من الاعلى والاسفل...

توجهتُ الى قسم الفيزياء الموجود في الجانب الايمن من رواق المطالعة ورحتُ اجول بناظري ابحث عن مرادي اذ قمت باقتناء زوجٍ من الكتب الفصل الاول والثاني واردت ان ابحث عن شيء آخر كي اتزود بالمعلومات على اكمل وجه، وبينما كنت اسير بلا مبالاة تركيزي كله مع الكتب والرفوف ارتطمت بجسد ذكوري على غفلة مني اوقعتُ جرّاءه ما احمله بين يداي حيث دنوت الى الاسفل كي اخد اشيائي لكن تلك اليد التي كانت تلتف حول معصمها ساعة سوداء من نوع دانيال حالت دون ذلك وما شدني اكثر هو الصّوت الغليظ مُردفا نحوي قائلا :

- انا آسف يا آنسة لم انتبه لك !!

رفعتُ راسي ناحية الصوت لتتقابل عيناي الزمردية مع عيناه الكستنائية الفاقع لونها تغطيهما رموش سوداء شديدة الكثافة، شعرتُ لوهلة من الزمن بقشعريرة سرت في انحاء جسدي وكأنها المرة الاولى التي ارى فيها شابا امامي يُخاطبني، ارتسمتْ على شفتي ابتسامة خفيفة شبه منعدمة واسترسلتُ قائلة :

- بل انا هي التي آسفة، لم انتبه لك بسبب تركيزي مع الكتب

بادلني بدوره الابتسامة ثم قال :

- واضح انها المرة الاولى لك التي تزورين فيها المكتبة ؟؟ لانه لم يسبق لي ان رايتك هنا قبل هذا ؟!!

تفاجئتُ كثيرا من سرعة بديهيته ودقته العالية في الملاحظة.. لكن هذا ليس غريبا بالنسبة لطالب يرتدي نظارات طبية، تنحنحتُ قليلا وقلت :

- اجل.. صدقت، هذه اول مرة لي لاسباب خاصة

- فهمت.. بالمناسبة انا وائل سبوعي ادرس سنة ثالثة ليسانس تخصص الهندسة الكيميائية وانت ؟

- ريان عبدالله، كذلك ادرس الهندسة لكن في عامي الاول

- تشرفت بك.. صدفة جميلة ان يجمعنا نفس التخصص ؟

- وانا ايضا متشرفة بك .. اعتقد هذا

- سنلتقي مجددا،،، اليس كذلك ؟!

ابتسمتُ بعفوية معه واومأتُ له براسي بالايجاب فلم احبذ ان استمر معه في الحديث وادخل في نقاشات لا طائل منها، خصوصا ان الوقت والمكان غير مناسبين ابدا.. ودعته بلطافة بعدما اخدت مرادي واتجهتُ الى قاعة المحاضرات وانا اتصل على إيلين وسمية الاولى صديقتي المقربة من ايام الثانوية والثانية زميلتنا في الفوج تعرفنا عليها بعد اسبوع من الدراسة لنبدأ في اعداد المشروع قبل ان ينال منا الوقت.. وصورة ذلك الشاب الفتيّ لم تغب ولو للحظة عن بالي؛ لا ادري لما خالجني احساس غريب لم استطيع ان افهم معناه بخصوصه مع انها كانت اول مرة اراه فيها ولم يدم حديثنا سويّا سوى دقائق معدودة، لكن شعوري ذاك ناحيته لم انسه ابدا حتى يومنا هذا.

افاقت ريان من شرودها مجددا وهي تلتقط هاتفها الجوال المرمي بعشوائية فوق سريرها كي ترى الساعة اين صارت الآن حيث انتفضت بفزع ما ان وجدتها قد قاربت على السابعة وهذا يعني ان الوقت تأخر كثيرا على موعد رحلتها نحو الغد المشرق بالالوان، بسرعة توجهت الى الحمام كي تنعش نفسها قليلا وتطرد النعاس عنها الذي ما زال يحوم حول عينيها الزمردية، وبعد ربع ساعة قامت بلف جسدها بمنشفة بيضاء تاركة خصلات شعرها الكيرلي تنسدل وراء ظهرها فلم يعد هناك وقت كي تلفه هو ايضا، فيكفيها ان تجففه على السريع كي لا تأخد بردا او تُصاب بذات الرئة هي في غنى عنها... ارتدت سروالا فضفاضا قرمزي اللون من الكتان على آخر موضة بحزام اسود من الساتان عند الخصر له ربطة في الوسط على شكل فراشة وقميص ابيض باكمام طويلة وحجاب من نفس لون البنطال، حملت حقيبتها

اليدوية تضع فيها هاتفها وخرجت من غرفتها تقصد المطبخ ذا الطراز المغربي قد حرصت والدتها على الاهتمام بديكوره منذ ان انتقلوا الى حي النصر قبل عشرة سنوات،، لاعداد قهوة الصباح التي لا يمكن لها ان تستغني عنها ابدا، وهناك وجدت شقيقها الاكبر سليم يرتشف كأس الحليب مع الشوفان خلطته السحرية لاجل الحفاظ على لياقته... القت عليه تحية الصباح مصحوبة بدعابة منها كعادتها والتي استأنس بها ولم يعد ينزعج منها كما كان من قبل...

- الى اين آنسة ريان من عند هذا الصباح الباكر ؟؟

سألها وهو يقوم من مكانه يتجه نحو الثلاجة كي يُروي ظمأه بكأس ماء بارد، اجابته وهي تاخد إبريس القهوة ...

- اليوم هو حفل تخرجي ويجب علي استلام شهادتي في حدود الساعة التاسعة والنصف صباحا

- فهمت.. هل تريدين مني ان اوصلك في طريقي ؟

- لا داعي، ساستقل سيارة اجرة

- كما ترغبين ... بالمناسبة متى تعود امي من منزل فادية ؟

- بعد الظهيرة، على ما اعتقد

غادر شقيقها المطبخ الى العمل مثل العادة، فقد حصل مؤخرا على وظيفة في المحكمة تناسب تخصصه الذي درسه في الجامعة وهو الحقوق، ما جعلته يتقدم لخطبة فتاة احلامه منال التي تعرف عليها ايام الجامعة.

***

حركة كبيرة وغلبة مثيرة يشهدها منزل فادية القابع في العمارة الثالثة من شارع سيدي احمد لمدينة سكيكدة، والتي تمتاز بشواطئ جميلة وطبيعة خلابة بالاضافة الى مناخ دافئ وممطر شتاءا وحار جاف صيفا... اصوات الاطفال الصغار قد ملّت ارجاء البيت من طرف عائشة وبلال التوأمين الشقيّين اللذين يناهزان من العمر سبعة سنوات، بسبب من يدلف الى المرحاض اولا بعد ان استيقظا للتو من نومهما؛ وهي عادة صباحية اخذاها وراثة عن والدهما الضابط احمد عطية الذي ينحدر من ولاية القل _ تيزغبان _ المعروفين باستيقاظهم باكرا مع شروق الشمس تحت شعار العقل السليم في الجسم السليم والنوم مطولا لا ينفع بشيء سوى ان يُلحق الضرر بالجسد... على إثر تلك الضوضاء استيقظت فاطمة من نومها على اصواتهما وهما يتصارعان بقوة كأنهما ثعلبين يستبقان غزالا صغيرا في الغابة وصارت تتأفف من الوضع الذي تكرر للمرة الثالثة على التوالي منذ قدومها الى بيت ابنتها، اقتربت منهما وقالت بنبرة هادئة لازال النعاس مسيطرا عليها ...

- لما كل هذا الضجيج يا اولاد الا تعلمون انني اكره الازعاج صباحا ؟

اقتربت منها عائشة والدموع قد ترقرقت في عينيها البنية تتودد اليها قائلة :

- انه بلال يا جدتي دائما ما يقوم بملاحقتي اينما ذهبت

قاطعها الآخر بانفعال زائد قائلا :

- غير صحيح انا من استيقظ بالاول ولهذا انا من سيدلف الى المرحاض قبلها

ثم دخلا في خلاف حاد مع بعضهما البعض يصرخون باعلى الاصوات التي هزت اركان الشقة ودفعت بفادية للاستيقاظ من نومها تتوعد لهما، اقتربت ناحيتهما كالقذيفة بعد ان اغلقت باب غرفتها بعنفوانية كبيرة زعزعت الجدران وكأنه زلزال عنيف قد ضرب للتو، ثم قالت وهي تحمل عصا صغيرة في يدها اليمنى قد اعتادت ان ترهبهما بها...

- ا لن تكفا عن هذه العادة يا اولاد ؟ الى متى ستستمران بها، ا لم تخجلا من وجود جدتكما التي ايقظها صياحكما المُدوي كالدجاج والديوك، ا لا تريدان ان تعقلا ؟ ام مصران على تذوق هذه التي في يدي ؟

كانت فادية تتكلم دون توقف وصوتها يعلو زيادة عن اللزوم، وجنتاها قد احمرت كحبات الطماطم وعيناها الزمردية صارت تقدح غضبا على اطفالها اللذيْن صارت لا تطيق ضجيجهما البته، اختبئ الاثنان فور ان لمحوا والدتهما قادمة خلف جدتهما يحتميان بها لانهما على تمام المعرفة بغضب فادية ماذا يمكن له ان يفعل.. تدخلت فاطمة تحاول تهدئة ابنتها وبعدها ارتأت الى حل المشكلة باجراء القرعة لهما بواسطة قطعة نقدية من فئة 5 دينار حيث

اختارت عائشة صورة المجاهد الذي يحمل بارودا واختار بلال الرقم ليفوز هو ويدلف الى الحمام.

تركتهما فادية وتوجهت الى المطبخ لاعداد فطور الصباح حيث وضعت القهوة والحليب على النار واخرجت العصير من الثلاجة مرفقا بمربى المشمش والزبدة والشوكولاطة الذائبة، وبعد عشرة دقائق انهت ترتيب الطاولة وصارت تنادي على امها واطفالها لاجل تناول الطعام. صارت عائشة تئن وتتذمر لعدم رغبتها في شرب الحليب، اذ شدّدت عليها فادية بحركة عينيها القاتلة التي تعرفها الصغيرة جيدا كما انها هدّدتها ان لم تنهي فطورها فإنها لن تشاهد برنامج افتح يا سمسم على الثامنة صباحا المفضل لديها، لم تكن فادية عاطفية كثيرا مع عائشة وبلال فهي على عكس شقيقتها الصغرى ريان تتسم بالصّرامة معهما مثل زوجها تماما كي لا يتمردان عليهما مستقبلا، وبالرغم من هذا الا انهما باتا يتعبانها جدا الاشهر الاخيرة.

كانت والدتها تنظر الى تعاملها مع اطفالها بحب تتذكر بدورها ايامها مع ابنتها عندما كانت في مثل عمرهما، حيث ما ان غادر التوأمين المطبخ حتى قالت لها :

- عندما اراك هكذا مع عائشة اتذكر الماضي ايضا وايامي معك عندما كنت تتعبينني

ضحكت الاخرى بعفوية واردفت :

- تقصدين ان التاريخ يُعيد نفسه ا ليس كذلك ؟

- اجل، لقد كنت شقية مثل ابنتك ولطالما ارهقتني تربيتك على عكس سليم وريان

- على سيرة ريان اليوم هو حفل تخرجها ؟

- اجل، لقد اصرت على اقامة حفلة صغيرة مع زملائها كتذكار جميل

- جيد، وهل قررت ان تكمل تعليمها ام انها ستكتفي بشهادة الليسانس

- لا ادري... اعتقد انها تنوي انهاءه في كندا.. فقد الّحت على والدك كثيرا الاونة الاخيرة كي يُرسلها هناك، لكنه لم يوافق على الامر كما لم يعارض عليه ايضا

- الصراحة،، لو كنت مكانها لفعلت الامر عينه ايضا، فانا قد انهيتُ دراستي ولم استفد شيئا انتهى بي المطاف ربة بيت... بالمناسبة هل ستعودين الى المنزل اليوم ؟

اجابتها الاخرى وهي تقوم بطلي الشوكولاطة على قطعة الخبز ...

- نعم يكفيني الى هذا الحد لا استطيع ترك ريان بمفردها اكثر من هذا

- لكنها ليست وحدها ابي وسليم معها

- وليكن، هما لن يمكثا في البيت طوال اليوم معظم وقتهما في الخارج

- لقد فهمت عليك.. كما تريدين

تلك اللحظة رن هاتف فاطمة الخلوي قد احضره لها بلال من فوق الكنبة في غرفة المعيشة، بسرعة اخذته منه واجابت على الفور بعدما لمحت اسم زوجها كمال على الشاشة :

- آلو، خيرا يا كمال ؟ ماذا هناك من عند الصباح الباكر ؟!

- متى ستعودين الى البيت ؟

- اليوم بإذن الله بعد الظهيرة لماذا ؟

- هناك موضوع مهم يخص ريان يجب ان اناقشك فيه ولهذا ارتدي ثيابك وتعالي حالا

انتاب فاطمة القلق حول كلامه وقالت بنبرة خوف :

- لقد افزعتني يا رجل ما الامر ؟!

- عندما تأتي الى هنا ستعرفين كل شيء

اغلقت المكالمة وقد تحول لونها الى الاصفر من شدة الهلع جرّاء اتصال زوجها لها، وباتت الاسئلة تنهش تفكيرها حول ما جرى مع ابنتها الصغرى ريان لدرجة ان يهاتفها كمال ويأمرها ان تعود الى المنزل فورا... قاطع حبل افكارها صوت فادية تستفسر منها عن الشيء الذي دار بينها وبين ابيها لدرجة انه جعلها تبدو في حالة سيئة للغاية ..

- امي ماذا هناك ؟ ماذا قال لك ابي ؟

انتفضت الاخيرة على حديث ابنتها وصارت تنظر اليها ببلاهة تركيزها كله في كلام كمال بخصوص ريان، امسكت كأس الماء وارتشفت منه بضع رشفات تلتقط بها انفاسها ثم اجابت قائلة :

- لا اعلم يا فادية، اخبرني والدك ان اعود الى البيت حالا لانه هناك موضوع يخص شقيقتك يجب ان يناقشني فيه

رفعت فادية حاجبها في استغراب حول الامر ولم تعلق كثيرا بل قامت بتهدئة امها وطلبت منها ان تطرد الوساوس عنها ولا تنجرف وراء الاحتمالات فلربما كان امرا خيّرا وليس سيئا، تنهدت فاطمة باريحية لكلام فادية وقالت مجددا :

- ارجو ان يكون كلامك صحيحا وان لا يكون مكروه اصاب شقيقتك

- ما هذا الكلام الآن يا امي.. لا تقلقي سيكون كل شيء على الف ما يرام

- اتمنى هذا عزيزتي المهم يجب ان اجهز نفسي واستعد للعودة الى عنابة كي اعرف القصة

- حسنا، ولا تنسي ان تكلميني حالما تصلين وتطمئنيني عن الاوضاع

- اجل بالتأكيد بنيتي لا تقلقي

كادت ان تتكلم فادية معها مرة اخرى لكن صراخ ابنتها عائشة وهي تشتكي ازعاج بلال حال دون ذلك فاضطرت للذهاب اليها كي ترى في امرها هذه المرة وهي تتوعد في سرها لها ولاخيها.

***

غادرت ريان المنزل بعد ان انهت فطورها الصباحي حوالي الساعة الثامنة تاركة والدها قد استيقظ لتوه، وتوجهت بسرعة الى الشارع الرئيسي لايقاف سيارة اجرة لتقلها الى وجهتها المنشودة... كانت الشوارع تشهد حالة ازدحام كبير على طول الساحل الشرقي، حيث لفت انتباهها ذلك الكم الهائل من الحافلات الخاصة بالرحلات السياحية مركونة بجانب بعضها البعض عند الموقف الخاص بالشاطئ، توقفت لوهلة من الزمن بعدما لمحت طيور النورس تحلق فوق رأسها وتتجه ناحية البحر، وقد لمعت عيناها عندها ببريق خافت وصارت الفرحة بادية على وجهها فلطالما كان طائر النورس هو طائر الحظ خاصتها التي رؤيتها له تجلب لها الفأل الخير وتحقق امنياتها بالرغم من علمها المطلق ويقينها التام ان الله سبحانه وتعالى

هو القادر على كل شيء... تلك اللحظة سقطت ريشة بيضاء عند قدميها يرجح انها من جناح ذلك الطائر؛ حملتها بين يديها وعادت بذاكرتها الى الوراء قبل سنتين...

بعد ذلك اليوم الذي صادفتُ فيه وائل في مكتبة الكلية جمعتنا مع بعض لحظات جميلة جدا خصوصا انني صِرتُ اواضب على التزام المحاضرات في مواعيدها وذلك كله فقط كي ارى الشاب الذي اخد عقلي منذ اول يوم رايته فيه صدفة، في بادي الامر كان تعارفنا جافا بعض الشيء بسبب شخصيته الجدية التي غلبت على تطبعه وقد كنت ابذل جهدا كبيرا كي اجعله يتكلم وينخرط معي في الاحاديث المتنوعة وينسى بدوره الدراسة التي شغلت عقله وقلبه في آن واحد؛ نصحتني إيلين ان ابتعد عنه وان هذا الشاب لا يناسب فتاة حالمة مثلي فهو واقعي لدرجة لا تُطاق، لكن لم استمع لها بل انجرفت وراء مشاعري وفضولي حوله ولم اجدني الا وانا اغترف من كأس العشق جرعة جرعة،،، كانت معظم اوقاتنا معا اما في المكتبة نراجع ما قد سلف او في النادي نرتشف فنجان القهوة واحيانا قليلة وبعد محاولات جمة مني نذهب الى كافيتيريا البارداس التي تطل على شاطئ سانكلو ندردش قليلا حول حياتنا الخاصة وما سنكون عليه بعد مرور السنوات في كلية الهندسة، لم يكن وائل رومنسي ولم تكن تستهويه فكرة احضار الهدايا ايام عيد الميلاد او الاعياد الاخرى كعيد المراة او عيد الحب وغيرهم من المناسبات كما انه عندما كنت افاجئه انا ارى الانزعاج على ملامح وجهه لم يكن يفلح في اخفائه، يقول لي ان الحب ليس في شراء هدية او عمل مفاجاة بل هو اكبر من ذلك بكثير،، لم اكن افهم قصده حينذآك ولم افهمه لحد الساعة.

ذات مرة بعد عام من علاقتنا معا كنا نجلس في احد الكراسي الخشبية في حديقة ايدوغ الجنوبية القابعة في شارع الماجستيك قرب مركز الصحة نتكلم حول كل ما يجوب له الخاطر خصوصا بعدما سقطت في احد المواد وبات صعبا استدراك البقية اذ دخلت في نوبة اكتئاب وراى وائل ان يحضرني الى هنا كي انسى قليلا، كنت هذه المرة ولاول مرة الطرف المستمع فقط على غير العادة وقد تمنيتُ لحظتها ان يتوقف الزمن بنا ولا يتحرك سنتيما واحدا وذلك كله كي استمع لاحاديث وائل وارى اهتمامه بي الذي لم يكن يُرى من قبل،،، تلك اللحظة حلق فوق رؤوسنا طائر النورس مرفرفا بجناحيه وكأنه سعيد بوجودي هنا، وقفت مكاني بفرح التقط ريشة من فروه تحت انظار وائل التي كان يعلوها الاستغراب اذ لم يلبث مكانه كثيرا وقال بنبرة فضول :

- ما الامر يا ريان ؟ ماذا هناك ؟

التفتُ ناحيته وعدتُ اجلس مكاني انظر للريشة وقد تجدد الامل في داخلي بعدها قلت له :

- لا شيء، فقط لمحت طائر الحظ خاصتي

- قلت طائر الحظ ؟!

- اجل، انه طائر النورس وكلما حلق هذا الطائر فوق راسي حدثت معي اشياء جميلة ولاسيما عندما يهديني ريشة من جناحه

كنت اتكلم معه وانا على دراية انه سيسخر مني وياخد كلامي على محمل الاستهزاء وبالفعل لم يخب ظني حيث اجابني وابتسامة ساخرة ارتسمت على شفتيه القِرمزية :

- ا تعلمين ماذا يقولون عن هذا الهراء الذي تتفوهين به يا ريان ؟

- ماذا ؟

- تطّير... لا يوجد شيء اسمه طائر الحظ او من هذا القبيل

- اذا انت لا تؤمن بهذه الاشياء ؟

- انا واقعي يا عزيزتي اؤمن فقط بما يُمليه القدر علي وبقدراتي وبما سافعله

- لقد فهمت، حسنا ... هل تراهن الان على كلامي ؟

- كيف ؟

- اذا حدثت لي اشياء جميلة الان ساطلب منك ما اريد واذا صار العكس ستكسب انت الرهان وبامكانك فعل ما تشاء دون ان تتجاوز حدودك ؟ هل انت موافق يا سيد وائل سبوعي ؟

لم تكن اجابته فورية لحظتها ربما لانه تسلل بعض الخوف الى داخل قلبه من ان اكسب الرهان، لكنه وافق بعد تفكير دام ثواني معدودة،،، وقد انخرطنا بعدها في الاحاديث متناسبة بدوري الاكتئاب الذي كنت اعاني منه؛ حتى رن هاتفي الجوال على سيمفونية موزارت الذي كان يحبها وائل كثيرا وقد كانت استاذة تصميم المصانع الكيميائية المادة التي سقطت فيها لتقول لي ان طلبي مقبول في اعادة الامتحان لاجل استدراك معدل السداسي الرابع.. تلك اللحظة لم اشعر بنفسي الا وانا اقفز بشدة من الفرح خصوصا انني تراهنت مع وائل حول حدوث اشياء جميلة،،، وبالرغم من رؤيته لكل ما جرى الا انه لم يؤمن ابدا بطائر الحظ وقد كان طلبي وقتذآك ان يفعل كل الاشياء التي يكرهها طيلة اسبوع كامل كمشاهدة افلام الخيال العلمي او قراءة روايات فانتازيا، مفاجئتي بهدية لا تخطر على البال وهي حاملة المفاتيح على شكل صبارة لازلتُ احتفظ بها حتى الساعة.

افاقت ريان من موجة الحنين التي اجتاحتها عند رؤيتها لطيور النورس لا تصدق متى تتحقق امنياتها الثلاثة التي حاربت لاجلها طيلة السنوات الثلاثة منذ انخراطها في الجامعة ومشاركتها في مسابقات الرسم وتعرفها على فارس احلامها وائل الذي رات فيه كل الصفات التي تكملها،،، لم تكن تؤمن بالحب الذي يجمع المختلفين فلطالما اعتقدت ان الثنائي اللذين تتشابه شخصياتهم هم من بامكانهم الاقتران لكن بعد ان عرفت نصفها الآخر غيرت رايها

تماما وادركت ان الحب لا يجمع المتشابهين بل على العكس يجمع المختلفين دائما، كاثنين بينهما فارق العمر او احدهما يعشق الاهتمام بينما الآخر يحتويه البرود، اثنين احدهما لديه ماضي والآخر يحب لاول مرة كما هو الحال في علاقتها هي بفارس احلامها... توقفت عند آخر الرصيف واشّرت على سيارة اجرة كانت قادمة نحوها بسرعة كبيرة، لكنها لم تستجب لها لوجود زبائن فيها، اعادت الكرّة من جديد لكن انتهت محاولتها بالفشل وقد ضاقت درعا من الانتظار لا تدري لما هذا يحدث الآن، تنهدت بعمق تحاول طرد الطاقة السلبية عنها وقد حاولت مرة ثالثة في ايقاف سيارة اجرة وهي كلها امل ان تنجح هذه المرة وبالفعل توقفت امامها بعد ان كادت تيأس من الامر وتستقل حافلة، فتحت الباب الخلفي وصعدت الى الداخل تُلقي تحية السلام على رجل سبعيني قد بلغ من الكبر عُتيا تظهر بعض من خصلات شعره الابيض تحت قبعة صيفية من القش، ومع ذلك ما زال محافظا على وقاره ورباطة جأشه وكأنه في الأربعين من العمر، طلبت منه ريان ان يقلها الى محطة القطار الذي سياخدها الى جامعة باجي مختار القابعة في منطقة سيدي عمار حيث لبى ندائها برحابة وادار المحرك يتجه الى الميناء وسط المدينة،،، كانت طوال الطريق سارحة بافكارها تفكر في الامر المهم الذي سيقوله لها وائل بعد ان ارسل لها تلك الرسالة على الواتس-اب مفادها انه يحتاجها في امر ضروري للغاية، اخدتها الاحتمالات يمينا وشمالا في مخيلتة راسها لكنها بقيت واقفة عند احدهما فقط، وهو ان يقوم بتطوير علاقتهما وجعلها رسمية، فقد كانت تتمنى دائما ان يُكلم وائل والدته عنها ويخبر ابيه ان يطلبها له، لكن كلما كانت تلمح له يخبرها ان الوقت ما زال مبكرا على ذلك الامر وربما الآن قد حان آوانه بعدما انهى سنواته الخمس في الجامعة تخصص الهندسة الكيميائية الذي سلكته ريان لاجله هو.. افاقت من شرودها على صوت المذياع لاذاعة عنابة وهو يردد " *هنا اذاعة الجزائر من عنابة* " كانت حصة شوف حظك من برجك حيث استغربت كثيرا بين نفسها فهذه المرة الاولى التي تقوم فيها الاذاعة ببث شيء كهذا، اطلقت تركيزها مع تلك السيدة التي يبدو عليها من خلال صوتها الشجي انها في العقد الثالث من عمرها، كانت تتكلم عن برج الجوزاء وما تخبئه الايام القادمة لصاحب هذا البرج، ما دفع لريان ان تمسك بقلبها فبالرغم من انها لا تؤمن بهذه الاشياء التي تقود الى الشرك بالله الا انها لم تنجح في منع شعورها بالريبة،،، كانت الشابة تقول :

- برج الجوزاء انت في مأزق كبير، تظن انك ستحقق نجاحا باهرا وان الحظ حليفك لكنك مخطئ لان المشاكل على وشك الوقوع بك،، ومن ظننتهم يحبونك ويريدون لك الخير سيتخلون عنك بسهولة حتى تتعلم ان لا تثق في اي كان

توقفت السيارة امام المحطة وانتفضت ريان على صوت السائق وهو يخبرها بوصولهما، حيث اخرجت ورقة نقدية من فئة 200 دينار وقدمتها له ويداها ترتجفان من شدة الخوف بسبب ما سمعته من خبيرة الابراج تلك التي اجفلت قلبها الصغير، اعاد الرجل لها خمس دنانير ثم قال لها بعد ان لمح اصفرار وجهها :

- هذه مجرد خزعبلات يا ابنتي فلن يصيبنا الا ما كتب الله لنا

ابتسمت ناحيته بعفوية على كلاماته المطمئنة وودعته بلطافة بعد ان شكرته على جرعة الامل تلك، ثم ركضت تسابق الريح كي تلحق على موعد انطلاق القطار.

كانت المحطة تشهد حالة ازدحام رهيب وضجيج يصم الآذان من طرف المسافرين، وقد ارتطمت مرتين بسبب عجلتها مرةً برجل يحمل حقيبة من الجلد ومرة اخرى بامراة تجر عربة طفل رضيع، حتى استطاعت ان تلحق على آخر قاطرة قبل ان ينطلق القطار بعدما اطلق صافرته المُدوية... اخذت لها مكانا جانبيا يُطل على المناظر الطبيعية وراحت تعبث بهاتفها تتصفح بريدها الالكتروني على احرّ من الجمر في انتظار رد اكاديمية الفنون والادب الموجودة في كندا على طلبها للالتحاق بها الذي سيتم ارساله اليوم.. كانت متشوقة جدا لرؤية رد فعل وائل بعدما تخبره انها ستسافر الى اوروبا لاجل اكمال تعليمها هناك والمشاركة في مسابقات الرسم والتصاميم، فقط دقائق معدودة تفصلها عن تحقيق امنياتها الثلاثة،،، لقد صبرت وعانت انتقادات المجتمع برمته من عائلتها التي عارضت انجرافها وراء حلمها في الرسم او اكمال تعليمها خارجا كما انها تحملت جراحات السنتهم كثيرا لكنها لم تستسلم ولم تتراجع عن ما قد عقدت العزم في تحقيقه، دعت الله وتضرعت في كل صلاة فقط كي يعطيها ما اراد قلبها الصغير.

بعد نصف ساعة من الطريق وصلت اخيرا الى وجهتها المنشودة ودقات قلبها تخفق بصورة رهيبة بسبب التوتر، اخذت لها نفسا عميقا وتقدمت الى الامام بخطى واثقة تتصل على إيلين لترى في امرها ان كانت وصلت ام لا،، رنات قليلة فقط واجابت على الخط من الطرف المقابل...

- ريان صباح الخير

- اهلا إيلين ما اخبارك عزيزتي ؟

- بخير ، اين انت يا فتاة ؟

- لقد وصلت للتو الى الجامعة وانا امام الباب وانت ؟

- انني في الجناح الخاص بالهندسة الكيميائية مع بقية الطلبة لاجل استلام الشهادة، تعالي بسرعة كي نلحق بعدها على حفل التخرج

- حسنا.. ثواني فقط واكون عندك

اغلقت ريان المكالمة وركضت بسرعة البرق نحو جناح الهندسة والابتسامة لا تفارق شفتيها الكرزية الممتلئة لا تصدق متى تمسك بتلك الورقة التي عليها ختم مدير الكلية يؤكد اجتيازها

مرحلة الليسانس بنجاح، كما انها لا تصدق متى تجد وظيفة باختصاصها سواء هنا ام في الخارج اذا تم قبولها في جامعات كندا،،، كان الجناح هادئ على غير العادة ومعظم المخابر والمكاتب مغلقة بسبب استراحة العمال ماعدا مكتب المسؤول العام عن الكلية والذي يقوم بتسليم الشهادة للطلبة والطالبات، ما ان دخلت ريان المكان حتى قابلتها رائحة الرطوبة حيث صارت تضع يدها على انفها تمنع عنها تلك الروائح التي تُدخلها في نوبة عطاس مستمر، كما انها شعرت بالبرودة تخترق جسدها على عكس الخارج الذي تتراوح درجة حرارته فوق 40 درجة مئوية، بعد ان صعدت درج الطابق الاول استقبلتها إيلين وسمية يعانقانها بفرح وهما يحملان تذكرة خلاصهما من الكلية كما ان جاسم صديق سمية وزميلهم ايضا القى التحية على ريان مخاطبا اياها قائلا :

- لقد انتهى العام يا زميلتي وصرنا خريجين واخيرا

- ا رايت ! مرت السّنة بلمح البصر

- بالمناسبة لقد كانت حسناء تبحث عنك منذ ساعة

شعرت ريان بريبة ولا تدري لما خالجها احساس لا يبشر بالخير، لان حسناء والمشاكل خطان متقاطعان يلتقيان على الدوام، ارادت ان تتكلم لكن صوت سمية حال دون ذلك حيث قالت :

- صحيح لقد سألتني عنك ايضا وقالت ان الامر ضروري جدا له علاقة بملفك الدراسي

- خيرا ؟!! لقد بدات اقلق

ردت عليها إيلين تروع عنها وتربت على كتفها ..

- لا تخافي عزيزتي واضح انه مسالة تافهة مثلها .. هيا اذهبي لاستلام شهادتك بعدها سنرى في امر حسناء وامر ملفك ايضا

- حسنا انتظراني دقائق واعود

توجهت ريان الى مكتب مسؤول الجناح عبدالله سعيدي ودلفت الى الداخل تخبره عن اسمها وسبب قدومها، رفع الاخير راسه ناحيتها ونزع نظاراته الطبية يتفحصها بارتباك وكأنه قام بفعلة شنيعة بحقها ولا يدري كيف يواجهها... تلك اللحظة غادر الجميع ولم يبقى احد سواها تواجه مصيرها المحتوم الذي سيقلب حياتها راسا على عقب،، تنحنح الاستاذ عبدالله ومسح حبات العرق من جبينه جرّاء التوتر ثم اشر لها بيده ان تجلس فوق الكرسي مقابلا له،، احسّت ريان انه هناك خطأ ما او مصيبة على وشك الوقوع فوق راسها وخصوصا بعدما تذكرت ما قالته خبيرة الابراج عن برجها، ازدرت ريقها بصعوبة وجلست بامر من الاستاذ

في انتظاره ليتكلم، بعد ثواني معدودة كان يراجع فيها بعض الاوراق او ربما كان يتظاهر وحسب قال بنبرة يسودها التوتر..

- اسمعيني يا آنسة عبدالله لا ادري حقا كيف ساخبرك بهذا لكن مع الاسف قد حدثث مشكلة تتعلق بملفك الدراسي هنا

- قلت مشكلة ؟ لم افهم قصدك هلّا اوضحت اكثر ؟

- لقد ضاع منا كشف نقاطك لسنة 2020 / 2021 وبسبب هذا النقص لم نتمكن من اعداد شهادتك، وسيُترك الامر حتى شهر سبتمبر القادم او اكتوبر

نزل الخبر عليها كالصاعقة ولم تستطع هضم الامر جيدا اذ شعرت لوهلة ان عالمها الوردي قد صار اسود تماما، تلك اللحظة ترقرقت عينيها الزمردية بالدموع لكنها تمكنت من كبحها في آخر لحظة كي لا تُظهر ضعفها امام من يريد ان يستقوي عليها،،، تنفست بعمق وكأنها تريد استنشاق اكسجين الكون برمته ثم وجهت عيناها مرة اخرى بثقة ترمق من يجلس قبالتها بتحدي وقالت :

- ولكن هذا ليس خطئي يا استاذ سعيدي؛ انتم من اضاع كشف نقاطي لانني اتذكر جيدا انني قمت بدفعه اول السنة الدراسية ولن اتحمل مسؤولية استهتاركم

- الزمي حدك يا آنسة عبدالله لو بالفعل قمت بتسليمه اول العام لكان بين اوراق ملفك الدراسي، اخال انه هُيئ اليك وحسب انك فعلت ذلك

لم تتحمل ريان استنكاره اكثر بالرغم من انه هو المخطئ وقد فقدت لحظتها السيطرة على نفسها وقامت بضرب الطاولة عليه بكل ما اوتيَت من قوة مخاطبة اياه :

- انا لن اسكت بخصوص هذا الامر يا سيد سعيدي وسآخد حقي منكم مهما كلفني الامر، ستدفع الثمن غاليا

- لقد تجاوزت كل الحدود المسموحة، افعلي ما يحلو لك ليس لديك اي دليل يُدينا ثم هذا لن يغير من الامر شيئا ستستلمين شهادتك اوائل شهر سبتمبر وانتهى الامر، الا اذا نفدت ما اريد ...

كان المسؤول يتكلم وعيناه تقدح شرارة من الغضب يوجه اصبع سبابته عليها حتى وصل عند تلك النقطة اذ تحولت ملامح وجهه الى شيء من الرغبة والقذارة قد ادركتها ريان جيدا بالرغم من انها كذبت احساسها عندها، شعرت بدقات قلبها تخفق بصورة رهيبة ودخان رأسها يتصاعد حلقات حلقات لا تصدق ان تفكيرا وسخا كهذا ينبع من مسؤول جناح كلية الهندسة الكيميائية الذي يحترمه الناس وكل من يعمل معه،،، قالت بتردد :

- انت لا تقصد بكلامك ما فهمته انا ؟

- اعلم انك ذكية ولن يصعب عليك فهم ما ارمي اليه

- انا متفاجئة بالفعل حقا؛ لم اكن اتصور انه سينبع منك تصرفا نجسا كهذا !! تريدني ان ابيع نفسي وشرفي فقط لاجل ورقة ؟؟ انا لست ذاك النوع من الفتيات لقد اخطأت التصويب هذه المرة واذا على شهادتي فلتبقى عندك يا استاذ عبدالله سعيدي، وصدقني سنتواجه مرة اخرى تحت حكم العدالة الالهية

اخرجت ريان كل ما في جعبتها بغضب وحقد وصراخ لشدة انزعاجها من الموقف الذي لم تتخيل يوما انها ستعيشه، وغادرت المكان بعد ان اغلقت الباب بعنفوانية والدموع تنزل على وجنتيها الوردية كسيل وادٍ لا تُعرف له نهاية، توقفت عن منتصف الدرج تلتقط انفاسها التي شعرت باضطرابها بسبب الحزن وجلست القرفصاء تبكي بشراهة على ما حصل معها فهي التي تمنت دائما حصولها على شهادة الليسانس لاجل الدراسة في كندا قد ضاع حلمها في هذا هباءا منثورا وكله جرّاء استهتار في العمل من طرف مسؤول قد اضاع كشف نقاطها الذي حال دونها ودون نيل شهادتها،، تلك اللحظة اقبلت نحوها إيلين بعد ان انتابها القلق حول تأخر صديقتها وقد كانت برفقة شذى صديقتهما الاخرى من ايام الثانوية لكن هي قد تخصصت في العلوم الانسانية كي تحقق حلمها وتغدو صحفية ناجحة ومشهورة،، ما ان راو ريان بتلك الحالة حتى هرعتا اليها مسرعتين وقالت شذى عندها...

- ريان !! ماذا هناك عزيزتي ؟؟ لما كل هذه الدموع ؟

رفعت الاخيرة راسها ناحيتها وزادت من حجم بكائها تعانقها وتردد بين شفتيها " لقد ضاع حلمي يا بنات .. ضاع هباءا منثورا " ، جلست إيلين بجانبها وقامت بتهدئتها بمساعدة شذى ثم اردفت نحوها ..

- ما الذي ضاع عزيزتي ؟ هيا اخبرينا كي نفهم عليك ولربما تمكنا من مساعدتك

- إيلين على حق يا ريان قولي لنا ماذا جرى لك ؟

مسحت دموعها تلك بصعوبة واطراف جسدها ترتعش من الالم ثم روت لهما كل ما حدث بينها وبين الاستاذ عبدالله بصوت متقطع تشوبه الحان القهر على ما آل بها،، المسكينة بعدما كانت دقائق فقط تفصلها عن بلوغ المراتب العليا صارت اشهر الان، تبادلت صديقتيها نظرات الاستغراب لا يصدقن ان هذا قد عاشته ريان فعلا وخصوصا إيلين التي كانت ترى مسؤول الكلية غاية في الطيبة والرقة،، قالت لها والاستغراب لا ينفك عن ملامح وجهها...

- هل انت واثقة ان عبدالله قال لك هذا ؟

- وهل برايك انا في مزاج يسمح لي بالمزاح ؟

- انا لا اصدق لقد كان من خيرة الاساتذة ماذا جرى له كي يطلب منك امرا منافيا للدين والعقيدة الا يخاف الله ؟؟

اجابتها شذى حينها ..

- جميعهم رجال يا إيلين لا احد يتوقع ماذا سينجم منهم، المهم عزيزتي ريان لا تشغلي بالك كثيرا الايام تمر بسرعة البرق وسياتي شهر سبتمبر بلمح البصر

- وهل برايك هذا ما يقلقني ؟ نيل شهادتي الان ؟

- ا هناك شيء آخر ؟

- لقد اعلنت جامعة كندا عن فتح مناصب شغل وافرة في اختصاص الهندسة الكيميائية مستوى ثالثة ليسانس وقامت بخفض تكاليف تذاكر الطائرة وتسهيل امر التأشيرة ايضا كما انها ستكون المرة الاولى والاخيرة وان ضاعت فرصتي الان فانها لن تتكرر ابدا

- ومتى آخر اجل للتسجيلات ؟

- منتصف شهر اوت او اربما اواخره

عادت الفتاتين تواسيانها من جديد لحدوث معها عكس ما كانت تتمناه وقد طلبت منها إيلين ان تذهب معهما الى حيث يُقام حفل التخرج لدفعتهم في نادي الجامعة الثقافي كي تنسى قليلا المآساة التي مرت على رأسها لكنها وقبل ان تقف مكانها وردتها رسالة على بريدها الالكتروني من اكاديمية الفنون التي في كندا مفادها انه تم رفض طلبها في القبول بسبب عدم حصول تصاميمها النتائج المرجوة،،، وكأن تاجيل استيلام شهادتها لم يكفيها حتى تُكمل عليها هذه الرسالة التي زادت الطين بلة؛ ودّعت صديقتيها لعدم رغبتها في الكلام او الاختلاط متمنية لهما النجاح في حياتهما، تمشي بلا هوادة لا تدري اين سيدركها المسير في شرق حينا او الجنوب احيانا في الغرب او نحو الشمال مقرنة باصفاد الخدلان كما الأسير،، كانت تنساب العبرات من عينيها مثل زخات المطر وحنينها الى الماضي يبكي في صمت مرير، حتى وجدت نفسها بين اعتاب مطعم الخيمة الذي يبعد عن الجامعة بضعة امتار يُطل على سكة الحديد ومصنع الحليب في الضفة الاخرى حيث كانت تزاوله كل مرة من يوم الاثنين خلال سنواتها الثلاثة في الجامعة برفقة وائل لاجل تناول الهوت دوغ اللذيذ الذي تُعده ايادي نظيفة،، جلست بقرب النافدة في طاولة منزوية عن الزبائن الموجودين وارسلت رسالة الى حبيبها تطلب منه القدوم في عجل فهو الوحيد الآن القادر على اعادة الابتسامة اليها بعدما اختطفتها اشباح الخيبة التي هلّت عليها من العدم،،، اقبل النادل نحوها وسألها عن طلبها

بنبرة لطيفة لكنها اخبرته انها في انتظار شخص ما وستطلب بعدما يأتي، اومأ راسه بالايجاب وغادرها دون كلام الى عمله، اما هي عادت تسرح بخيالها تفكر في الاحداث الاخيرة وما سمعته من خبيرة الابراج،، بعد برهة زمنية اقبل نحوها ملاذها الآمن يرتدي سروال جينز اسود مع قميص قرمزي وحذاء رياضي من نوع اديداس يلف معصمه الايسر بساعة فضية من نوع دانيال فهو لا يرتدي غير هذه الماركة،، جلس قبالتها ينزع نظاراته الشمسية السوداء يُلقى التحية بنوع من الفتور قد لاحظته جيدا لكنها تظاهرت بالعكس ثم قال :

- ريان لقد اردت لقائك كي اخبرك بشيء بالغ في الاهمية

كادت ان تتكلم هي اولا وتبوح له بكل ما جرى معها منذ ان وطأت أقدامها ارض الجامعة لكن مقاطعته لها للكلام وبتلك النبرة حالت دون ذلك حيث التزمت الصمت ودقات قلبها تكاد تخترق جداريات قفصها الصدري، تردد وائل قليلا لا يعرف كيف سيبدأ الحديث فالشيء الذي سيقوله لها احتمال انه سيقضي على آخر ما بقي لها من الامل، اخد زفيرا قويا ثم اردف..

- لقد جمعتنا معا علاقة رائعة يا ريان انت بمخليتك الواسعة وانا بواقعيتي القاتلة والمملة كما كنت انت تقولين عنها، صدقيني لقد كنت اول فتاة تجمعني بها لحظات لا يمكن نسيانها،، لكن اعذريني لا يمكنني ان استمر معك في هذه العلاقة

فتحت عينيها في ذهول لا تصدق ان هذا قد حدث ايضا الا يكفيها تلك الخيبات لحد الساعة ؟؟ ام تراه اتفق الجميع عليها اليوم ؟ ارادت ان تتكلم ان تصرخ لكن طاقتها لم تكفي لذلك فقد استنزفتها جميعها قبل قليل ولم يتبقى منها لهذا الامر، واصل وائل كلامه وهي تنظر نحوه لكنها في عالم آخر تماما...

- اعلم انك صُدمت بسبب قراري الذي ربما ترينه مفاجئا لكن صدقيني لي اشهر وانا افكر به...

قاطعته بحدة ترمقه بنظرات نارية بامكانها احراق قارة افريقيا بأكملها..

- هل هذه مزحة يا وائل ؟ الان تبين معك اننا لا نصلح لان نكون سويا ؟ لما انتظرت كل هذه المدة وقررت التفكير بخصوص نوعية علاقتنا ؟ لماذا يا وائل ؟

- ارجوك افهميني الامر ليس بيدي

- وبيد من اذا ؟ هل تراني غبية امامك ساصدق هراءك هذا ... ام تراه مكتوب بلهاء على جبيني ؟

- انا لا اصلح للعلاقات الطويلة لا استطيع ان اربط نفسي بالزواج والاطفال،،، لست مستعد للاستقرار بعد وانت لن تنتظريني العمر كله، ثم اطمح للذهاب الى كندا لاجل الدوكتوراه انت تعلمين انه حلمي السفر الى الخارج

نزلت دموعها ساخنة من مقلتيها تتمنى ان يكون هذا كابوس وستسيقظ منه لكن مع الاسف هو واقع مرير قد فاجئها على حين غرة بانعكاسات لا تخطر على البال،، تنهدت باسى وقالت بصوت مبحوح

- ا هذا قرارك الاخير ؟ ولا رجعة فيه ؟

- اجل يا ريان،، انا بالفعل آسف يا ليتها لم تسري الامور بهذه الطريقة

قاطع كلامه رنين هاتفه الجوال حيث استأذن منها وقام من مكانه يرد على المكالمة التي دامت دقائق معدودة فقط مع صديقه المقرب وما ان ادار رأسه ليعود مكانه تفاجأ باختفاء ريان التي اغتنمت فرصة حديثه وغادرت المطعم غارقة في احزانها لا ترجو شيئا واحدا الآن وهو ان تدخل في عزلة كبيرة عن العالم وتنزوي داخل قوقعتها بعيدا عن نهافات البشر،،، هي لم تتمنى كثيرا فقط ثلاثة امنيات قد اخدنها شغفا في تحقيقهم والسّعي وراءهم مهما كلفها الثمن لكن كل شيء جرى عكس التيار وفعلها معها القدر لاسباب ربانية تجهلها،، صادفت في طريقها الى محطة القطار وهي تعود ادراجها الى البيت ريشة بيضاء مرمية على الارض فحملتها بين يديها وصارت تخاطبها بغضب :

- لما فعلتِ هذا بي ؟ لقد كنتِ دائما تمُنين علي بالحظ الايجابي كلما صادفتك ؟ لماذا غيرت رايك فجاة وفعلتها بي ؟ ا لم تعودي طائر الحظ خاصتي هل تخليت عني مثلما تخلت عني احلامي ؟

رمتها من يدها وواصلت مسيرها تاخد لها تذكرة الى وسط المدينة وسط ذلك الزحام الذي جعلها تُصاب بالصداع اضافة الى الذي تعاني منه،،، كانت تجلس بجانب فتاة صغيرة لم تبلغ الحِلم بعد برفقة والدتها التي كانت منهمكة في تصفح مواصق التواصل الاجتماعي غير عابئة بابنتها، وقد صارت ريان تنظر نحوها تشتاق بدورها الى الماضي عندما كانت في ريعان الطفولة تركض بارجل مقوسة بشرتها تشع بنور الامل والتفاؤل مع شقيقها سليم وشقيقتها فادية في الحي القديم قبل ان ينتقلوا للنصر،، كانت ايام رائعة بالفعل فقد كان اكبر همها آنذاك انها لم تنجز واجب الرياضيات ولم تحفظ سورة العاديات؛ لكنها كبرت وكبرت مشاكلها وزادت من حجمها اضعاف مضاعفة لدرجة انها لم تعد تقوى على المضي للامام ولو خطوة واحدة،،، وصل القطار اخيرا واطلق صافرته المُدوية بعدها ترجل الركاب بانتظام غير معهود، وما ان صارت ريان خارج اسوار المحطة حتى رن هاتفها للمرة العشرين من طرف وائل الذي لم ينفك الاتصال بها، وصل الغضب معها الى ذروته وقامت

باغلاق الهاتف كي ترتاح من ازعاجه لها نهائيا وراحت تمشي وسط المدينة تسلك طريق ساحة الثورة لكن عقلها في مكان آخر لدرجة انها لم تنتبه لتلك السيارة السوداء من نوع بولو وهي قادمة نحوها فكادت ترتطمها عاليا في الهواء؛ ولو لم يدعس صاحبها على الفرامل في آخر لحظة لانتقلت الى جوار ربها.

***

عرقلة سير كبيرة يشهدها الطريق الرئيسي لساحل ريزي عمر حوالي الساعة العاشرة والنصف تقريبا بسبب قدوم السياح من الولايات الاخرى لاجل التخييم في شاطئ عين عشير المعروف في عنابة على انه احسن شاطئ،، كانت درجة الحرارة عالية جدا تتراوح ما بين 35 الى 45 درجة مئوية بسبب اقتراب نهاية الشهر وبالرغم من هذا الا ان الساحل يشهد حشد غفير من الناس القادمين من كل فج عميق خصوصا اولئك اللذين يقطنون في المدن الداخلية لا يرون البحر الا ايام العطلة الصيفية... تأفف هارون من الوضع بسبب الزحمة فقد تأخر كثيرا على اول موعد له في عمله، فهو يُعتبر ابرع طبيب نفساني في المدينة بل في البلد كله كما انه استاذ جامعي ناجح مع انه لم يتجاوز 34 من العمر،، نظر نحو ساعة يده رولاكس وزاد من حدة انزعاجه كثيرا اذ مضت نصف ساعة تقريبا وهو عالق في زحمة السير هذه، كان يستمع الى المذياع مطلقا تركيزه مع آخر الاخبار حول زيادة في اسعار البترول والمواد الخام ثم انتقل الى مواضيع الكرة واللاعبين،،، حتى اتت خبيرة الابراج سعاد المعروفة من مدينة تيارت تتكلم بخصوص برج الجوزاء، كاد يُغلق الصوت لمقته هذه الاشياء التي يراها خرافات ولا تمتُ الواقع باي صلة لكنه توقف عندما انتقلت بعدها الى برج الحمل،، وبالرغم من عدم اهتمامه بهذه الخزعبلات الا انه صار يُنصت من باب التسلية...

- ايامك القادمة برج الحمل كلها فرح وانتصارات على الصعيد المادي والعملي كما انها في انتظارك مفاجآت كبيرة من ناحية علاقاتك العاطفية لكنها ستمر عليك بعض العقبات يتحتم عليك مواجهتها دون ان تنجرف وراء عاطفتك

وقبل ان تُنهي كلامها اغلق المذياع مستاء من نفسه انه اضاع ثواني من وقته يستمع الى هذا الهراء والكلام السخيف،، بعد ان خفت حركة المرور زاد من سرعة سيارته كي يلحق على اول موعد خصوصا انه على دراية بوضع المريضة القادمة اليه؛ وفي طريقه رن هاتفه على نغمة سيمفونية موزارت التي يعشقها منذ كان صغيرا؛ نظر الى الشاشة فوجدها والدته تريد الوصول اليه بشتى الطرق فقط كي تقنعه بخصوص ذلك الموضوع الذي ذاق درعا منه،، اراد ان يجيب عليها لكن سقط منه هاتفه اسفل الكرسي الذي بجانبه وبينما هو يحاول التقاطه توقف على حين غرة بعدما كاد يدعس فتاة شابة لا تزال في عقدها الثاني من العمر،، ما اثار انتباهه هو تلك اللمعة في عينيها الزمردية وهي ترمقه بنظرات غريبة لم يستطع فهمها او تحليلها، فبالنهاية هو طبيب نفساني وما راه في تلك الشابة يوضح جيدا انها تمر بمرحلة كآبة جرّاء خيبة امل تعرضت لها،،، افاق من شروده ونفض الافكار عنه يكمل طريقه الى مكان عيادته في حي لاسيتي اوزاس،،، وصورة تلك الفتاة لم تغب ولو للحظة عن باله، اجتاحه فضول شديد ناحيتها عن السبب الذي اودع بها الى هذه الحالة من الدمار... وصل الى مكان عمله وركن سيارته عند اسفل البناية، ثم ترجل منها يحمل ملفاته الخاصة ومفاتيحه وهاتفه ايضا الذي كاد ينسى امره، وتوجه الى الطابق الثاني حيث الشقة على اليمين الذي وجد بابها مفتوحا فعرف ان مساعدته قد وصلت قبله على غير العادة، دلف الى الداخل يتجه ناحية مكتبه بعد قاعة الانتظار وهناك استقبلته المساعدة تلقي تحية الصباح..

- صباح الخير حضرة الطبيب زعيم

- اهلا حسناء.. صباح النور،، ماذا يوجد بخصوص مواعيد اليوم ؟

- لديك الان موعد مع اسماء بخليلي بعدها موعد مع طفل مصاب بالتوحد وموعدين مساءا

- حسنا، احضري لي ملف مريض التوحد الى مكتبي

- حاضر

دلف الى الداخل لتقابله رائحة ورود الجوري والياسمين التي قامت برشها مساعدته كعادة منها كلما اتت هي قبله،، وضع مفاتيحه فوق مكتبه ثم جلس يفكر في تلك الجميلة التي اثارت استحسانه على حين غرة،، فتح حاسبه المحمول كي يرسل بريد الكتروني لزميله في العمل وفي تلك الاثناء دلفت حسناء الى المكتب تحمل ملفا ازرقا داخله معلومات تخص المريض، قدمته له وجلست قبالته تبتسم ناحيته بلطافة...

- عزيزي لما يبدو عليك انك لست بخير ؟

- لا شيء يا حسناء فقط صداع طفيف

- ا متأكد ؟ لا يوجد شيء آخر ؟

- نعم، عودي الآن الى مكتبك لربما أتى شخص لا تنسي اننا في مكان عمل

- تمام،،، هل نقوم بجولة صغيرة الى المنارة بعد الدوام ؟

- لست في مزاج يسمح لي بذلك، فلنؤجلها الى يوم آخر

- كما تريد

غادرت حسناء الى مكانها تاركة اياه غارقا في تفكيره بخصوص ذلك الامر الذي لا يعلم كيف سيقوم بحله دون ان يجرح اي طرف له علاقة بالقصة، تنهد ووقف مكانه يتجه ناحية النافذة التي تطل على الشارع الذي يعج بالناس نساءا ورجالا كبارا وصغارا يقصدون مختلف المحلات من صانع الفخار الذي يصرخ وينادي يقوم بعرض سلعته ودكان المؤكولات التقليدية شارد الذهن في ذلك الصبي الذي يتلذذ من وراء زجاج الواجهة، وبينما هو في تلك الحالة سمع طرقات خفيفة على الباب فادرك ان المريضة قد وصلت؛ عدّل هندامه وعاد يجلس مكانه ثم امرها بالدخول بصوت هادئ،، كانت الفتاة في نهاية عمرها الثامن عشر لكن تفاصيل وجهها الحنطي الذي اثقلته الهموم تعطيها اكبر من عمرها بكثير،، ترتدي فستان اسود وحجاب من نفس اللون وكأنها في حداد على احلامها التي ضاعت منها،، ابتسمت بتصنع مع الطبيب وجلست قبالته تنظر الى الاسفل تعبث باصابعها دون ان تنبس ببنت شفة، انتظر هارون ثواني وبعد ان ان يأس من كلامها بادرها هو قائلا :

- اذا يا اسماء ؟ اين وصلنا في الحصة الفارطة ؟

بقيت صامتة ايضا ولم تتكلم وكأنها نذرت للرحمن صوما فلن تكلم اليوم انسيا،، اردف نحوها هارون مجددا لانه يعلم بحالتها جيدا وانها تعاني من اكتئاب حاد جدا بسبب ظروفها القاسية مع زوج امها...

- الصمت لن يفيدك بشيء يا اسماء يجب ان تُخرجي ما في جعبتك كي ترتاحي،،، وانا اعدك انني سابذل قصارى جهدي لاخراجك من قوقعتك

ابتسمت بسخرية لكلامه الذي تراه امرا مستحيلا بالرغم من انها هي من ارادت اللجوء اليه وقالت وهي تنظر داخل تلك العينين اللازوردية :

- كيف ستخرجني يا حضرة الطبيب ؟ وانا التي لا تصدق متى تخرج من مصيبة حتى تقع في اخرى وكأن الواقع اقسم على ان يدعني في حال سبيلي

- ماذا حصل مجددا ؟ هل الامر يتعلق بزوج امك ؟ هل طلب منك ان تلبي رغبته ؟

- ليس هذا لقد يأس مني ولم يعد يحاول في الامر

- اذا ؟؟

عادت الى الصمت ثانيةً تتذكر ما جرى معها الاسبوع الماضي وقد ترقرقت عيناها الذابلة بالدموع تريد ان ينتهي هذا العذاب باي طريقة، شعر هارون بالامها واعاد عليها السؤال يلح عليها اخباره كي يتمكن من مساعدتها، مسحت دموعها التي فشلت في كبحها وقالت :

- يريد ان يزوجني من صديقه الذي يكبرني بعشرين سنة او اكثر بالرغم من اني توسلته ان لا يفعل ذلك ويتراجع عن قراره

تلك اللحظة شعر هارون ان احدهم سكب عليه دلو ماءٍ بارد، صارت دقات قلبه تخفق بصورة رهيبة يتذكر بدوره المآساة التي يعيشها فهو الذي هرب بروحه الى المدى البعيد كي ينسى طلب والدته على تنفيذ مخطط الزواج ذاك صدمه الواقع عن طريق مريضته انه لا زال في مكانه ولم يتحرك مليما واحدا...

اطلقت صافرة ابريس القهوة صوتها الرقيق كان قد اختارها هارون بعناية كي يوفر عليه الوقت في اعدادها بيده في ذلك المطبخ الجميل ذا الطراز التركي قد حرص على بناءه وتشييده بدقة منذ ان انتقل للعيش بمفرده في الطابق الاول من منزل والده، حيث ترك امه وجدته في الطابق الارضي الذي يتكون من غرفتين وصالون اضافة الى مطبخ صغير يطل على حديقة البيت الخلفية،، وانفرد هو بنفسه بعد ان انهى بناء منزله مستعملا ديكورا تركيًا قد اخذه تصميمه الذي شاهده في المجلات شغفا ولوعة... جلس في شرفة المطبخ على كرسيه الهزاز يرتشف قهوته الصباحية مستمتعا بمنظر شروق الشمس الذهبية التي اعادته سنوات الى الماضي السحيق عندما كان والده على قيد الحياة يذهب معه كل يوم سبت الى صيد السمك مع بعض الصيادين من ساحل شابي ايام الشتاء والربيع، اسند راسه على الكرسي وظهرت ملامح الاسى على وجهه واردف يُكلم نفسه بخفوت :

- لماذا فعلت هذا يا ابي ؟ اقحمتني في مشكلة كبيرة لا اتمكن من ايجاد حل لها مهما حاولت،، وانا الذي اعتاد على مساعدة الناس اشكال منهم وانواع، لماذا فعلت هذا وقررت بدلا عني وعنها... لماذا ؟؟ فليتغمد الله روحك يا والدي العزيز

نظر الى ساعة يده وجدها تقريبا الثامنة فقام من مكانه بسرعة يقصد الحمام كي يُنعش نفسه بالماء الساخن قليلا ويستطرد تلك الافكار عنه،، كانت المياه الساخنة تتساقط بغزارة على وجهه كالشلال تخفف عنه الالم الذي يحلق فوق رأسه مثل الغِربان، مد دراعه على رف صغير من الرخام موجود اعلى الحنفية والتقط قارورة غسول الشعر نيڤيا يقوم بفرك فروة راسه بكل قوة فقط كي يُبعد التوتر عنه، بعدها قام برش الماء عليه يُزيل الرغوة ويلف جسده بمنشفة نيلية اللون يتجه الى غرفته الموجودة بجانب الباب تقابل المطبخ،،، بقي ينظر الى الخزانة حائر ماذا سيرتدي اليوم فقد سأِم من نفس الروتين كل يوم وبعد برهة زمنية اخد له سروال كلاسيكي مع صدرية بيضاء وجاكيت غرابي بعدها حرص على انتقاء ربطة عنق رمادية اللون تشبه تقريبا لون عينيه عندما يلامسهما ضوء الشمس،،، امسك علبة هلام الشعر ووضع قليلا منه كي يصبح جاهزا تماما للخروج الى عمله، فهو كطبيب نفسي معروف يحرص دائما على الظهور بابهى حلة تترك اثرا في نفوس مرضاه قبل اصدقائه والوسط الذي يعيش فيه، حمل مفاتيح سيارته واخد هاتفه يغادر البيت وعقله لا ينفك التفكير بتلك المسألة، وبينما هو ينزل الدرج قابل والدته تقوم بري الازهار كعادة منها كل صباح بعد تناول الفطور والتي ما ان لمحته حتى استوقفته تضع صنبور المياه جانبا...

- بني اخيرا خرجت من البيت، كنت في انتظارك

- اذا كنت ستتكلمين بخصوص ذلك الموضوع فدعيني اذهب احسن

تنهدت سهام بنفاد صبر فهي منذ ما يقارب سبعة سنوات تحاول معه في طلب ابنة خاله التي توجب الامر ان تكون زوجة له دون رغبة اي طرف، وقد قال لها في ذلك الوقت انه لم يستعد بعد للاستقرار والارتباط اذ كان مشغولا بدراسته وتحضيره للدوكتوراه التي اخدت كامل وقته.. وبما انه بات جاهزا الان من جميع النواحي اعادت فتح الموضوع معه مجددا منذ ما يقارب شهرين،، اطلقت زفيرا حانقا بتذمر ثم اردفت :

- والحل الان يا هارون ؟ هل تظنني سعيدة للغاية لانني ساحضر ابنة تلك المراة عروسا الى بيتي ؟ لكنها رغبة والدك رحمه الله، لقد اخد مني وعدا ان لا اطلب لك غير تلك الفتاة والا صدقني لما تدخلت بهذا الامر

- وماهو ذنبي يا امي ؟ لما يجب علي القيام بشيء لا ارغب به ؟

- ليس لك ذنب .. الذنب كله ذنب والدك وشقيقي، بسبب صداقتهما قاما باخد ميثاق حول زواجك انت من ابنة اخي

لم يستطع هارون تحمل هذا الهراء اكثر وكأنه يعيش احداث مسلسل هندي غاية في الدراما؛ فهو لطالما اخد قراراته بنفسه ولم يكن يسمح لاي احد بأن يتدخل فيها لكن والده رحمه الله

وضعه تحت الامر الواقع بخصوص مسألة اقترانه، تلك اللحظة فقد سيطرته على اعصابه وصار يحطم كل شيء يمر امامه فقد اصبح الان مُجبرا على تنفيد الوصية ولم يعد يوجد مهرب لذلك،، وعلى إثر ذلك الحدث اقبلت جدته خديجة بعدما اثارت الضوضاء قلقها لترى في الامر، حيث تفاجئت وهي ترى الملابس مرمية على الارض والكراسي بعشوائية ايضا وملامح حفيدها تقدح شرارة... اقتربت منه ببطئ وصارت تربت على كتفه بكل حب وحنان ثم قالت له :

- ما بال حفيدي العزيز هذا الصباح ؟ من الذي اوصلك الى هذه الحالة ؟

وقبل ان يجيبها نطقت سهام :

- انه موضوع خطبته من ابنة اخي يا امي

- ا ما زلت رافضا للفكرة يا هارون

قال :

- كيف تريدنني ان ارتبط بفتاة لا اعرفها ولا اعرف تفكيرها كيف يكون، وفوق كل هذا لا احبها من الاساس ؟

ابتسمت بعفوية معه فهي لا تعرف في هذه الامور ثم اردفت نحوه ...

- انا ايضا لم احب جدك قبل الزواج يا بني، لقد كانت اول مرة اراه فيها ليلة الزفاف ولكن بعدها لم اعد ارى غيره،، نشبت بيننا مودة ورحمة وحبا حلالا لا يُضاهى، وانت ايضا ستحب ابنة خالك ما ان تتعرف عليها وتصبح معها تحت سقف واحد، صدقني ستجمعكما نفس المودة والرحمة التي جمعتنا انا وجدك

لم يكن كلام الجدة رائقا لسهام التي كانت تكره زوجة اخيها ولا تستلطف بناتها وقد ردت حينها بانزعاج ...

- عن اي حب تتكلمين يا امي بالله عليك،، وهل يوجد اصلا في وقتنا هذا ؟

- احسنتِ صنيعا يا ابنتي، انا احاول اقناع الولد بِرَوية وانت تزيدين الطين بلة ؟

لم يكن حفيدها من النوع الذي يقتنع بسهولة، لكنه تظاهر بعكس ذلك كي لا يكسر بخاطر جدته، قبل جبينها بحب وغادر بسرعة قبل ان يداهمه الوقت.

انتبه هارون مع نفسه، وانه سرح قليلا بمخيلته في مكان عمله حيث وجد اسماء ترمقه بنظرات استغراب بخصوص شروده المفاجئ هذا، تنحنح قليلا ثم قال :

- انصتي الي جيدا يا اسماء، ان هذه الحياة ما هي الا عبارة عن مد وجزر، تسحبنا للقاع تارة وتدفعنا للسطح تارة اخرى، ربما ما تمُرين به صعب قليلا بل ويدفعك للجنون؛ لكن صدقيني لا توجد مشكلة وليس لها حل في هذه الدنيا

بقيت تفكر في كلامه قليلا وقد رات انه محق في ما قاله بعض الشيء، سكتت برهة زمنية ثم اردفت :

- وكيف ساقوم بحل هذه المشكلة حضرة الطبيب وانا عاجزة تماما

- الحلول كثيرة، منها اللجوء الى الله وهو اولها، بعدها سيُريك هو الباقي

- صدقني في وضعيتي انا لا امل في النجاة

- لا تقولي هذا، انت قوية فلا تتظاهري بالعكس، عليك فقط ان تغيري وجهة نظرك وان لا تستسلمي للواقع بسهولة، حاربي بكل ما اوتيتِ من قوة، اكملي تعليمك وتفوقي فيه، ابحثي لكِ عن وظيفة كي لا تبقي بحاجة الى زوج امك الذي لا يعرف الرحمة، بعدها اطلبي من والدتك ان تتركه ولربما اذا رات انه بامكانك تحمل المسؤولية ستتركه هي من تلقاء نفسها

- صدقني الكلام سهل

- والفعل اسهل انت فقط حاولي ... فقط حاولي يا اسماء ضعي الله في بالك وجربي تغيير بعض الاشياء، واذا اردت اي مساعدة فأنا هنا ساكون في الخدمة دائما

شعرت الفتاة ببعض الاريحية والامل في النجاة ولا سيما ان الطبيب اخبرها انه بجانبها، لاول مرة في حياتها يمسك احدٌ ما بيديها الصغيرتين وينتشلها من القاع الذي رُميت فيه، تنهدت مطمئنة ووعدت الطبيب انها ستفعل المستحيل لتغير واقعها الى الاحسن ولن تخيب ظنه ابدا،، كما انه شعر بالفرح لمساعدتها في الامر وقد اعطاها موعدا اخر مودعا اياها بسعادة،، امسك بهاتفه الثابت واتصل على حسناء كي تهتم بالمريضة وتقيد لها موعدا اخر ثم طلبها كي تاتي الى مكتبه فقد اشتاق اليها كثيرا ويحتاجها هي وحسب كي يهرب من الواقع الذي فرض عليه ابنة خاله.

***

دلفت فاطمة الى المنزل في حدود الساعة الحادية عشر الا ربع؛ حيث قابلتها رائحة الرطوبة التي كانت تنبع من الاعلى والاسفل بسبب النوافد المُغلقة لاجل التهوية، بسرعة نزعت حجابها وقامت بتوضيب البيت الذي كان يشهد حالة عجيبة من الخراب، خصوصا المطبخ وكأن حرباً شرسة اندلعت ها هنا حيث صارت تتوعد لريان التي على اساس باستطاعتها تحمل المسؤولية، فورا ما ان غيّرت ثيابها وارتدت ملابس بيتية توجهت الى المطبخ تعيد كل شيء الى نصابه، وضعت الاواني المتسخة في الغسالة ثم التفتت على الغداء فلم يبقى وقت على عودة سليم وريان الى المنزل،، شارعت بسرعة في تقشير حبات البطاطا واحدة تلوى الاخرى ثم قامت بتقطيعها على شكل اعواد كي ترميها في الزيت الساخن الذي سبق ووضعته في المقلاة على النار، ثم التفتت على الفلفل الاخضر والطماطم قد عقدت العزم على اعداد سلطة مشوية لاجل سليم الذي يعشقها حد الجنون،، في تلك الاثناء انتبهت الى غياب زوجها الذي اقام الحرب عليها صباحا يطلب منها العودة لاجل موضوع مهم يخص ابنتها،، وضعت الطماطم والسكين من يدها وحملت هاتفها الذي كان فوق الطاولة بجانب سلة الخبز واتصلت على زوجها كي تستفسر منه عن الامر لكنه لم يجب عليها اذ اعادت الكرة ثلاثة مرات لكن من دون جدوى، ابدت انزعاجا حول الامر وقررت مهاتفة ريان لعلها على دراية بالموضوع لكن هاتفها كان مغلق ما دفع بالقلق يحوم حولها بخصوص اشياء خطيرة قد حصلت وهي غائبة عن البيت،، صارت تكلم نفسها تاخدها الافكار السوداوية عن اليمين تارة وعن الشمال تارة اخرى،، حتى جال في خاطرها ان تتصل على سليم وتسأله لربما كان يعلم شيئا، رنات قليلة واجاب على الخط...

- آلو، امي !!

- بني اسفة ان ازعجتك لكن اريد ان اسالك شيئا

- نعم تفضلي ماذا هناك ؟

- ا لم يخبرك والدك بأي شيء يخص شقيقتك ؟

- ايهما ؟

- ريان !

- لا،، لماذا ؟ هل حدث امر ما ؟

- لا اعلم انه والدك اتصل بي صباحا وطلب مني ان اعود لانه هناك موضوع مهم يخص اختك يجب ان يناقشني فيه، وعندما وصلت الى البيت قبل قليل لم اجده، اتصلت عليه لكن لا يجيب وريان هاتفها مغلق،، لقد انتابني القلق

- والله لا فكرة لدي، ثم قبل ان اخرج من المنزل صباحا تركت ريان تستعد للذهاب الى الجامعة لاجل حفل تخرجها واستيلام الشهادة

- لقد فهمت، ربما حملت الموضوع زيادة عن اللزوم فقط

- اجل، لا تقلقي ولا تشغلي بالك، المهم يجب ان اغلق الان يا امي لدي جلسة بعد عشر دقائق

- ا لن تعود لاجل تناول الغداء ؟

- لا اعتقد

- حسنا، كان الله في عونك بني

- اجمعين ان شاءالله

اغلقت فاطمة الخط وعادت الى اعداد فطور الغداء وقلبها لا ينفك من الخفقان خوفا على حدوث ما كانت تخشاه منذ زمن، تسائلت مع نفسها مجددا بخفوت : هل يُعقل ان المسالة تخص تلك ؟؟ ... يا الهي ارجوك لا تكن هي فانا لا اريدها، وبينما هي على تلك الحال سمعت باب المنزل يُفتح بواسطة المفاتيح، فهرولت في عجل تعتقد انه كمال قد اتى، لكن ظنها قد خاب بعد ان لمحت ريان تخلع حذائها الرياضي، كانت ملامح وجهها لا تبشر بالخير ابدا يكسوها الحزن، والاسى ويحيط بها من كل حدب وصوب، شعرت والدتها بالفضول حول حالتها تلك وقالت بنبرة استفسار...

- ريان !! ما هذه الحالة ؟ ماذا حصل معك

رفعت الاخيرة راسها تستغرب وجودها في المنزل في هذه الساعة فعلى حد علمها ستعود بعد الظهيرة كما اخبرتها نهار الامس، قالت لها وهي تخلع حجابها..

- امي !! عدت باكرا ؟ ا لم تقولي لي انك ستاتين بعد الظهيرة ؟

- لا تغيري الموضوع واخبريني ماذا حصل معك ؟

تذكرت ريان ما حدث معها منذ ان وطأت قدمها الجامعة وحتى خروجها منها وهي التي خرجت من المنزل صباحا كلها امل وتفاؤل حول احلامها وامنياتها التي كان من المفروض لها ان تتحقق، لكن عادت مكسورة الخاطر مهزومة من الحرب التي دخلت فيها قبل سنوات، سبحان الله كيف تتغير احوال العباد بين لحظة واخرى، بالفعل ان دوام الحال من المحال،،،

انتفضت على صوت امها التي اعادت السؤال عليها مجددا وقالت بعد ان استجمعت قواها كي لا تنهار امامها..

- لقد تعذر علي استيلام شهادتي بسبب حدوث خطأ في ملفي الدراسي اذ اتضح ان كشف نقاطي للعام الفارط مفقود

- ومتى ستستلمينها ؟

- لا اعلم، ربما شهر سبتمبر او اكتوبر

- اااا لا باس الايام تمضي بسرعة وانت لست مستعجلة عليه

- لكنك تعلمين انني كنت اطمح للذهاب الى كندا،، والان فرصتي ضاعت

- هكذا احسن صدقيني بنيتي ... هل تعتقدين ان الغربة سهلة ؟ انت لن تقدري على العيش هناك وسط اناس كل شيء مباح لهم

كانت ريان تعلم ان عائلتها معارضة للفكرة ولهذا لم تستغرب موقف امها او حتى تحزن، فقط اكتفت بسؤالها عن احوال فادية والتوأمين ثم استاذنت منها لترتاح قليلا من التعب بسبب هذا اليوم قبل آذان الظهر،، دلفت الى غرفتها وهي لا تصدق ان احلامها تلاشت ولن تراها مرة ثانية خصوصا ما فعله وائل معها قد صدمها جدا لدرجة انها فقدت الثقة في نفسها وفي من حولها، كان اول شيء قامت به بعد ان فتحت هاتفها هي انها حظرته من مواقع التواصل الاجتماعي ومن رقمها ايضا، ثم ارتمت فوق سريرها تنظر الى الفراغ فقط الفراغ الذي يحاوطها من كل جانب حتى استسلمت للنوم تغوص في عالم الاحلام الفنان.

***

اجتمعت العائلة حول طاولة العشاء الذي كان عبارة عن كسكس بالسمك وشربة خضار مع بعض المقبلات اللذيذة من تحت ايادي فاطمة الشهية، كان الجميع يتناول بنهم شديد بسبب الجوع ما عدا ريان التي كانت في عالم آخر تماما لا تصدق متى تنزوي داخل غرفتها ولا تخرج منها ابدا،، كان كمال ينظر الى ابنته كل دقيقة والتوتر باديا على وجهه فهو لحد اليوم لم يخبرها بالوعد الذي قطعه لصديقه وزوج اخته بخصوص اقترانها بابن عمتها هارون، لاحظت فاطمة نظراته تجاه ابنتها وتذكرت ما حدث قبل ثلاث ساعات عندما دلف كمال الى البيت...

كنتُ اشاهد التلفاز في غرفة المعيشة على قناة إقرأ الفضائية أُمسك بجهاز التحكم ارقبُ السّاعة على نار في انتظار كمال الذي لم يعد بعد الى المنزل منذ ان خرج صباحا،،، لفت انتباهي برنامج تم بثه على المباشر مقدمه الشيخ وسيم يوسف داعية إسلامي اردني-اماراتي، قد اتصت عليه شابة في عقدها الثاني من العمر من اليمن تخبره ان والدها يُريد تزويجها اجبارا عنها من ابن اخيه الذي بكبرها بعشرة سنوات،، كانت تتكلم معه وصوتها يشهد حالة حزن عميق تطلب منه ان يفتي لها في هذه الحالة فهي مصرة على الرفض تماما،، تلك اللحظة خفق قلبي بشدة خصوصا عندما جال في خاطري موضوع ريان المشابه لهذا بعض الشيء، كنتُ واثقة انها سترفض قطعيا فهي ليست من النوع الذي يحبذ هذه الاشياء وقد اعتراني خوف ان يكون هذا الموضوع نفسه ما يريد ان يكلمني كمال فيه؛ لم البث مكاني كثيرا حتى سمعت صوت الباب فعرفت فورا انه قد اتى، وما هي الا ثواني حتى اقبل ناحيتي يحمل هاتفه بين يديه، القى السلام علي وجلس بجانبي على الاريكة يضع هاتفه فوق الطاولة...

- لقد كلمتني سهام امس !

قمت بكتم صوت التلفاز والتفتُ ناحيته كلي آذان صاغية والفضول انهش تفكيري بالرغم من انني بث واثقة من صحة وساوسي، واصل هو حديثه قائلا :

- هي تريد انهاء المسألة في القريب العاجل، لقد تكلمت مع هارون وهو موافق بخصوص زواجه من ريان ولم يعد هناك داعي للتأجيل اكثر

تنهدتُ بآسى واجبته :

- وماذا بشأن ريان ؟ لما تظن انها ستوافق على امر ارتباطها به ؟

قاطعني بحدة :

- وهل سآخد اذنها ؟ هي مُجبرة على هذا الزواج واذا استلزم الامر احبسها في البيت ولن تكمل تعليمها ولا حتى حلمها في الرسم

- ولكن يا رجل الزواج لا يجوز بالاجبار ؟

- نحن ايضا تزوجنا هكذا وحتى شقيقتها فادية،، من تظن نفسها لترفض شابا مثل هارون ؟

- الا تعلم السبب حقا ؟ هل نسيت ان امك لا تعتبرنا من العائلة منذ ان تزوجنا ؟

- اسمعيني هذه الامور والمشاكل لا تعنيني، لقد وعدت ابراهيم رحمه الله وانتهى الامر كما انه اخد وعدا من سهام ان لا تكون ريان الا لهارون

- ومتى ستخبرها بالامر ؟

- هل هي في البيت ؟

- اجل، انها نائمة في غرفتها.

امسكت فاطمة بكأس الماء وارتشفت منه بضع رشفات وقد علا الانزعاج على ملامح وجهها لا تدري ماذا ستكون ردة فعل ريان بخصوص هذه المسألة التي خالت انها مزحة وحسب وستُنسى مع مرور الايام والسنين، تنهدت بضيق وقالت محدثة زوجها ...

- ا لن تخبر ريان بذلك الامر ؟ اعتقد انه الوقت المناسب ومن حقها ان تعرف الان يا كمال !

انتبه الجميع الى كلامها خصوصا ريان التي دق الفضول نواميس ذاتها والتفتت على ابيها تتسائل حول الامر...

- اي امر ؟ ابي ما الذي تقوله امي ؟؟

وضع كمال الملعقة فوق الصحن يعلن زوجته في سره لحديثها بالامر امام الاولاد وقد وجد نفسه محصورا في الزاوية الآن ولم يعد هناك داعي لاطالة الموضوع اكثر، نظر نحو ريان وقال بحدة ...

- اسمعيني جيدا يا ريان، انا وعمك ابراهيم رحمه الله قد وعدنا بعضنا البعض ان لا نزوج اولادنا الا لبعضهما البعض،، وليس هذا وحسب قد اخد صديقي وعدا من عمتك سهام انه عندما تبلغين السن المناسب للزواج فانها ستطلبك لابنها، وقد كلمتني امس بخصوص هذا الامر وهي في انتظار ردنا كي تاتي لاجل الخطبة رسميا

فتحت ريان عينيها في ذهول لا تصدق ما مر على مسامع اذنيها، فالمشاكل لا تنفك عنها هذا اليوم لا تتجاوز واحدة حتى تصدمها الثانية، ازدرت ريقها بصعوبة وراحت تنظر الى

والدتها التي كانت تلتزم الصمت فهي لا تستطيع فعل شيء حيال الامر، لقد كانت تظن انها مزحة وحسب وستُردم بمرور الزمن لكن لا الموضوع جدي ولا مفر من حدوثه، وقفت مكانها وقد علا الانزعاج ملامح وجهها الذي مزقته الهموم واجابت والدها...

- انا ولا يمكن ان اقبل بهذه المهزلة يا ابي، فهذه حياتي انا ولن اسمح لاي احد بان يقررها بدلا عني

كان ردها بالنسبة لكمال وقحا ولا يمكن القول عنه غير هذا لدرجة انه وقف مكانه وصفعها على خدها صفعة اهتزت لها اركان البيت وجعلتها ترتد بضع خطوات الى الوراء تضع يدها على المكان، وقف سليم مكانه وحاول تهدئة ابيه الذي اراد ان يعيد نفس الشيء، وفاطمة قد صارت حائلا بين زوجها وابنته لكن ريان لم يرهبها الامر بل واصلت كلامها تخرج كل ما في جعبتها اساسا هي في حالة يُرثى لها جرّاء ما حدث معها ولم يعد هناك ما تخسره...

- والله لو وضعت السّكين على رقبتي لما وافقت على عرض الزواج هذا.. لا يمكنك اجباري لا انت ولا اي شخص في هذا العالم، انا لن اتزوج الا بمرضاتي وغير هذا لا تتوقعوا مني اي شيء

غادرت بسرعة الى غرفتها واغلقت الباب بقوة كبيرة تعبر فيها عن غضبها الذي وصل ذُروته، صارت تلعن كل شيء ياتي امامها من مدير كلية الهندسة الكيميائية الذي بسببه لم تستلم شهادتها كي تسافر الى كندا، بعدها التفتت نحو وائل تشتمه بكل ما يمر على لسانها من الفاظ سوقية بذيئة فلو كان لها رجلا كما تمنته لربما كلم والده عنها ولما انتهى بها المطاف الى هذه النقطة، جلست القرفصاء على الارض تبكي بشراهة على ما جرى لها وقد قررت ان تنهي حياتها تلك اللحظة وترتاح من كل شيء، فهي يمكن ان تتحمل كل شيء في هذه الحياة ما عدا الزواج بشخص لا تحبه، تفضل الموت بدلا عن ذلك، رفعت رأسها ناحية دُرج الكومدينة الموجودة بجانب سريرها تضع عليها مصباحها الليلي ذا اللون الابيض على شكل قطة ثم توجهت نحوه وقامت بفتحه تُخرج علبة الاقراص المُهدئة التي كانت تستعملهم كمضادات للاكتئاب، بقيت تنظر نحوهم والشيطان قد بدأ يتسلل الى تفكيرها ويحثها بمكر وخبث،، كانت على وشك فعلها لكن صوت هاتفها وهو يرن على سيمفونية موزارت قد حال دون ذلك وايقظها من الشيء الذي كانت ستُقدم عليه، اعادت الاقراص مكانها وحملت هاتفها واجابت على المكالمة بعدما رات اسم صديقتها على الشاشة..

- شذى لقد اتصلت في وقتك عزيزتي

- ريان ! ماذا هناك يا صديقتي ؟ ولما صوتك مضطرب ؟

- ارجوك لا تسألي وكأن الجميع اتفق علي، لا تنفك المشاكل عني البته

- خيرا ان شاءالله، ماذا حدث معك غير امر الشهادة ورفض اكاديمية كندا لتصاميمك ؟

اجابتها ريان بصوت مبحوح خافت كي لا يسمعها احد ...

- وائل اللعين قد حسم امر علاقته بي وانفصل عني على اساس ليس مستعد للاستقرار بعد

فتحت الاخرى عينيها في ذهول فهي كانت ترى حب وائل لريان بالرغم من شخصياتهما المتناقضة، جلست على الكرسي في شرفة غرفتها وقالت بعدم تصديق :

- انظري لذلك السافل، لم اتوقع منه شيء كهذا

- ا رايتِ ؟ ولا انا توقعت،، المهم ليس هذا وحسب هناك المزيد المزيد

- وماذا حدث ايضا فاجئيني ؟؟

- انه ابي يا شذى يريد تزويجي من ابن عمتي هارون واجباري عني ايضا

- ماااذا !!! في اي عصر نحن الان حتى يزوجك اجباري عنك ؟

- انني في حالة يُرثى لها، منذ اخبرني وانا اعيش حالة صراع كانه لا يكفيني ما مر علي

- كان الله في عونك، حقا ليس هيّن ما تمرين به

- ماذا سافعل الان ؟ ساعديني ارجوك

- حاولي ان تتكلمي معه بروية واخبريه انك لا تحبينه او اطلبي من امك ان تقنعه

- لن يجدي هذا نفعا، فالمسالة لها علاقة بميثاق بينه وبين زوج عمتي ابراهيم رحمه الله، عندما وُلدت انا اخد منه وعدا ان لا يزوجني من احد غير ابنه هارون وليس هذا وحسب قد اخد نفس الوعد من عمتي قبل ان يموت

- مشكلتك اكبر من هذا بكثير اذا، والله لا ادري ما ساقول لك عزيزتي عليك باللجوء الى الله هو من سيساعدك

- سبحانه، انا افكر ان اهرب من البيت ربما عندها يغير رايه

- اياكِ يا ريان ستزيدين الطين بلة وحسب، انا من رايي اذهبي في زيارة خفيفة الى بيت فادية اريحي فيها عقلك واتركي المسالة على الوقت هو سيحلها

- ربما انت على حق،،، شكرا لك يا شذى انت لا مثيل لك

- العفو غاليتي في اي وقت، تصبحين على خير

- وانت من اهله.

***

فتحت ريان عينيها باكرا على اصوات صياح ديوك البيت المجاور تتصبب عرقا من حلم مرعب جعل اطراف جسدها ترتعش من الخوف،، نظرت الى الساعة من خلال هاتفها فوجدتها الخامسة والنصف صباحا، اسندت راسها على وسادتها الحائلة بينها وبين الحائط وراحت تفكر في حل لمشكلتها العويصة التي حلّقت على رأسها في لحظة لم تكن في الحسبان ابدا، تجمعت بعض العبرات في عينيها الزمردية لا تدري لما تشعر ان الامور ستسير عكس ما تحلم، تنهدت باسى تدعو الله ان يقوم بساعدتها ولا يزج بها في احضان زوج لا ترغب به مطلقا، فهي حساسة جدا ولا تستطيع العيش دون حب وبالنسبة لهارون فهي من خلال معرفتها القليلة به فهو انسان بارد وقلبه خال من العاطفة، وقفت مكانها وترّجلت عن سريرها تقصد الحمام كي تتوضأ لصلاة الفجر فتقربها الى الله هو ما تحتاجه هذه الساعة،، اطالت السجود كثيرا بين حضرة الحي الذي لا يموت وبكت وتوسلت الرحمن ان ينتشلها من بئر الاحزان الذي رُميت فيه دون رغبة منها، بعدها جهزت حقيبة رمادية صغيرة وضعت فيها اشيائها المهمة وارتدت ثيابها بهدوء ودون اصدار اي صوت وحملت حقيبتها اليدوية وهاتفها وغادرت المنزل تقصد محطة القطار للذهاب الى بيت شقيقتها... كانت شوارع المدينة خالية من اي حركة فقط بعض السيارات التي كانت تمر بين الفينة والاخرى، توقفت عند اخر الشارع واوقفت سيارة اجرة تطلب من السائق ان يُقلها الى محطة القطار، وبعد عشر دقائق وصلت الى هناك... كانت مترددة بعض الشيء لقيامها بهذا الامر

دون اخبار اهلها او حتى اخد الاذن من والدتها، لكنها كانت عاقدة العزم على حسم ذلك الامر قبل ان يطول اكثر من اللازم، جلست على احد الكراسي في انتظار القطار الذي سياخدها الى وجهتها المنشودة سارحة بخيالها في الفراغ حتى لفتت انتباهها طيور النورس تحلق فوق رأسها، اطلقت ابتسامة ساخرة على اعتقادها انه طائر الحظ خاصتها فقد خدلها بطريقة بشعة نهار الامس بعدما كانت تثق برؤيتها له، زفرت بحنق وعادت تنظر للاسفل حتى تناهى الى سمعها صوت صافرة القطار يحمل رقم 21 نفس رقم الولاية التي ستقصدها،، حملت حقيبتها الجلدية وتوجهت ناحيته مع اقلية من المسافرين واخدت لها مكانا منزويا بجانب النافدة كي تنعم برحلة مُريحة،، اخرجت هاتفها وصارت تتصفح مواقع التواصل الاجتماعي كي لا تشعر بالملل حتى اتصلت عليها امها التي يرجح انها انتبهت لغيابها، ارادت ريان ان تتجنب الحديث معها لعدم رغبتها في الكلام، لكنها غيرت فكرها وارتأت الى مواجهة امها بدلا من الهروب اكثر...

- نعم امي ؟!

- اين انت ؟ دلفت الى غرفتك فلم اجدك ؟

- انني في القطار الان ذاهبة الى بيت فادية

- ريان لا تفقديني اعصابي اكثر، اساسا انا لا اتحمل ما يحدث من حولي، عودي فورا الى البيت والا لن اغفر لك

- لن اعود الى البيت قبل ان تقنعي والدي العزيز ان يغير رايه بخصوص تلك المسألة، ولهذا لا تتعبي نفسك معي

تنهدت فاطمة بضيق واردفت..

- لا يمكنني فعل اي شيء، لقد اتخد قراره منذ ولادتك ولن يرجع فيه، والعناد لن يفيدك صدقيني

- والله فلتنسوا امر عودتي الى المنزل اذا، لانه من المستحيل ان اتزوج بابن تلك المراة.. هذا امر غير وارد الحدوث... احتمال صفر بالمئة

- ريان ارجوك لا تفعلي هكذا، انت تعرفين والدك جيدا، انا لا استطيع الوقوف في وجهه ارجوك افهميني وتقبلي الامر

- انا لست مثلك يا امي، لن اسمح لاي احد بان يفرض رايه علي، انا من هارون لن اتزوج... لن تتزوج... لن اتزوج، لا ادري كيف ستقنعين ابي او ما هي الطريقة التي ستتبعينها، لكن فلتعلموا انني لن اعود الى البيت قبل ان يغير رايه ونقطة انتهى.

بعد ان قالت ريان كل ما عندها اغلقت المكالمة ووضعت هاتفها على النحو الطيران كي لا يُزعجها احدٌ آخر اياً كان، ثم لاحته في حقيبتها وصارت تنظر نحو الخارج الذي بدا لها كئيبا بعض الشيء بسبب تراكم الغيوم في السماء قد اعتبرته حدادًا على احلامها،، بقيت على حالها سارحة بمخيلتها حتى اخدها النعاس لقلة النوم الى عالم الاحلام خاصتها الذي كانت دائما ما ترى نفسها فيه ملكة تتربع على عرش الجاذبية في دنيا الفانتازيا التي اسستها من وحي خيالها،، لكن هذه المرة جرت الرياح بما لا تشتهي السفن وتحول عالمها الوردي الى شيء آخر تماما، حيث رات نفسها تركض في قصرٍ كبير به طوابق عدة وفي كل طابق هناك غرف جمّة... كانت ترتدي فستان ابيض من الحرير يصلُ الى اخمص قدميها، بأكمام طويلة وله فُتحة عند الصّدر،،، ازعجها تطاير شعرها الكيرلي الذي يتربع فوقه تاجٌ مُرصع بالزمرد والياقوت وحجب عنها رؤية المكان التي هي في صدد البحث فيه عن فارس احلامها وزوجها الوسيم، صارت تركض بارجل مقوسة والابتسامة ترتسم على شفتيها القِرمزية تجول بناظريها عن اليمين تارة وعن اليسار تارة اخرى، تجوب كل غرفة تمر امامها لكن لا اثر لوائل وكأن الارض انشقت وابتلعته، عادت الى الطابق الارضي تحديدا الى الحديقة تصرخ وتنادي عليه بأعلى صوتها من دون فائدة، لا احد يجيبها سوى صداها، تلك اللحظة توقفت عن المسير بعدما لمحت شابا طويلا مرشوق القوام يرتدي بدلة رجالية بيضاء يُوليها بظهره، يقف بجانب شجرة عملاقة، اطمئن قلبها واخيرا فور رؤيتها له وسارت ناحيته ببطئ شديد تنده باسمه دون ان يحرّك ساكنا وما ان وصلت وصارت لا تفصلها عنه سوى بضع سنتيمترات، وضعت يدها على كتفه تسأله عن سبب تجاهله لها وهي كانت تناديه للتو، التفت ناحيتها يُطلق ابتسامة مُرعبة اما هي فما ان رات ذلك الوجه حتى ارتدّت الى الوراء في فزع، لقد كان هارون ابن عمتها من يقف امامها..

- لقد كنتُ في انتظارك يا زوجتي الحبيبة

- انا لستُ زوجتك... لستُ زوجتك... لستُ زوجتك

ظلت تردد هذه الجملة بهستيريا وهي تضع يديها على اذنيها كي لا تسمع صوت ضحكاته العالية التي جعلت جسدها ينتفض بهلع على صوت المسؤول عن التذاكر وهو يقوم بايقاظها تتصبب عرقا تنظر من حولها واين هي الان،،، حتى تنهدت باريحية وهي تتذكر انها في القطار الان وما عاشته مجرد كابوس بسبب التفكير الزائد لما جرى معها،، شعر المسؤول بالفضول ناحيتها وبات يرمقها بنظرات ادخلت الشك داخل قلبها، اخرجت ثمن التذكرة وناولته اياه تاخد عنه ورقة صغيرة بيضاء ثم عادت تُسند راسها على الكرسي تنظر للخارج لا تصدق متى تصل الى بيت شقيقتها.

وصلت ريان اخيرا الى وجهتها بعد ان توقف القطار في المحطة الثانية، وترّجلت بخطى متثاقلة لا ترغب في الحديث مع اي احد ولو لم تكن مجبرة على القدوم الى هنا لما اتت، او

ربما قصدت مكانا اخر اكثر عزلة وهدوء بعيدا عن البشر، حملت حقيبتها وسارت ناحية موقف السيارات التي نسيت طريقه من اين، فاضطرت لان توقف احد المارة وتسأله، فهي لا تتردد كثيرا الى بيت فادية وحتى ان اتت كان سليم من يوصلها او والدها، بعد ان دلها الرجل عن الطريق شكرته بابتسامة مزيفة ارتسمت على شفتيها وراحت تقصد وجهتها.

توقفت السّيارة عند شارع سيدي احمد تحديدا جانب العمارة التي تقطن فيها فادية، ترّجلت بسرعة وقلبها يخفق من التوتر، وبعد ان حاسبت السائق دلفت الى داخل العمارة والتعب قد اخد نصيبه منها، صادفت وهي تصعد الدرج زوج شقيقتها الذي تفاجأ بقدومها في هذا الوقت ووالدتها قد غادرت امس فقط حيث انتابه بعض الشك في حدوث بعض الاشياء، ابتسم معها بعفوية واردف ناحيتها..

- ريان !! ما هذه المفاجأة السّارة ؟

- صباح الخير اخي احمد، كيف حالك ؟

- بخير وانت ما اخبارك عزيزتي ؟

- الحمدلله... لقد اشتقت الى التوأمين كثيرا فقلت افاجئهما على غفلة

- سيفرحان بقدومك، لقد استيقظا متأخرين اليوم على غير العادة، هما يتناولان الفطور

- جيد

تركت ريان احمد واكملت طريقها حيث شقة فادية في الطابق قبل الاخير، ومن سوء حظها ان المصعد متوقف ولا يعمل حيث اجهدها صعود ذلك الكم الهائل من السلالم لان البناية تتكون من عشرة طوابق... صار وجهها احمر كحبات الطماطم وزادت درجة حرارة جسمها ضعفين، وفور وصولها سمعت اصوات عائشة وبلال يتشاجران كالعادة وعلى اتفه الاشياء، ضغطت زر الجرس وما هي الا ثواني حتى فتح عليها الصغير الباب لا يصدق ان خالته تقف قبالته..

- ريان !! ... امي لقد اتت ريان

صار يصرخ باعلى صوته من شدة الفرح يعانق خالته الصغيرة التي يناديها باسمها حاف هو واخته، يقبلها بعشوائية على وجهها فله مدة لم يرها فيها، وقد اقبلت نحوهما عائشة ايضا بعد ان علمت بامر قدوم خالتها وانضمت الى شقيقها في العناق والقبل، سعيدة بوجودها هنا فهي من تمنع عنهما عقاب فادية اذا ما قاما بفعل ما،، بعد ان انهوا عملهم دلفوا الى الداخل لتستقبلهم فادية وهي قادمة من المطبخ ترتدي صدرية عليها مختلف انواع الفواكه تحمل سكينا بين يديها، سلمت على اختها وطلبت من التوأمين ان يقصدا غرفتهما كي تأخد راحتها

في الحديث مع ريان، ادركت الاخيرة انها صارت على دراية بالموضوع ولهذا لم تعلق كثيرا بل لاذت بالتسلل الى المطبخ تاخد لها قدحا من القهوة مع قطعة من اليويو الشهي التي تتفنن شقيقتها في اعداده فهي لم تتناول فطورها الصباحي بسبب العجلة، اقبلت فادية نحوها وقالت...

- اذا قررت الهروب انسة ريان كالعادة بدلا ان تواجهي المشكلة

لم تجبها ريان بل واصلت في قضم قطعة اخرى من اليويو وكأنها تريد الانتقام عن طريق الاكل، اما فادية فهي تعرفها جيدا وتعرف تفكيرها ايضا وقد واصلت كلامها غير مكترثة برغبة اختها في الصمت..

- ريان لقد اخطأتِ بقدومك الى هنا دون ان تخبري امي او حتى تطلبي الاذن

توقفت ريان عن الاكل واعادت قطعة اليويو فوق الصحن تأخد لها منديلا قطنيا كي تمسح عنها بقايا الطعام المركونة على شفتيها خصوصا الشوكولاطة التي تحيط باسفل انفها، ثم رفعت راسها نحو شقيقتها التي كانت تقف قبالتها واجابتها :

- وماذا كان يجب علي فعله ؟ هل اقبل بتلك المهزلة ؟

تنهدت فادية تُسند الكرسي الى الوراء قليلا وجلست مُردفةً نحو اختها :

- ليس لديك حل اخر يا ريان، والدي وتعرفينه لا يغير رايه ولو على قطع رقبته

- هذا يخصه هو، انا لن اسمح له بان يقرر عني حياتي

- اعلم انك لا تريدين هذا الزواج،، ولكن هارون شاب تحلم به اي فتاة، انا من رايي فكري مرة اخرى

- هل انت من تقولين هذا يا فادية ؟ هل نسيتِ ابن من هو ؟ لا داعي ان اذكرك بان تلك العائلة قد رفضت وجودنا وانكرتنا منذ كنا صغارا، وخصوصا سهام التي هي سبب كل المشاكل

- وانت ما شأنك بها ؟ ركزي على هارون وحسب... ثم لا تنسي ان شقيقته الاء تحبنا وعلاقتها جيدة معنا كذلك عمتي ليندا لم نرى منها اي سوء

- ارجوك افهميني انا لا احبه ولن احبه،، اساسا فارق العمر بيننا كبير جدا وهذا قراري النهائي لن اتزوجه وعلى جثتي

تلك اللحظة اتت عائشة تُلح على والدتها كي تذهب لشراء بعض المثلجات بعد ان اخدت منها وعدا ليلة امس اذا ما تناولت عشائها كله، حيث وافقت فادية تطلب من ريان ان تصطحبها

برفقة بلال الذي اصر على الذهاب ايضا مقلدا اخته، اما هي فقد عادت الى عملها في تقشير البصل لاجل طعام الغداء.

***

كان منظر غروب الشمس عند المنارة جميلا جدا ويبعثُ الطمأنينة والهدوء على النفس التي اثقلتها الهموم كثقل الجبال،، فلا يمكن للمرء ان يهرب من قدره ولو اغلق على نفسه في بروج مشيدة باحكام، فما كُتب على الجبين ستراه العين عاجلا ام آجلا، وقد كان هارون يُدرك هذا جيدا ولهذا انفرد اليوم مع حبيبته حسناء كوداعٍ اخير بينهما لانه لن يكون معها مجددا، فهو لن يستطيع ان يربطها به وهو على أُهْبة الاستعداد للاقتران بابنة خاله ريان التي لم يكن على علاقة جيدة بها، فآخر مرة جمعتهما معا كانت قبل عشرة سنوات عندما كان هو في الواحدة والعشرين من العمر وكانت هي احد عشرة سنة... في ذلك اليوم اجتمعت العائلة في بيت الجد مسعود، عندما كان على قيد الحياة بمناسبة عيد الفطر، القابع في مدينة البوني في حي عين جبارة، لم تكن ريان تود الذهاب حينها وقد الحّت على والدتها ان تبقى في المنزل بسبب الم في معدتها جرّاء كمية الحلويات التي تناولتها، ولكن امها قد عارضت وبشدة لان كمال لن يسمح بهذا... كانت ترتدي حينها فستان وردي جميل يُغلق بواسطة ازرار من الامام،، يصل حتى ركبتيها مع حذاء اسود قاتم من القطيفة، ترفع شهرها المجعد الغرابي بواسطة شريط زهري في شكل قصة ذيل الحصان،،، جلست القرفصاء في حديقة البيت الخلفية بعد ان انتباها القلق وسط الكبار وصارت تشعر بالتذمر وراحت تداعب قطة رمادية اللون قد الفتها تلقائيا اذ وجدت فيها الطيبة والرقة على عكس اصحاب البيت اللذين لا يكنون غير الكراهية والبغضاء تجاههم،، اخرجت من حقيبتها البيضاء بعض القطع النقدية

وراحت تقوم بعدهم بكل اهتمام ترى اين وصلت قيمة عيديتها،، تلك اللحظة انتفضت بفزع على صوت رجولي غليظ قادم نحوها جهة الباب الرئيسي، حيث وقفت مكانها والفضول دق طبول افئدتها حول الشخص القادم بالرغم من ان الصوت لم يكن غريبا عليها، وبالفعل كان شكها في محله فهو هارون ابن عمتها سهام، كان يتحدث في الهاتف وقد وجد هذا المكان الانسب لذلك،، بقيت ريان ترقبه في صمت تختبئ خلف البئر شاردة الذهن في تلك العيون السماوية الضيقة تُحيط بهما رموش شديدة الكثافة، وذلك الشعر الاملس الذي يرفعه بالهلام الى الاعلى في تسريحة تخطف القلوب،،، كان يرتدي آنذاك سروال جينز نيلي وقميص قرمزي اللون عليه شعار fella وحذاء رياضي ابيض من نوع اديداس، لم ينتبه هارون مع تلك الصغيرة وقد اراد ان يعود ادراجه فور انهائه للمكالمة لكن اصوات الخشخشة عند الجب قد حالت دون ذلك،، حيث نظر صوب المكان ليلمح ابنة خاله تجلس القرفصاء تراقبه دون كلام..

- ريان !! ماذا تفعلين عندك ؟

تأففت الاخيرة في سرها كونها لا ترغب في الحديث معه وقالت تخرج من مكانها ...

- لا شيء... كنت العب الغميضة

رفع حاجبه في استغراب فهي بمفردها ولا يوجد برفقتها صغير اخر وقد اجابها بفضول :

- مع من تلعبين ؟

- مع هذه... اجابته وهي تؤشر على القطة التي كانت تبعدها بقليل منشغلة بتناول السردين

- غريب حقا !

قالت :

- وما الغريب في الامر ؟ ا لا يحق لي ان العب الغميضة مع قطة ؟

اطلق هارون ابتسامة ساخرة واردف :

- على حد علمي لا نستطيع ان نلعب الغميضة مع الحيوانات فهي لا تفهم علينا !!

- ومن قال لك انها لا تفهم علي... بالعكس انا ارى انها اكثر مخلوق يمكنه ان يستوعبني على الباقي

تفاجأ من ردها كثيرا ولم يتوقعه ابدا وقد صار يحدث نفسه عندها : هذه الطفلة ليست هيّنة ابدا .... لسانها اطول منها بستون دراع،،، انتفض على كلامها وهي تسأله :

- بامكانك الانضمام الينا ؟

- لا، سني لا يسمح بهذا

- ولكن حتى الكبار بامكانهم ان يلعبوا الغميضة، فالمتعة لا تعرف سنا معينا كي تتوقف عنده

قال باستغراب :

- من اين لك كل هذا الكلام يا ريان ؟

- من عندي،، هل تظنني غبية ولا افقه من الامور شيئا ؟

- كنت اظن لكن الان غيرت رايي

- لا تحكم على الناس من خلال تصرف واحد او اثنين، هناك مقولة صادفتها في كتاب شقيقتي فادية " الناس بحار فلا تحكم على اعماقهم وانت لا ترى سوى شواطئهم ".

بقيت تلك الجملة تتردد على مسامع اذنيه حتى الساعة ولم ينسها ابدا على مر السنين، فقد كانت هذه وبالرغم من صغر سنها تعرف عن الحياة الكثير الكثير، ولسانها ذاك قد احدث عاصفة داخل قلبه ما زالت تضرب الاجواء لحد اليوم،، استيقظ من شروده على صوت حسناء التي كانت تُسند رأسها على كتفه دون خجل او حياء تسأله عن سبب صمته المفاجئ وقد وجد حينها ان الوقت مناسب كي يخبرها بقراره، تنحنح بخفوت وابعدها عنه والتوتر هو سيد الموقف حيث لاحظت هي شيئا غريبا به لكنها لم تعلق وجابهت شعورها بصعوبة، بعد ان استنشق كمية لا بأس بها من الهواء قال بهدوء :

- اسمعيني يا حسناء هناك امر مهم يجب ان اصارحك به

ازدرت ريقها في خوف بعد ان ادركت تماما ما سيقوله لها اما هو فقد واصل حديثه بنفس تلك النبرة :

- تعلمين جيدا منذ ان دخلنا في علاقة معا انني مُطالب بالزواج من ابنة خالي ريان لاسباب قد سبق واخبرتك عنها، ولانني لم اجد حلا لهذه الورطة فانا مجبر على انهاء علاقتنا والانفصال عنك

نزل عليها الخبر كصاعقةٍ في ليلة شتوية من ليالي ديسمبر القاسية، ولم تستوعب جيدا ما مر على مسامع اذنيها، فقد تمسكت به من اول يوم تم قبولها في العمل عنده كمساعدة بعد ان رات فيه كل الصفاة التي تريدها خصوصا الجانب المادي، حاولت كثيرا وحاربت لاجله مع انه اخبرها بوضعيته ومسالة الميثاق، الا انها لم تستسلم ولم تفرط به لكن اليوم الذي كانت تخافه قد اتى ولا مهرب من مواجهته وتقبل الواقع،،، ترقرقت عيناها بالدموع وامسكت بيديه

بكل قوة تتوسله ان لا يتخلى عنهما ولا ينفصل عنها وهي مستعدة ان تنتظره العمر كله حتى وان تزوج من اخرى، لكن هارون لم يكن يريد ان يرهق قلبها اكثر خصوصا وهي تحبه حد النخاع وقد قال لها انه من مصلحتها ان ترى حياتها مع شخص يستحقها بالفعل وتنسى امره هو لانه لن يكون ملكا لها والقدر قد ربط اسمه باسم ريان عبدالله ابنة خاله.

***

مر اسبوع بلمح البصر. وريان ما زالت تمكث عند منزل شقيقتها فادية التي حاولت معها بشتى طرق الاقناع كي تتنازل عن عنادها وترضى بالامر الواقع،، وحتى احمد زوج اختها لم يقصر ابدا قائلا لها ان اصدق واطهر انواع الحب يأتي بعد الزواج كما هو الحال معه عندما تقدم لاختها، لكن ريان عنيدة جدا مثل والدها لم تقتنع ابدا بل وبقيت مصرة على قرارها انها لن تعود الى البيت الا في حالة واحدة وهي ان يغير كمال رايه بخصوص مسألة اقترانها، كان شقيقها سليم قد اتى اليها بعد ثلاثة ايام واخبرها انه تكلم مع هارون كي يرفض هو الامر وينسحب لربما هكذا يكون الافضل لكلا الطرفين،، لكن من دون فائدة بقي مصمما في قراره ولم يرجع فيه اذ فقد سليم الامل عندها في الغاء امر الارتباط وقد طلب من اخته ان تستسلم للامر الواقع وترضى بنصيبها لعله كان فيه خير لها، وقد صار يتوسلها بشتى الطرق ويلح عليها ان تعود الى البيت لان والدها لن يتراجع مهما كلفه الامر ولو سافرت الى الفضاء الخارجي فلن تتحرك له شعرة واحدة، لكن كل تلك المحاولات من سليم وفادية واحمد باءت بالفشل الذريع وريان متمسكة في قرارها؛ لن تتزوج بهارون ولو وضعوا السكين على رقبتها، كانت تكرهه حد النخاع ولم تستلطفه يوما بالرغم هم قلائل المواقف التي جمعتهما معا،، لكن تصرفاته الباردة التي كانت تراها وهي في ريعان الطفولة ما زالت في ذاكرتها

ولم تتحرك ابدا، وليس هذا وحسب لقد كانت تحلم منذ الصغر بزواج عن حب من فارس احلامها ولن تكف حتى تحقق حلمها ذاك وبزواجها من ابن عمتها يعني انها دفنت احلامها في دهاليز مظلمة والى الابد،، كانت كل ليلة تتضرع الى الله ان يُبعد عنها ذاك الانسان الذي سيحطم حياتها وتساله كل صباح ان تحدث معجزة ويبدل والدها قراره وترتاح من هذه المصيبة التي وقعت على راسها في لحظة لم تكن في الحسبان ابدا، لكن من دون جدوى مرت الايام سريعا ولم يتغير شيء،،، القدر مُصر على ان يجمعهما معا ورغما عن انفها ايضا... في اليوم الثامن وفي تمام الساعة الواحدة والنصف زوالا رن هاتفها على سيمفونية موزارت والتي تركتها عن قصد كي تذكرها بحبها الابدي والذي كسرها كما يُكسر الزجاج، كان سليم من يتصلُ عليها حيث لم تكن في مزاجٍ جيد للكلام خصوصا انها على دراية انه سيفاتحها بامر عودتها، لكن اعادته للمحاولة جعلت الفضول يدق نواميس ذاتها وشعرت وكأنها مشكلة قد وقعت في البيت، اجابت على الخط بتوتر...

- آلو !!

- ريان الى متى ستبقين تتصرفين بعناد ؟

- لقد اخبرتك ذلك اليوم حتى يغير ابي رايه

- اسمعيني جيدا الامور تزداد سوءا حقا بسبب انانيتك

- هل اصبحت انانية لانني لا اريد الزواج من هارون ؟

- هذا قدر .. هل تعترضين على قدر الله ؟ لقد جربنا كل الطرق لكن لم تنجح معنا اي واحدة، وابي انت تعرفينه جيدا لن يغير قراره ولو على قطع رقبته وقد سمعته يقول لامي هذا الصباح انه ان لم تعود ريان الى البيت سيطلقها.. هل تريدين هذا حقا ؟؟

تلك اللحظة تسلل الرعب الى قلبها فهي لم تتوقع ردا كهذا من والدها ولم تجد بدا آنذاك سوى ان ترضى بقسمتها ونصيبها وتعود الى المنزل للاستعداد لحفل الخطوبة التي ستكون بمثل جنازة بالنسبة لها، فورا اغلقت المكالمة دون ان تتأكد من سليم ان كان يمزح ام لا وارتدت ثيابها مودعة شقيقتها والتوأمين تقصد محطة القطار بعد ان اوقفت لها سيارة اجرة وروحها تصرخ وتناجي من شدة الالم الذي تعيشه الان، كانت تفكر طوال الطريق في فعل اخر شيء ربما قد ينقذها من براثن هذا الواقع الذي سيزج بها في احضان رجل لا ترغب به، وفور وصولها لمدينة عنابة بعد رحلة دامت ثلاث ساعات اوقفت سيارة اجرة تطلب من السائق ان يقلها الى حي لاسيتي اوزاس تحديدا عيادة الامل، لم تقابل ريان هارون منذ ما يقارب عشر سنين بعد ان ساءت الاحوال بين جدتها خديجة ووالديها ولو لم يكن كمال صديق ابراهيم المقرب لما حدث كل هذا، اخيرا وصلت الى عين المكان حيث ترجلت من السيارة بعد ان

حاسبت السائق وسارت بخطى متثاقلة نحو الطابق الثاني،، كان باب الشقة مفتوحا على مصرعيه ومكتب المساعدة شاغرا، تلك اللحظة شعرت بدقات قلبها تخفق بصورة رهيبة فهي ليست واثقة عما تنوي الاقدام عليه، ارادت العودة ادراجها وان تنسى الفكرة من اصلها لكن صوت جهوري من خلفها اوقفها في فزع يسالها ان كانت تبحث عن شخص ما،،، التفتت ناحيته وطالعته بنظرات نارية ملؤها الحقد والكراهية تتمنى لو بامكانها ان تنقض عليه وتوسعه ضربا كي تشفي غليلها منه، اما هو فقد بقي شارد الذهن في تلك العيون الزمردية الواسعة وتلك الوجنتين المتوردة التي اثارت استحسانه على حين غرة، وقد تذكر انه سبق ورآها من قبل، فملامح وجهها ليست غريبةً عنه، بقي ثواني معدودة يعصر ذاكرته حتى جال في خاطره ذلك اليوم عندما كاد يدعسها بسيارته البولو وهي في حالة يُرثى لها جرّاء صدمة من المحتمل ان تكون عاطفية، خمن بين نفسه ان تكون هذه الفتاة قد اتت للعلاج وبما ان حسناء في اجازة اليوم بسبب بعض المشاغل ارتأى ان يعتني بها هو بنفسه...

- هل اتيتِ لاجل اخد موعد ؟

تفاجئت ريان من سؤاله بل واستغربت تجاهله لها وصارت تتسائل بين نفسها ان كان بالفعل لا يتذكر ملامح وجهها، هل يُعقل انه نسيها ؟؟ ام انه يتظاهر وحسب من باب الغرور والعجرفة ؟ فهي بالرغم من عدم رؤيتها له اكثر من خمس سنوات الا انها ما زالت تتذكره لكن هو لا ... ليس مثلها هي انه لا يتذكر ملامح المراة التي في صدد الزواج بها، اطلقت ابتسامة ساخرة ظنا منها انه لم يلحظها وقالت بنبرة استهزاء..

- غريب حقا يا ابن عمتي انك لا تتذكر حتى وجه الفتاة التي ستقترن بها

فتح عينيه السماوية في ذهول وصار يحدث نفسه قائلا لا يصدق ما يراه الان : متى كبرت هذه واصبحت بهذا الجمال والفتون ؟ ... تنحنح قليلا ثم اردف :

- ريان !! عذرا... انا بالفعل لم اعقلك

جلست على الكرسي في قاعة الانتظار اين يوجد مكتب حسناء ووضعت قدما فوق الاخرى ترمقه بتحدي ثم قالت بثقة :

- هذا واضح حضرة الطبيب زعيم

تلك الحركة قد اثارت استفزازه كالعادة،، فهي دائما تنجح في جعل الدماء تفور في راسه، وليست هذه المرة الاولى ولن تكون الاخيرة ايضا، نظر الى ساعة يده وجدها الخامسة والنصف مساءا و مزالت نصف ساعة على آخر موعد حيث تنهد بغضب وجلس قبالتها قائلا :

- ما سر هذه الزيارة المفاجئة ؟ هل جئت كي تناقشيني في موضوع خطبتنا

ابدت انزعاجا شديدا فور سماعها لتلك الكلمة التي باتت تمقتها لاقصى درجة بعدها اجابت :

- والله لو كان الامر بيدي لفضّلت الموت على الزواج منك، لكن لا خيار امامي مع الاسف، خالك العزيز وضعني تحت الامر الواقع وفرض علي هذا الشيء فرض لا يمكن التراجع عنه

- كوني واثقة انك لست الوحيدة

- اساسا لهذا اتيت الى هنا، كي تُلغي انت الموضوع وننتهي نحن الاثنان من هذا الزواج الاجباري ؟

كان هارون يرى الكره في عينيها الزمردية بوضوح كبير مثل وضوح الشمس، لدرجة انها قصدته لطلب المساعدة بعد ان أُغلقت كل الابواب في وجهها، فبالنهاية هو طبيب نفسي ويستطيع قراءة عيون البشر بسهولة تامة، قال لها :

- والله اعذريني يا ابنة خالي، لا استطيع فعل هذا، لقد حاولت قبل سنوات ان اغير راي امي وبشتى الطرق، لكنها اخذت وعدا من والدي قبل ان يموت ان لا اتزوج الا منك انت

- والحل ؟ هل انا مجبورة على هذا الان ؟

- لو كان ابي على قيد الحياة لتغير الموقف،،، لكن وهو تحت التراب المسالة صعبة، انا ايضا لست مولعا بالاقتران بك لكن النصيب كان ضدنا

شعرت ريان ان ابواب السماء قد اغلقت في وجهها هذه المرة ولا يمكن الهروب من هذا الامر الان، هو واقع لا محالة الا اذا مات احدهما، ترقرقت عيناها بالدموع وصار قلبها يؤلمها بسبب الحزن، فهي بالفعل لا تريد هذا الزواج لكن ليس بيدها،، تنفست بعمق واستطردت العبرات التي كادت ان تنساب من مقليتها وقالت بعد تردد كبير...

- حسنا اذًا، اذا كان هذا الزواج واقع لا محالة فسأطلب منك شيء ارجو ان لا تردني خائبة فيه

قال بفضول :

- تفضلي !! اذا كان بامكاني فعل شيء فلن أُقصر

- اريد ان يكون هذا الاقتران على الورق وحسب،، لا انت لك حق علي ولا انا لي حق عليك ؟

لم يتوقع هارون البته انها ستتجرأ وتطلب منه هذا الطلب الذي لا يخطر حتى على البال، فهي رسميا تقايضه على شيء هو احد الاسباب الرئيسية للزواج حتى وان لم يكن زواجا عن حب، لم يعرف ماذا يجيبها لحظتها لانه امر خارج عن نطاق ارادته، قد ينجح في فعله وقد يبوء بالفشل الذريع ايضا، ظل هو صامتا يرمقها بنظرات الدهشة والاستغراب وبقيت هي تجلس على كرسي خشبي في انتظار رده وقراره على احر من الجمر،،، لقد كانت تدرك جيدا ان ما تفوهت به امر اشبه بالمستحيل لا يحدث الا في الروايات والمسلسلات الخيالية، لكنها ايضا قامرت للمرة الاخيرة على حياتها، فهي لم تفلح في الغاء عقد القران فعلى الاقل قد تنجح في جعله شكليا امام الناس وحسب، ثم تفكر في ما ستفعله عندما تمضي الايام فالوقت كفيل بمعالجة كل المصائب والجروح كما اخبرتها صديقتها شذى...

- ها،، ماذا قررت يا ابن عمتي ؟

- تقصدين ان نعيش كصديقين وحسب ؟؟

احنت راسها في خجل واردفت تُبعد عينيها عن نظراته الحادة تجاهها...

- على الاقل فترة لا باس بها حتى اعتاد عليك ؟

- همك ليس الاعتياد انا اعلم هذا،، بل اكبر من ذلك بكثير

اجابته باستغراب :

- ما هو قصدك من هذا الكلام ؟

- لا شيء، المهم انا موافق على طلبك لن المسك الا برغبة منك

- هل هذا وعد ؟

- وعد... فقد سبق واخبرتك انني لست مولعا بك ايضا، لان شعورنا متبادل

تنهدت ريان بأريحية كبيرة وغاذرت المكان في فرح،، يكسوها الاطمئنان والراحة بعد ان اخذت وعدا من هارون ان زواجهم سيكون على الورق وحسب، وفي طريقها الى البيت رن هاتفها الجوال حيث اجابت بسرعة بعد ان لمحت اسم امها على الشاشة...

- نعم امي !

- اين انت يا ريان ؟ اخبرتني فادية انك غادرت منزلها بعد الظهيرة

- اجل لقد حدث تاخير في انطلاق القطار، لكنني في وسط المدينة الان دقائق واصل الى المنزل

- حسنا فهمت، حمدالله ان عقلك عاد لراسك

- وداعا امي نتكلم حيننا اصل

- مع السلامة.

***

اخيرا اتى يوم خطبة ريان وهارون فور عودتها من بيت فادية بثلاثة ايام فقط، بعد ان اتفق والدها مع شقيقته التوأم سهام على انهاء هذا الامر سريعا قبل حدوث اشياء عكس التيار،،، كان المنزل يشهد حالة من الفوضى والضجيج من طرف عائشة وبلال يتشاجران كالعادة بعد ان استيقظا باكرا على جهاز التحكم هو يريد قناة سبيستون وهي تريد قناة ماجد، وقد حاولت فادية معهما بشتى الطرق كي يكفا عن الازعاج الذي يقومان به والنعاس مسيطرا على عينيها لكن من دون فائدة؛ حتى اقبل والدها اليهم وصاح بغضب بسبب معاناته من صداع قوي في الراس، طلب من ابنته ان تقوم بإسكات اطفالها فورا والا سيرميهما خارجا من عند هذا الصباح الباكر، فهما كالعادة يستيقظان مع صياح الديك ويبدأن في مغامراتهما حتى الليل، دون كلل او ملل.. كانت الساعة آنذاك السابعة والنصف صباحا ولهذا انزعج كمال من الضجيج على عكس سليم والبقية اللذين اعتادوا على وجودهم في العائلة، كانت فادية تشعر بالضيق كلما رات معاملة والدها تجاه اطفالها، هي تعلم انهما شقيان جدا لكن بالنهاية يبقى جدهما ويستطيع ان يُبدي تعاطفا اكثر ناحيتهما حتى تعود الى منزلها، ولهذا كانت لا تتردد كثيرا الى منزل امها فقط في المناسبات والاعياد، معظم الاوقات يأتون هم اليها.. على إثر تلك الضوضاء فتحت فاطمة عينيها بتثاقل تفكر في هذا اليوم الجليل الذي سيحدد مصير صغيرتها خصوصا انها ليست راضية بذهابها عروس لتلك العائلة التي لم ترحب بها منذ ان تزوجت من كمال، اتجهت الى غرفة المعيشة تسأل فادية عن سبب صياح الاخير معها،

حيث اخبرتها الاخرى انه بسبب الاولاد كالعادة، قبّلت حفيديْها في حب وراحت تداعبهما بحنان تطلب منهما ان يقدما لها المساعدة في اعداد فطور الصباح، اما فادية فقد عادت للنوم بعد ان اغلقت التلفاز كي تسترد طاقتها التي اهدرتها في الاستيقاظ باكرا مع صغيريها.

كانت ريان في غرفتها تستمع لكل ما دار بين اهلها، لكن عقلها كان يسرح في عالم آخر خصوصا ان اليوم هو يوم خطبتها من ابن عمتها هارون، كانت تفكر في الذي سيحدث وكيف سيمر هذا اليوم وكيف ستتعامل مع عمتها وجدتها وهما لم يتركا امرا الا وفعلاه فقط بسبب كرههما لفاطمة، كل تلك الافكار كانت تتزاحم في مخيلة راسها دون ان تتوقف للحظة واحدة، بعدها صارت تتسائل عن حياتها الجديدة مع من اختاره القدر ليكون شريك حياتها وهل سيحدث بينهما توافق ام سيسوء الوضع، كانت تخاف من ان تسلك الامور منحى اخر لكنها وضعت ثقتها كلها بين يدي الله سبحانه وتعالى وهي على يقين تام انه لن يخذلها،، قامت من سريرها وفتحت نافذة غرفتها تستقبل نسمات هواء البحر الابيض المتوسط الذي بث فيها القوة والامل ان كل شيء سيكون بخير، رفعت راسها الى السماء الزرقاء فلمحت طيور النورس تحلق في فضائها الفسيح،، هذا الطائر لم يعد طائر الحظ خاصتها هكذا اقنعت ريان نفسها بعد سلسلة الخيبات التي مرت على راسها ذلك اليوم المنحوس.. اغلقت النافذة وعادت الى النوم من جديد وعلى شفتيها القرمزية ترتسم ابتسامة عفوية.

بعد مرور ساعتين اقبلت امها عليها تقوم بايقاظها للاستعداد لهذا اليوم فما زال عليها الذهاب الى صالون الحلاقة واحضار فستانها الذي سترتديه، وقبل كل هذا وذاك هناك اعمال التنظيف في انتظارها، انتفضت ريان مكانها فور سماعها لتلك الكلمة وقالت بتذمر ..

- هل ساقوم بهذا ايضا وفي يوم خطبتي يا امي ؟؟

- ومن سيقوم به ؟ انا برايك .. ثم ستساعدك فادية وخالتك جاهدة

- هل خالتي قادمة ؟

- اجل، هاتفتها امس وطلبت منها الحضور.. فلا اريد ان اواجه تلك الجماعة بمفردي

ابتسمت ريان بسخرية واردفت :

- الذي يسمعك تتكلمين هكذا يقول ستشُنين هجوما عليهم

- انت لا تعرفين ماذا ينتظرك،، عندما تصبحين واحدة منهم سترين بام عينك

اجابتها ريان وهي تبعد اللحاف عنها وتلتقط هاتفها الخلوي تتفحص بريدها الالكتروني لعل وعسى حدث خطأ في اكاديمية الفنون وسيعتذرون منها جرّاء حصوله..

- اولا انا لن اكون واحدة منهم، ثانيا هذا الزواج لن يغير شيء من علاقتنا بهم، وثالثا واخيرا لا احد يدري ما تخبئه الايام؛ ربما يحدث عكس ما لا نريده الان

رفعت فاطمة حاجبها في استغراب تشعر ان ابنتها تخبئ عنها شيئا ما فهي تعرفها جيدا عندما تتكلم بثقة هكذا، قالت وهي تعود ادراجها ناحية الباب

- يا ليتني كنت متفائلةً مثلك يا ريان،،، المهم هيا ترجلي عن سريرك بسرعة فلم يبقى لدينا وقت

تأففت ريان بتذمر فهي لا زلت تشعر بالنعاس ولا تريد الاستيقاظ بعد، ثم هي ليست متحمسة ابدا للامر فلو كان بيدها لاتى هارون الان ووضع ذلك الخاتم اللعين في اصبعها وافتكت من الموضوع نهائيا،، لكن امها لم تترك لها المجال ابدا بقيت ورائها تنده عليها حتى قامت من فراشها تقصد الحمام.

كانت شقيقتها قد بدأت لتوها في اعمال التنظيف، بعد ان ارسلت التوأمين للعب في حديقة المنزل الامامية مع القطط بجانب شجرة البرتقال، حيث كان بلال يقلد طرزان ويُري عائشة كم هو قوي في تسلق الاشجار، اما الاخرى لم تبالي به كثيرا بل لاذت بالفرار بمفردها تُكلم دمى باربي خاصتها حتى سمعت ضوضاء بجانب الباب الرئيسي، كان صوت سيارة اجرة قد توقفت، لتترجل منها امراة في بداية العقد الخامس من عمرها ترتدي حجاب طويل فضفاض بني الون مع خمار اسود قاتم تحمل حقيبة من الجلد برفقة شابة في مثل عمر ريان كانت ترتدي فستان زهري جميل فوقه جاكيت جينز ترفع شعرها الاشقر الاملس في شكل كعكة، فور ان لمحتها عائشة ركضت بسرعة نحوها تنادي عليها باسمها وارتمت في احضانها بعد ان تستقبلتها الاخرى بالقبل تسالها عن حالها، ثم انتقلت الى المراة تُسلم عليها وتخبرها عن مغامراتها مع شقيقها، الذي وجد صعوبة في النزول من اعلى الشجرة للالتحاق باخته، تلك اللحظة اقبلت ريان تبتسم ناحية خالتها جاهدة وابنة خالتها لينا البالغة من العمر واحد وعشرون سنة، تُلقي تحية الصباح وتتجاذب معهما اطراف الحديث؛ بعدها استأذنت منهما في الذهاب لانها في عجلة من امرها، لكن صراخ بلال يطلب منها المساعدة جعلها تتراجع، حيث توجهت نحوه تفرغ غضبها فيه حول اقدامه على هذه الحركة الخطيرة، بسرعة قامت بانزاله مع تنبيه صغير ان لا يعيدها مجددا، ثم تركته وغادرت البيت تقصد صالون الحلاقة زهرة النرجس المعروف في شارع الماجستيك،،، قد سبق ولاحظت اعلاناتهم على صفحة الانستغرام التي اخدتها شغفا وعشقا، وفي طريقها ارتأت الى ان تتصل على صديقتيها إيلين وشذى كي يساندانها في هذا اليوم.. دفعت الباب الالمنيومي بصعوبة ودلفت الى الداخل لتتفاجأ بالكم الهائل من النساء والفتيات اللاتي يجلسن في الانتظار، ففترة الصيف معروفة بكثرة الحفلات من عرس، وختان، وخطبة وعقد عقران، ونجاح، وغيرهم من المناسبات التي تدفع بالنساء لارتداد صالون الحلاقة، جلست ريان على

كرسي من الجلد عند الباب في انتظار رفيقاتها شاردة الذهن في تلك الصورة المعلقة على المرآة اين تقف مصففة الشعر تقوم باعداد تسريحة جميلة لشابة تبدو في عقدها الثالث من العمر، كانت الصّورة لعروسين يعانقان بعضهما البعض في حب ابدي، وينظر كل منهما الى داخل عيني الاخر، تلك اللحظة عادت بذاكرتها الى الماضي قبل ستة سنوات في حفل زفاف ابنة خال ابيها سلوى، في ذلك اليوم كانت ترتدي ريان فستان ابيض جميل يشبه فستان العروس قد الّحت على والدتها طيلة اسبوع كامل ان تقتنيه لها، مع شريط حريري من نفس اللون تضعه على مقدمة راسها في شكل ربطة عنق،،، ريان ليست من النوع الذي يحبذ الاجواء الصاخبة بالرغم من ان روحها مفعمة بالحيوية والاشراق، واجتماعية لاقصى الحدود، وهذا ما جعلها تغادر قاعة الحفلات التي اشعرتها بالغثيان من كثرة الرقص مع اقرانها من العائلة، وتنفرد بنفسها في الشرفة الموجودة في الطابق قبل الاخير سارحة بافكارها في تلك المناظر الطبيعية الجميلة التي تحلق في فضائها الفسيح مختلف انواع العصافير مخلفة احلى الالحان، وما زادها عبيرا ياسر القلوب هو مرور القطار مُطلقا دويًا يصّمُ الآذان، جعلها لا تشعر بقدوم احدٍ الى عين المكان، حيث ما ان اختفى الصّوت حتى انتفضت بفزع على رؤيته يقف بجانبها، يرتدي بدلة سوداء قاتمة مع صدرية بيضاء ويضعُ ربطة عنق غرابية اللون قد زادته رونقا وجمالا، بقيت ريان صامتة ولم تنبس ببنت شفة فهو دائما ما يقوم بملاحقتها دون رغبة منها وكأن القدر قد اتفق على ان يجمعهما معا في السماء قبل الارض، التفت هو ناحيتها يتفحصها بفضول وهي ترتدي ذلك الفستان الابيض الذي جعلها تبدو وكأنها عروس حقيقية...

- ماذا تفعلين هنا ولوحدك يا ريان ؟

- مللتُ الاجواء بالدّاخل فأردتُ ان انفرد بنفسي قليلا.. وانت ؟

- انا ايضا مثلك لا احبذ الصّخب

- اننا نتشابه في هذه النقطة يا ابن عمتي

- اجل معك حق

سكت هارون قليلا يطالعها من الاعلى والاسفل في اعجاب خفي لا يدري سببه، صحيح انها صغيرة جدا عليه وما زالت على هذه الاشياء لتفكر بها، لكن شكلها الممتلئ وقوامها المرشوق يجعلها تبدو اكبر من عمرها... كان الفضول ينهش تفكيره حول ردة فعلها عندما تعلم انها ستكون له في يوم من الايام، وسترتدي الابيض له هو وحسب، لكن بالمقابل ايضا شعر بالحزن عليها فهي فتاة بالنهاية والا ما ستحب وتتعلق وتدخل في علاقة غرامية مع احدهم، وقد اعتلا الحزن وجهه عندها بخصوص امكانية حدوث ذلك الامر ام لا، انتبهت ريان مع ملامح وجهه وشعرت وكأن بهما خطب ما، حيث سألته بفضول :

- ماذا هناك يا هارون ؟ اشعر وكأن بك حزن ما !

انتبه مع سؤالها واراد ان يبوح لها بكل شيء وامر ذلك الوعد لعلها تتجنب فكرة الارتباط من شخص اخر، او ربما تلغيها من حياتها... فحياتها ملك له وحده ولو عارض هو بحد ذاته الفكرة ووقف في وجه امه وابيه، لن يستفيد من الامر شيء قدره وقدرها محسوم، لكنه لم يستطع من مصارحتها فهي ما زالت بريئة ومن حقها ان تختار شريك حياتها بنفسها فما زال هناك وقت على مسالة اقترانهما ولا احد يعلم ماذا سيحدث في الايام القادمة لربما حدثت معجزة وانقذتهما من تلك الورطة، اقنع نفسه هو بهذه الكلمات متجاهلا ان للقدر راي اخر،،، انتفض مجددا عليها وهي تُعيد عليه نفس السؤال، حيث تنحنح قليلا ثم اجابها :

- تبدين كعروس حقيقية بهذا الفستان

شعرت بالخجل من كلامه واحنت راسها الى الاسفل تتجنب نظرات عينيه السماوية الحادة بعدها قالت :

- انت ايضا تبدو كعريس حقيقي بهذه البدلة.

افاقت ريان من آخر ذكرى جمعتها هي وهارون على اصوات شذى وإيلين اللتين دلفتا للتو الى المكان، تتذمر الاخيرة بسبب الازدحام خصوصا في هذا الحر الشديد وقد جلستا بجانبها بعد ان قامت سيدة في الاربعين لأن دورها قد حان... وراحوا ينخرطون في الاحاديث الطويلة حول شتى الميادين يهَوِنون على صديقتهما الامر الذي كان ظاهرا انه ثقيلا جدا عليها، كانت شذى اكثر شخص متفهما لحالتها ويعرف معنى شعورها ذاك بحكم انها تعيش شيئا مشابها من طرف خالها عباس الذي جعل حياتها وحياة امها حجيما حقيقيا، وقد حاولت ان تُواسي ريان وتطلب منها ان تكون قوية في شتى الظروف وان لا تسمح لاي احد كان ان يتلاعب بمستقبلها، فبالنهاية هي من ستمشي في طريقها ووحدها ولن يُعينها احد سواها بعد الله سبحانه وتعالى،،، اخيرا اتى دور الاخيرة بعد تلك المراة وجلست على الكرسي تنظر لانعكاسها على المرآة الذي بدا لها مخيفا جدا جرّاء الكميات الكبيرة من الحزن والدموع، طلبت من مصففة الشعر ان تعمل لها تسريحة بسيطة بمناسبة يوم خطبتها بابتسامة شبه منعدمة ارتسمت على شفتيها الكرزية، حيث لبت الاخيرة طلبها بكل رحابة ولطف وباشرت عملها معها بكل همة ونشاط وحرارة جسمها تزداد كل دقيقة بازدياد حرارة مجفف الشعر.

***

كانت ريان تقف في غرفتها كالتمثال تنظر الى شكلها كيف تغير في المرآة، وهي ترتدي لباس تقليدي من نوع قفطان بنفسجي اللون مُطرز بخيوط فضية على الجانبين، له حزام عند البطن مشدود باحكام، تضع تاجا فوق راسها الذي رفعت نصفه في شكل كعكة وتركت النصف الاخر يتدلى خلف رقبتها،، الّحت عليها إيلين كثيرا ان تضع مساحيق التجميل لكنها عنيدة جدا اكتفت فقط باحمر الشفاه والكحل ومع ذلك لم يمنعها من ان تبدو غاية في الجمال والنعومة، خصوصا بذلك الكعب العالي الذي رفعها 20 سنتيميتر زيادة عن طولها،، كان قلبها يخفق بصورة رهيبة ولا يعرف طريقا للتوقف، فهي التي حلمت بهذا اليوم اكثر من يوم واكثر من ليلة من رجل احلامها الذي ستختاره بنفسها، قد فاجأها القدر بما لم تكن تتوقعه على مر الزمان ابدا، مرت لحظتها صورة وائل في ذهنها فقد اشتاقت اليه كثيرا بالرغم من التصرف الوقح الذي قام به تجاهها، لكنه بالاخير يبقى حب حياتها ولم تذق طعم العشق الا معه وبوجوده، كانت تريد ان تكلمه ان تخبره بكل شيء وانها تتزوج لرجل لا ترغب به، حيث حملت هاتفها وعقدت العزم على ازالته من قائمة الحظر لاجل الاتصال به لكن دخول شذى الى الغرفة كي تطمئن عليها حال دون ذلك حيث انتفضت بفزع ورمت الهاتف عشوائيا فوق سريرها تتنفس الصعداء ظنا منها انها والدتها او والدها، شعرت الاخرى بوجود شيء في تصرف صديقتها فباشرتها دون تفكير بسؤال مباغت...

- ماذا هناك يا ريان ؟

اجابتها وهي تشيح بوجهها ناحية النافذة..

- لا شيء

- لا تكذبي علي، انا اعرفك اكثر من نفسك

تنهدت باستسلام وجلست على حافة سريرها ثم اردفت بحزن :

- كنت ساتصل على وائل، واخبره انني اتزوج رغما عني، ربما يغير رايه ويكلم ابي عن علاقتنا

كانت شذى ترى العشق يحوم حول عينيها الزمردية بالرغم من انها شعرت دائما ان ريان لا تناسب شخصا كوائل ابدا بل لطالما استغربت ارتباطهما معا، فهو واقعي لابعد درجة وهي حالمة جدا، كانا متناقضين في كل شيء حسب ما سمعته من كلام صديقتها عن شخصيته، وياما نبهتها ان تبتعد عنه لكن ريان اتبعت قلبها وكانت النتيجة غير مُرضية في النّهاية، جلست شذى بجانبها وامسكتها من يداها قائلة :

- انا اعلم انك لا تريدين ابن عمتك زوجا لك،، ولكن اللّجوء الى الشخص الذي تخلى عنك وفضّل احلامه عليك غير ممكن ايضا يا ريان،، ماذا لو رفض مساعدتك وماذا لو قال لك ان زواجك احسن ؟؟ هل تريدين منه ان يهينك اكثر ؟

بقيت ريان صامتة ولم تنبس ببنت شفة لعلمها التام ان صديقتها على حق، حيث اطلقت زفيرا طويلا ومسحت قطرة من الدموع التي كادت ان تسقط من عينيها وتُفسد الكحل الذي يحيط بها، وقالت :

- وماذا سافعل يا شذى ؟ لقد جربتُ كل الطرق، توسلت لابي وامي فلم افلح؛ تركت البيت وذهبت الى منزل فادية اسبوعا كاملا من دون جدوى، حتى انني كلمت هارون وطلبت منه ان يتصرف هو وينسحب لكنه ردني خائبة

- متى كلمت هارون !! وهل الخالة فاطمة على دراية بالامر ؟

- يوم عدت من بيت شقيقتي، ولا احد يعلم شيئا عن الموضوع، انت فقط من اخبرتك الان

- انا من رايي ان تتقبلي الامر يا ريان، ربما هارون هو الشخص الانسب لك والا ما كان الله ليضعه في طريقك وفي نفس اليوم الذي تركك فيه وائل

- لما لا تفهمينني ؟؟ انا لا احبه ولا اريد ان اكون جزءا من عائلته،، لا اريد ان ارتدي خاتم العمر على اسمه هو .. لا اريد ... لا اريد

ارادت ان تتكلم شذى معها مرة اخرى، لكن دخول لينا وإيلين ليروا في امر استعداد العروس حال دون ذلك، حيث لاحظت الاخيرة بعض التوتر والارتباك على ملامحهما وادركت انه هناك خطبٌ ما، لكنها لم تعلق بل تركته الى بعد حين عندما تنفرد بصديقتيها،،، صارت الفتيات يتجاذبن اطراف الحديث حول شتى الميادين ما عدا ريان التي كانت تتظاهر بالفرح وحسب امام ابنة خالتها التي تجهل كل شيء، وفي تلك الاثناء رن جرس الباب معلنا عن قدوم الجماعة لطلب يدها، اذ امسكت بقلبها الذي كان يخفقُ بصورة رهيبة تتناهى الى مسامع اذنيها اصوات عالية من طرف عمتها ليندا التي يرجح انها اتت من دبي كي تشهد على هذا اليوم المميز والفريد من نوعه، لم تكن عمتها مثل البقية على العكس الوحيدة التي احبّت امها وابناءها ووقفت بجانبهم ضد افعال شقيقتها الكبرى ووالدتها، لكن بسبب البعد لم تعد تهتم كثيرا الى المشاكل التي تحدث بين الطرفين بل التفتت على حياتها مع زوجها وابنها الوحيد عبد الصمد البالغ من العمر 27 سنة والذي اتى بدوره ايضا كي يكون بجانب فرح ابن خالته هارون وصديق طفولته ايضا،،، جلست النساء في غرفة المعيشة وجلس الرجال في المربع من شقيق ريان ووالدها واحمد زوج فادية الذي اتى قبل ساعة وهارون وعبد الصمد وراحوا يتجاذبون اطراف الحديث، بخصوص هذه الزيجة يتفقون على المهر وكل شيء اخر... بقيت

ريان وحيدة في غرفتها تجلس القرفصاء فوق الارض شاردة الذهن في عالم اخر بعيدا عن ما يحدث من مهزلة في ارض الواقع برفقة شذى وإيلين،،، حتى اقبلت عليها خالتها جاهدة بعد نصف ساعة من قدوم الضيوف، ترتسم على شفتيها المصبوغة بالاحمر القاتم ابتسامة عريضة سعيدة لاجل ابنة اختها، ثم طلبت منها ان تاتي معها كي يراها اهل العريس ويتم تلبيس الخواتم بعدها، وقفت الاخيرة مكانها بيأس وسارت مع خالتها محبطة الآمال الى حيث سيتحدد مصيرها، ودلفت على الجماعة الذين كانوا سببا في دمارها وتحطيمها الى اشلاء، القت تحية عليهم ثم سلمت على جدتها بابتسامة مزيفة على عكس الاخرى بالرغم من كرهها لفاطمة الا انها كانت تحب احفادها، فقط لم تكن تظهر ذلك لاسباب شخصية لا احد يعلم عنها شيئا،، بعدها انتقلت ريان الى عمتها سهام التي رمقتها بنظرات نارية قاتلة قد اجفلت قلبها الصغير وجعلته يرتعش مكانه، ثم وجدت نفسها قبالة شقيقة هارون الاء التي تكبرها باربعة اعوام حيث بادلتها الاخرى الابتسامة بفرح وحبور وطلبت منها ان تجلس بجانبها تحت انظار والدتها سهام التي كانت تتوعد لها في سرها،، وقفت ليندا مكانها واخذت ابنة اخيها اليها بالاحضان لاشتياقها لها تتمنى لها السعادة والبركة في هذا الاقتران بعدها جلست بجانبها وباشرت هي الاولى بالكلام تنظر نحو فاطمة..

- اذا يا زوجة اخي ! قررتم اخيرا ان تزفوا ريان لهارون ؟ والله افضل شيء تقومون به صدقيني

اجابتها الاخيرة بسخرية ترمق والدة هارون بكره ...

- كمال من قرر يا ليندا ولست انا، ثم ارجو ان تكون شقيقتك توافقك في الراي

قالت لها سهام بتحدي..

- ربما اوافقك انت في الرأي وليس ليندا، على كل جميعكم تعلمون سبب هذه الزيجة فلا داعي للاماطة

لم تتحمل جاهدة اهانة سهام لاختها الكبرى اكثر وقالت بانزعاج :

- المهم ان هارون يريد هذا الاقتران وحبيبتنا ريان ايضا، ثم جميعنا تزوجنا هكذا والحمدلله صرنا امهات ولا ينقصنا شيء، ا ليس كذلك خالتي خديجة ؟

- اجل يا ابنتي معك حق، حتى حفيدي هارون سبق وقلت له هذا الكلام

كانت ريان تستمع لكل هذه الاحاديث وقلبها يعتصر الما خصوصا انه لا احد يعلم بشأن المفاوضة التي قامت بها مع ابن عمتها،، فهي لا تريد ان تكون لا زوجته ولا حتى ام اولاده، انتفضت بفزع على صوت الاء تسألها عن دراستها قائلة :

- الى اين وصلتِ في دراستك عزيزتي ريان ؟

اجابت بخفوت :

- ليسانس

- وهل تنوين انهاء تعلميك ؟

- لا اعلم، كنت اتمنى ان انهيه في جامعة كندا لكن لم يحصل نصيب

كادت ان تجيبها الاء مجددا لكن صوت ليندا حال دون ذلك حيث اردفت :

- تستطيعين القدوم الى دبي والاقامة عندي يا ريان ؟ وهكذا سيسهل عليك الدراسة

- وماذا بخصوص زواجها يا اختي ؟ هل خمنت في هذا ؟

- ما بك يا سهام ؟ بالتاكيد لن يقام الزفاف غدا ما زال هناك وقت كي تنهي تعليمها وتتزوج بعدها

- لكن هارون مستعجل صراحة،، ما رايك يا فاطمة

تذكرت فاطمة لحظتها حديثها مع كمال عندما قال لها في الفترة التي كانت فيها ريان في بيت فادية انه اذا ما تمت مراسم الخطبة على خير ما يرام فإن عقد القران والزواج سيكون بعد شهرين كأقصى حد،، ويبدو ان سهام ايضا تعلم بهذا وليس بعيدا ان تكون هي من دبّرت على شقيقها، ابتسمت بعفوية مع ليندا واجابت :

- سهام على حق يا ليندا، لن نستطيع تأخير الزواج اكثر بما ان هارون جاهز من كل شيء، وبالنسبة لريان تستطيع اكمال دراستها هنا فلا يوجد فرق

بعد ان اتفق الجميع على المهر وكل شيء يخص هذا الزواج، اقبل العربس برفقة سليم وعبد الصمد وكمال عدا احمد الذي بقي في المربع لاجل تلبيس الخاتم، حيث ما ان راى ريان وهي بتلك الحالة حتى بقي مدهوشا من جمالها الآخاد، كانت عيناها متبثة للاسفل ويداها ترتعشان من التوتر، كما ان حبات العرق على جبينها جعلت هارون ينتبه معها اكثر واكثر،، اخرجت سهام علبة حمراء صغيرة من حقيبتها وقدمتها لولدها كي يضع ذلك الشيء المدور في اصبع عروسه، تقدم الاخر ببطئ يُمسك بالعلبة وعيناه لا تفارقان ملامح ريان التي جعلت قلبه يخفق بصورة رهية رغبة بها، حتى صار قبالتها وامسك بيدها البيضاء يضع خاتما صغيرا من الذهب عليه حجرة تلمع ببريق خافت، وقد فعلت ريان نفس الشيء معه، تحت تصفيق الحاضرون وزغاريد من طرف ليندا وجاهدة وفادية معبرين عن فرحهم بهذه

المناسبة،، اراد هارون ان ينسحب بعد ان اتم مهمته لكن تدخل الصغيرة عائشة اوقفه مكانه حيث قالت له ببراءة :

- عمي هارون ا لن تقبل خالتي ؟

تفاجأ الجميع من جرأتها وخصوصا ريان التي صارت تلعنها في سرها عن طول لسانها الذي دائما ما يوقعها في المشاكل، شعرت فادية بالحرج وامسكت بيد ابنتها قائلة :

- عائشة من اين اتيت بهذا الان يا صغيرتي ؟

- ا لم يفعل خالي سليم هكذا مع منال عندما تقدم لها ؟

ابتسم هارون بعفوية مع الصغيرة وحملها بين دراعيه يقبلها من وجنتيها المتوردة التي تشبه وجنتي خالتها كثيرا خصوصا لسانها السليط الذي من الواضح انها اخدته وراثة عنها، تنحنح قليلا ثم اجابها يرمق خطيبته بمكر :

- ا تعلمين يا عائشة لقد ذكرتني بشيء مهم جدا كنت قد نسيته تماما، شكرا لك ولك مني هدية مكافأة لك يا صغيرتي

- شكرا لك عمي هارون

شعرت عائشة بالفرح والسرور لسماعها كلمة هدية وراحت تركض بارجل مقوسة الى شقيقها بلال لاجل اغاظته، تاركة ريان تقدح شرارة وتتوعد لها بعد ان يغادر الضيوف المنزل.. تقدم هارون منها فأمرٌ كهذا في غاية الاهمية لم يكن ليفرط فيه، امسك خطيبته من دراعها وسحبها بقوة اليه ليرتطم جسدها الهزيل بجسمه الضخم حيث شعر برعشتها لحظة امساكه بها مستمتعا هو من الوضع بدرجة لا توصف، وقام بتقبيلها من جبينها بكل عنفوانية يشم عبيرها الآسر الممزوج برائحة عطر الياسمين والفانيلا تحت نظرات استغراب صديقتيها.

***

دلف هارون الى البناية التي يعمل فيها طبيبا نفساني يحمل هاتفه الجوال وبعض الملفات تتعلق بالعام الجديد في الجامعة الذي لم يبقى عليه الا شهر ونصف، ينظر الى الخاتم الذي يرتديه في اصبعه ويتذكر يوم امس عندما قبّل ريان من جبينها دون رغبة منها، والتي واضح عليها انها لا تكرهه هو وحسب بل حتى تكره الارض الذي يمشي عليها، صعد الدرج بسرعة ودلف الى الشقة التي وجد بابها مفتوحا على مصرعيه فادرك ان حسناء هنا، حيث ازدر ريقه بارتباك وعلا التوتر ملامح وجهه لا يدري كيف سيواجهها بالامر... كانت الاخرى تتكلم على الهاتف الخاص بالمكتب واضح انها تقوم باخد موعد ايضا، حيث تنحنح بخفوت يُلقي التحية عليها بابتسامة شبه معدومة، انتفضت بفزع فور رؤيته وقامت من مكانها تبادله بدورها التحية قائلة :

- كيف حالك اليوم ؟

- بخير وانت ؟

- اعتقد انها جيدة

لمحت الخاتم الذي يرتديه في اصبعه فاعتصر قلبها من الالم وكادت تسقط ارضا مغشيا عليها،، فهي التي لطالما حلمت ان ترتدي ذلك الخاتم معه قد اتت اخرى واخدته منها دون ان تحرك ساكنا،،، ترقرقت عيناها اللوزية بالدموع واردفت مجددا :

-تهاني نا، فعلتها اذا وخطبت ابنة خالك بالرغم من انك لا تحبها

تنهد بضيق من الوضع الذي بات يزعجه حد النخاع والتفت وراءه يتجه ناحية مكتبه مخاطبا اياها :

- حسناء لقد كنت تعلمين ان هذا الامر واقع، لذا ارجوك اغلقي الموضوع واحضري لي ملف المريض الاول ؟

وقبل ان يدلف الى الداخل اوقفته وهي تمسك بمعصمه قائلة بتوسل :

- هارون ما زال هناك وقت كي تتراجع عن هذه المهزلة ارجوك لا تفعلها بي انا احبك كثيرا ولا استطيع العيش بدونك، ارجوك لا تتخلى عنا وعن حبنا

التفتت مرة اخرى ناحيتها يطالع عينيها باسى، فهو لا يحب ابدا ان يتسبب بالالم لاي احد كان، وحتى عندما عرضت عليه الارتباط والخروج في موعد كان يظنها تتسلى وحسب كما انه اخبرها بشأن اقترانه بابنة خاله كي لا تعقد امالا كبيرة عليه، لكن يبدو ان حسناء مصممة على ان تظفر به مهما كلفها الثمن، ابعد يدها عنه واجابها بحزم :

- اسمعيني يا حسناء، لا اعلم كم يجب علي قول لك هذا لكن انا ساتزوج من ريان وفي القريب العاجل ايضا، لقد اتفقت مع والدها وصار الموضوع يفوق الرسميات ولا رجعة فيه، ومن الاحسن لك ان تتقبلي الامر سريعا وتنسيني وتعيشي حياتك والا سيكون لي تعامل اخر معك اذا استمريتِ بهذه العقلية

كان كلامه معها قاسيا بالنسبة لها جعلها تحقد على ريان اكثر واكثر من ما كانت عليه من قبل، وقد اومأت له راسها بالايحاب وعادت الى مكتبها بعد ان استسلمت من ناحيته،،، اما هارون فقد دلف الى مكتبه ودخان راسه يتصاعد في الهواء حلقات حلقات حول هذه المصيبة التي قلبت حياته رأسا على عقب وكله من والده رحمه الله الذي قرر عنه حياته بخصوص المراة التي سيتزوجها، جلس على الكرسي وراح يعبث بحاسبه المحمول يحمل بعض الملفات التي تخص المادة التي يدرسها في الجامعة وصورة ريان لا تفارقه ابدا ولا سيما عندما تذكر اليوم الذي كاد يدعسها فيه، حيث صار يتسائل عن السبب الذي اودى بها الى تلك الحالة وهل يُعقل ان له علاقة به وبمسالة اقترانهما،، سمع صوت طرقات على الباب فامرها بالدخول ظنا منه انها حسناء لكن اعتقاده قد خاب، وهو يرى سيدة في بداية الثلاثين تدلف برفقة طفل صغير لا زال في عقده الاول يرتدي نظارات طبية ومئزر ازرق مدرسي، يحمل حقيبة الظهر لسبايدرمان، القت المراة التحية وجلست على الكرسي مع ابنها قبالة الطبيب وقالت بتوتر :

- حضرة الطبيب، ارجوك ساعدني !

اغلق هارون حاسبه وامسك بقلمه الجاف ومدونته السوداء وقال لها :

- نعم سيدتي تفضلي ؟

سكتت المراة قليلا تنظر الى الطفل ووجها لا يخلو من ملامح التوتر والارتباك بعدها اطلقت زفيرا حادا وقالت :

- انا ادعى نسرين حمادو، وهذا ابني بلال عمره تسعُ سنوات يعاني من مرض التوحد، وبصراحة لم اعد اعرف كيف اتعامل معه

- ا لم يسبق لك ان اخدته الى طبيب نفسي من قبل ؟

- بلى، العام الماضي لكن من دون فائدة، اخبرني بعد خمسة حصص من المعالجة انه يجب علي ان اعتمد على تعليم خاص له، او اضعه في مدرسة ذوي الاحتياجات الخاصة

- فهمت.. كيف هو وضعكم العائلي ؟ هل لديه اخوة او اخوات ؟ و كيف علاقته بابيه ؟

لمح هارون بعد سؤاله ذاك الما كبيرا في عيني الام خصوصا عند سؤاله عن والد الطفل، وقد ادرك ان هذا المراة تعاني الكثير بمفردها، تنهدت باسى واردفت :

- لقد تخلى عنا والده بعدما علم ان ابنه مصاب بالتوحد حضرة الطبيب، وذلك قبل اربعة سنوات، ومن يومها وانا امارس الدورين معا فقط كي لا يشعر ابني بالنقص، سجلته في احسن المدراس الخاصة ودورات الرياضة، كما انه ذكي جدا دائما ما ياخد المرتبة الاولى في مسابقة العاب الذكاء، لكن مرضه بات يتعبني مؤخرا ولم يعد بامكاني التحكم في نوباته

- متى اخر مرة اتته نوبة عصبية ؟

- قبل يوم امس، كان يلعب مع اطفال الحي ولم اشعر به الا وهو يغلق باب البيت بكل عنفوانية، يقصد غرفته ينغلق على نفسه،، اردت التحدث اليه استفسر عن السبب الذي اوصله الى هذه الحالة لكن فجاة صار يحطم اي شيء يمر على يده، وقد كانت هذه المرة الرابعة على التوالي، ذهبت الى اصدقائه اسالهم عن الذي حدث مع بلال، فقالوا انه بسبب كلام احد الاطفال عن رحلاته مع والده الى الصيد

- فهمت،، يبدو ان بلال بدأ يفتقد والده ومهما قمت انت بدور الاب والام فانك لن تغلقي تلك المسامات التي تتعلق بابيه يا سيدة حمادو

- وبماذا تنصحني حضرة الطبيب ؟

- الا تستطيعين التواصل مع والده ؟

- لقد علمت انه تزوج مرةً اخرى قبل سنتين وزوجته حامل الآن، ولستُ ادري اي الانواع من النساء هي، لهذا لا احبذ فكرة اللجوء اليه

- ولكن يا سبدتي انت مجبرة لاجل نفسية ابنك، يجب على زوجك ان يتقبل فكرة ان ابنه مصاب بالتوحد وان يقوم بالواجب تجاهه مثلك... فهذا المرض يحتاج دعمكما انتما الاثنان

- لقد تركني بسبب هذا الامر وتخلى عن ابنه ايضا دون ان يرف له جفن

- حسنا، ما رايك ان تتركي لي رقم هاتفه ان كان لديك ؟ وانا ساتكلم معه ربما استطيع اقناعه، وفي المرة المقبلة اريد ان اتكلم مع بلال وبمفردنا كي اعلم التفاصيل اكثر عن حياته وسبب نوباته، فلا اعتقد ان والده هو المسؤول عنها وحسب

قامت السيدة مكانها تمسك بيد ابنها وقالت :

- شكرا لك حضرة الطبيب كنتُ اعلم انني لن اندم في القدوم اليك، الجميع يشكر طريقتك في معالجة المرضى

ابتسم هارون معها ومع الصغير بعفوية واردف :

- هذا واجبي سيدتي، مساعدتي حسناء ستاخد لك موعدا اخر الاسبوع المقبل ولا تنسي ان تتركي رقم هاتف زوجك عندها، واذا لم يكن لديك مانع اتركي رقم هاتفك ايضا كي أُطلعك بالمستجدات

- حسنا، حضرة الطبيب اللقاء

- وداعا.

غادرت السيدة مكتب هارون، وبقي الاخير يراجع بعض الملفات تتعلق ببقية المرضى حتى طرأت على باله فكرة، نظر الى ساعة يده رولاكس وجدها العاشرة الا ربع، فحمل هاتفه واتصل على خطيبته التي اخد رقمها من والدها يوم امس، وبعد رنات قليلة اجابته على الطرف المقابل بصوت يبدو النعاس مسيطرا عليه..

- آلو !!

شعر هارون بوخزة في قلبه عند سماع صوتها ولا يدري السبب وقد استغرب ايضا نومها الى هذه الساعة، فهو يستيقظ كل يوم الساعة السادسة والنصف صباحا كعادة اخدها وراثة عن جده لابيه لكن خطيبته عكسه تماما، تنحنح قليلا ثم قال :

- هل ما زلت نائمة ؟

فتحت ريان عينيها وانتفضت مكانها في فزع فهي تعرف هذا الصّوت جيدا، لكنها لا تتذكر متى قامت باعطائه رقمها، قالت بفضول :

- هارون ! ا هذا انت ؟

- لا ابن عمه

- من اين لك برقم هاتفي ؟

- هل نسيتِ انك خطيبتي، وليس صعبا علي ان احصل عليه

- حسنا، ماذل تريد من عند هذا الصباح الباكر

شعر هارون بالدماء تفور في راسه وهي تكلمه بهذه اللهجة التي لم يسبق لاي بنت ان كلمته بها،، تنفس بروية ثم اجابها :

- اولا الساعة صارت عند الظهر الان، وثانيا ما هذه النبرة التي تتكلمين بها معي ؟

- والله يا عزيزي لا رغبة لي في الكلام مع اي احد اليوم وخصوصا انت بالذات، لهذا اختصر وقل ما عندك وبسرعة

- ا تعلمين شيئا ؟ العيب ليس منك بل مني انا الذي فكر بك واراد ان يقوم بشي مفيد لاجل نفسيتك

لم تفهم ريان قصده بل واستغربت اهتمامه المفاجئ ايضا فعلى حد علمها لا يرغب بها ابضا وليس هي وحسب،، ارادت ان تتكلم معه من جديد لكنه اغلق الخط في وجهها يلعنها في سره ويتوعد لها ايضا ان يُريها الوجه الاخر، الوجه الذي تستحقه، فهي لا تلوم والدها والقدر فقط بل وتحمله هو ايضا المسؤولية كما لو انه هو صاحب الفكرة ومن اراد الاقتران بها،، بقي شارد الذهن يتأرجح بكرسيه الجلدي عن اليمين تارة وعن الشمائل تارة اخرى حتى رن هاتف مكتبه من طرف مساعدته التي اخبرته عن قدوم اسماء،،، بسرعة استعاد رباطة جأشه وطلب منها ان تدخلها اليه، حيث تفاجأ بها هذه المرة كثيرا اذ لم تعد الفتاة السوداودية كما كان يطلق عليها من قبل بسبب الثياب الغرابية التي كانت ترتديها، بل اضفت على حياتها الوانا فاتحة مشرقة تشع ببريق الامل والتفاؤل، جلست قبالته تلقي تحية الصباح ترتسم على شفتيها الكرزية ابتسامة عذبة كعذوبة مياه نهر النيل،،، فرح هارون جدا لاجلها وهو يراها بهذه الهيئة المنيرة وقال لها يحمل مدونته الخاصة :

- تبدين غايةً في السّعادة واليُسر هذا اليوم يا عزيزتي اسماء ؟

ضحكت الاخرى ناحيته ببراءة واجابت بهدوء :

- كله بفضلك انت حضرة الطبيب

- جيد، هل فعلت ما طلبته منك اخر مرة ؟

- اجل، صارحت امي بالامر ولم تجد مانعا له، بل على العكس شجعتني ولكن ...

توقفت الفتاة عن الكلام وتبددت ملامحها من الفرح الى شيء من الريبة والحزن قد لاحظه هارون جيدا، حيث بقي صامتا في انتظارها كي تتكلم ولم ينبس ببنت شفة،، ظلت اسماء برهة زمنية على حالها ثم اخدت زفيرا عميقا وواصلت كلامها قائلة :

- عندما علم زوج امي بانني انوي اكمال تعليمي عارض الفكرة وبشدة، حتى انه صار يُلح على والدتي ان تخبره بالشخص الذي نصحني فكما اخبرتك الحصة الاولى انه لا يعلم بارتدادي الى هنا، ولانها لم تخبره واصّرت على الوقوف في وجهه كي يدعني في حال سبيلي ضربها بعنف بحزام بنطاله لدرجة انها لم تقم من فراشها يومين

رق قلبه عليها كثيرا خصوصا عندما ترقرقت عيناها بالدموع فبالنهاية تبقى انثى والانثى ضعيفة بطبعها الى متى يمكنها تتحمل كل المشاكل والهموم، حتى هو كطبيب نفسي ليست لديه القدرة الكافية لاخراجها تماما من قوقعتها، لكن هذه هي حال الدنيا خُلقنا فيها كي نشقى ونتألم حتى ننضج ونتعلم، اخرج منديلا ورقيا من جيبه وناوله اياها بعدها قال لها يقوم بالتخفيف عنها ...

- دعينا ننظر من الناحية الايجابية، ستكملين تعليمك وستخرجين بعدها من ذلك المستنقع العفن، وليس هذا وحسب بامكانك اخراج والدتك ايضا،، فقط عليك بالصبر يا اسماء وعدم الاستسلام تحت اي ظرف كان، وكما قلت لك مسبقا بامكانك طلب المساعدة مني في اي وقت تشائين

- شكرا لك حضرة الطبيب، انت بالفعل انسان رائع... وكأنه لديك عصا سحرية تستطيع بها تحقيق الامنيات،، انت مبارك من الله ومثلك انقرضوا منذ غابر الازمان

شعر بالفرح لسماعه لهذه الكلمات لكنه ايضا شعر بالالم فهو بالرغم من مساعدته لكل مريض نفسي تحت حكم مهنته، الا انه فشل في مساعدة ابنة خاله من هذا الزواج الاجباري وهي تستحق زواجا عن حب وليس عن اكراه، افاق من شروده يستطرد الافكار عنه وبادلها الكلام :

- هذا واجبي عزيزتي اسماء وعملي ايضا، لا تنسي انني اتقاضى عليه اجرا، ثم انا اخترت الطب النفسي خصوصي كي اساعدك واساعد من هم في مثل حالتك

كادت اسماء ان تتكلم معه من جدبد لكن رنين هاتفه منعها من ذلك حيث اجاب فورا بعدما لمح اسم والدته على الشاشة..

- امي انا في العمل الان لا استطيع الحديث

- بني ارجوك الحقني !!

انتفض هارون مكانه بفزع تحت استغراب اسماء فصوت امه لم يكن مطمئنا ابدا، اجابها بفضول ودقات قلبه تخفق بصورة رهيبة ...

- ماذا حدث ؟ ولما صوتك مضطرب ؟

- لقد ساءت حالة جدتك فجاة، ولا اعلم السبب تعال بسرعة كي نأخدها الى المشفى

- هل الامر خطير ؟؟

- لا ادري بني

- اتصلي بالاسعاف وسالحق بكم فورا،، هل خالتي ليندا عندك ؟

- اجل انها هنا

- اذا اطلبي منها ان تقوم بالامر بسرعة وانا في طريقي الى هناك

- حسنا هارون لا تتاخر علينا ارجوك

اغلق هارون الخط فورا ودقات قلبه لا تعرف طريقا للتوقف، واعتذر من مريضته ان يكمل معها في المرة القادمة، حيث تفهمت الامر برحابة وغادرت غرفة المكتب تطلب من حسناء موعدا اخر،، اما هو فقد امر مساعدته ان تلغي حميع مواعيد اليوم وتؤجلها الى اشعار لاحق، دون ان يفسر لها شيئا عن حالته التي جعلتها تنط هنا وهناك والفضول قد انهش تفكيرها.

كان هارون يقود السيارة بسرعة رهيبة لا يصدق متى يصل الى المستشفى ويطمئن على حال جدته، فهو لا يتحمل خسارة قريب اخر، فبعد ان توفي والده رحمه الله قبل اربعة سنوات التحق به جده لامه بعد عامين فقط، ولهذا باعت جدته خديجة كل الاملاك وانتقلت للعيش مع ابنتها على ان تتركها بمفردها، ولا سيما بعد زواج الاء من رجل يقطن في الجنوب،، بعد عشر دقائق مسافة الطريق، صار على اعتاب مركز الصحة ابن رشدي، حيث ترجل من سيارته وصار يركض في الرواق يلتفت يمينا ويسارا يبحث عن امه وخالته اذ لم يلبث كثيرا حتى لمح احداهما تجلس على احد الكراسي امام غرفة العمليات من الطابق الاول،، اتجه نحوها يسابق الريح وما ان صار قبالتها حتى سالها بهلع :

- خالتي ليندا ماذا حدث مع جدتي ؟

كانت الاخيرة تبكي بشراهة؛ تنهمر الدموع من مُقلتيها مثل زخات المطر خوفا على امها من ان يصيبها مكروه، ثم صارت ترمق شقيقتها بنظرات لاذعة شيطانها يامرها ان تنقض عليها وتفتك من اعمالها السيئة، انتبه هارون مع الامر وشعر انه هناك خطأ ما والدته لها علاقة به، حيث اعاد السؤال على خالته مجددا يربت على كتفها بحب وحنان،، تنهدت ليندا باسى وقالت :

- اسأل والدتك وهي ستخبرك بما حدث مع امي !

- ما هو قصدك ؟؟

توجه هارون بنظره نحو امه التي كانت تقف قرب باب غرفة العمليات وقال بفضول :

- امي ؟ هل لك يد في الموضوع ؟

التفتت سهام عليه والتوتر بادي على وجهها ثم اردفت بالم تنساب العبرات من عينيها :

- والله لم اقصد بني لقد اردت فقط هذا من اجلها هي

- من اجلها هي ؟

- اقترحتُ عليها ان تقيما انت وزوجك في بيتنا الاشهر الاولى من الزواج كي نتعاون على اعمال البيت لكنها عارضت وبشدة حتى احمر وجهها واغمي عليها

فتح هارون عينيه على مصرعيهما من الذهول، تتزاحم الاسئلة في مقدمة راسه عن السبب الذي دفع بوالدته ان تقول هكذا اقتراح، فحتى لو وافقت جدته هو بالتاكيد لن يوافق خصوصا انه يعلم جيدا ان ريان تكره عائلته بسبب المشاكل بين زوجة خاله وبينهم،، تنفس بضيق يُبعد عنه التوتر كي لا ينصاع لغضبه ويجرح قلب والدته التي يخاف عليه من هبوب نسمة هواء وقال بهدوء :

- سنتكلم لاحقا حول هذا الاقتراح العظيم يا امي الغالية، بعد ان تتعافى جدتي وتعود لها صحتها

كادت ان تتكلم مجددا لكن صوت ليندا التي حال دون ذلك حيث اجابت بغضب :

- هارون على حق يا سهام نحن الان في المشفى ولا يجوز ان نسبب ازعاجا

كانت شقيقتها ترمقها بنظرات نارية، وقد كانت على شفا حفرة من اخبار هارون بالحقيقة الكاملة وان ما قالته امه له الان مجرد اختلاق كي تُغطي به وجه الحقيقة التي تنوي فعلها بحق ابنة شقيقها،، بعد مرور نصف ساعة من الانتظار خرجت الطبيبة التي كان هارون يعرفها جيدا فقد سبق وراها مع ابن خاله سليم وهي نفسها خطيبته برفقة اثنتين من الممرضات، لكن يبدو عليها انها لا تعرفه حيث كانت تنظر اليه كاي شخص غريب، بدات كلامها بعد ان سالتها ليندا عن حالة امها قائلة :

- لا داعي للخوف يا جماعة لقد ارتفع ضغطها بسبب تعرضها لصدمة نفسية وسُد احد شرايين قلبها، وهي الان بالف خير، يمكنكم رؤيتها بعد ان تستيقظ من تاثير المخدر، ولكن حاولوا ان تبعدوها عن التوتر قدر المستطاع

اومأ هارون لها بالايجاب وتنفس الجميع الصّعداء بعد ان مرت العملية بسلامة في انتظار الجدة ان تستيقظ كي يطمئنوا عليها اكثر.

***

جلست ريان على احد الكراسي في كافيتيريا الدولفين المقابلة للساحل الشرقي، تستمتع بمنظر الامواج المتراطمة وكأنها تعبر عن غضبها الشديد من افعال البشر التي لا تنتهي على مر السنين والعصور،، سرحت قليلا بمخيلتها عند طيور النورس البيضاء تتذكر ذلك اليوم المشؤوم الذي لم يغب ولو للحظة واحدة عن بالها، لقد كانت على شفة حفرة من تحقيق كل امنياتها واحلامها لكن في لحظة غير متوقعة انقلب عالمها الوردي رأسا على عقب،، تنهدت بآسى وراحت ترتشف من كوب الزنجبيل تُريح اعصابها قليلا من التفكير الزائد بخصوص موضوع خطبتها وفي تلك اللحظة اقبلت عليها صديقتاها تُلقيان التحية بشيء من المرح والسرور بعد ان لاحظا حالها الذي لا يبشر بالخير ابدا، جلست إيلين بجانبها عن اليمين وشذى عن اليسار وقالت الاخيرة تسألها عن اخر التطورات :

- اذا يا صديقتي الغالية ؟ هل من جديد معك انت وعريسك ؟

ابدت ريان انزعاجا كبيرا حول سماعها لتلك الكلمة ورمقت صديقتها بنظرات نارية بامكانها احراق قارة افريقيا باكملها، بعدها اردفت نحوها بغضب :

- شذى لا تكرري تلك الكلمة على مسامع اذني مرة ثانية والا لن اسامحك

- انا اسفة عزيزتي لم اقصد ازعاجك

لحظتها تدخلت إيلين بعد ان رأت ان الجو قد بدأ يتكهرب وقالت تخاطب ريان :

- يبدو انك لا زلت على اعصابك منذ يوم خطبتك وحتى الان مع انه مضت اربعة ايام !!

- وماذا ستغير يا إيلين ؟ هل ساحبه بين عشية وضحاها فقط لانه امسى خطيبي ؟

- هل هو سيء لهذه الدرجة ؟

- لا اعرف ولا يهمني، ومشكلتي ليست مع شخصه بل مع فكرة الارتباط بحد ذاتها،،، انا اكره ان يضعني احدهم تحت الامر الواقع ويفرض شيئا علي، ثم لا تنسيا انا ما زلت احب وائل وكثيرا ايضا

اجابتها شذى بحدة :

- ما زلت تحبينه !! بالرغم من كل ما فعله بك ؟

- ليس بيدي انها ثلاثة سنوات يا بنات لم يسبق لي ان قابلت شخصا مثله، وايضا وجدت فيه كل الصفاة التي اردتها في شريك حياتي

تبادلت شذى وإيلين نظرات الاسى على صديقتهما تشعران بالعجز وقلة الحيلة لاجل مساعدتها في محنتها، فهي معها حق بعض الشيء بخصوص زواجها الذي لا يجوز عن طريق الاكراه، بالرغم من ان شذى فور رؤيتها لهارون شعرت انه هو الشخص الانسب لريان وهو من سينسيها ما مرت به،،، لكن الاخيرة لا تريد رؤية الامور من تلك الناحية هي مصممة على انها تكرهه وستبقى تكرهه طوال العمر، تنهدت شذى باسى واردفت تواسي رفيقتها :

- عزيزتي احيانا تُضطر سُفننا ان ترسوا في شواطئ لا نرغب بها فقط لان القدر اراد هذا لحكمة ربانية نحن نجهلها، انا اعلم انك لم تحلمي بزواج كهذا وبهذه الطريقة، لكن اعطيه فرصة وصدقيني لن تخسري شيئا

ايّدت إيلين كلامها قائلة :

- هي على حق وانا اتفق معها، فلا احد منا يعلم ما تخبئه الايام له

- وماذا ان كان عكس ما قلت ؟ ماذا لو جرت الامور عكس التيار ؟ انه زواج ولن اقامر بحياتي وانا لا اضمن وجود الحب بيننا

- حسنا عزيزتي فلنغلق هذا الموضوع الان ولنتكلم حول اشياء اخرى ... ما رايك يا شذى ؟

ابتسمت ريان بسخرية واجابت

- عن ماذا سنتكلم مثلا ؟ عن موعد عقد قراني الذي هو يوم الثلاثاء المقبل ؟

تفاجئت الاثنتان من هذه السرعة الكبيرة وقالت إيلين باستغراب :

- هل تم تحديده ؟ ا ليس مبكرا قليلا ؟

- ولما الانتظار فعريسي جاهز من جميع النواحي وانا ايضا قد انهيت مرحلة ليسانس

- وماذا عن الماستار ؟

- ليس صعبا، استطيع تداركه وانا متزوجة

وضعت يدها على كتف صديقتها تربت عليها وتخفف عنها ثم قالت لها مغيرة الموضوع :

- آه بالمناسبة يا ريان اريد ان اسألك عن الشاب الذي كان برفقة هارون يوم خطبتك هل هو صديقه ؟

استغربت الاخرى سؤالها عنه وقالت بنبرة فضول ترمق شذى بنظرات دهشة ...

- ولما تسألين عنه ؟ انه ابن عمتي ليندا التي تقطن في دبي

- حقا !! يا سلام،، لقد اثار استحساني عندما وقف بجانبي ذلك اليوم وشعرت بتيار خفيف مر بيننا

- لا تقولي لي انك أُعجبت به ؟!!

- ولما لا ؟

وقبل ان تجيبها ريان تدخلت شذى :

- دعيها تحلم المسكينة هل برايك سيترك فتيات دبي الغنيات ويختارك انت برايك ؟

- وماذا ينقصني انا ؟ اساسا اطمح ان اسافر الى الخارج لاجل الوظيفة والاستقرار ولا اريد ان ابقى هنا

شعرت ريان لحظتها ان إيلين تُخفي شيئا ما وقد بادرتها السؤال فورا قائلة :

- إيلين هل حدث بينك وبين عبدالصمد اي تعارف ؟

ارتبكت من سؤالها المباغث والذي لم تتوقعه منها، وصارت تُكلم نفسها حول ان كانت ريان شكت بشيء ام لا، ولم تجد بدا انذاك الا من اخبارهما الحقيقة قبل ان يسمعا من غيرها...

- حسنا، عندما قام هارون بتلبيسك الخاتم كان ابن عمتك الاخرى يقف بجانبي، وقد التقت عيوننا معا في لحظة واحدة اذ سالني عن اسمي وماذا اكون بالنسبة لك، وبعد ان علم انني صديقتك اراد رقم هاتفي لكني اعطتيه صفحتي على مواقع التواصل وحسب وصرنا ندردش على الويب شات هذا كل شيء

صارت شذى تصفق بحرارة كردة فعل على حركة إيلين التي راتها جريئة بعض الشيء وقد اجابتها :

- احسنت يا فتاة لقد قمت بعمل جيد على الاقل استفدنا شيئا من خطبة ريان

مقتتها الاخرى بتحدي وقالت :

- لا تفرحا كثيرا فعمتي ليندا لا تريد ان تزوج ابنها الان حتى ينهي دوكتوراه

- صحيح ماذا يدرس يا إيلين ؟

- الطب

- واو رائع بالفعل، هو طب وانت هندسة كيميائية كما يقولون الطيور على اشكالها تقع

بقيت ريان صامتة ولم تتكلم مجددا تستمع لنهفات صديقتيها، هي تعلم ان إيلين طيبة واذا احبت تحب بصدق، وقد سبق وان تعرضت لخيبة امل من طرف صديقها المقرب الذي ملك قلبها دون رغبة منها، ولا يمكنها ان تتحمل خيبة اخرى، فبالرغم من ان عبد الصمد ابن عمتها ليندا لكنها لا تضمن انه لن يحطم فؤادها بعد ان يتسلى بها، فهي تتوقع اي شيء منهم،، ارادت ان تحذرها لكنها ارتأت ان تترك لها الخيار ولا تتسرع في الحكم لربما حدث عكس ما خمنت به.

***

انهى هارون مواعيده باكرا اليوم بسبب عدم قدوم اثنين من المرضى تحت ظروف طارئة،، وقد اغتنم الفرصة عندها ليذهب الى والد الطفل المصاب بالتوحد والتحدث اليه لعل وعسى يغير قراره بخصوص اهتمامه بابنه، كان طوال الطريق يفكر بالامر وهل يا ترى سينجح كعادته ام لا، حتى عندما اتصل عليه يوم امس وحاكاه بالموضوع شعر ببرود الطرف الاخر وكأنه يقول له بطريقة غير مباشرة لا تتعب نفسك معي،،، لكن هارون قطع وعدا لتلك المراة

المناضلة في سبيل سعادة فلذة كبدها وعقد العزم على فعلها مهما يكن الامر، توقف فجاة عند الطريق الفرعي لحي البرتقال بعد ان كاد يدعس فتاة شابة تسير بلا هوادة لا تدري اين سيأخدها المسير يتذكر بدوره ذلك اليوم الذي كاد ان يدعس فيه ريان وهو يجهل من تكون،، عاد مجددا يفكر بالامر الذي اوصلها لتلك الحالة كما انها لم تسمح له بان يتواصل معها ويتغلغل الى اعماقها، كلما اراد ان يخطو خطوة نحوها ابعدته عنها الاف الخطوات،، رسميا لا تطيقه ولا تطيق حتى قربه لدرجة انها لم تخجل منه وتجرات وطلبت ذلك الطلب الذي كاد ان يفقده صوابه،، انطلق بسيارته وهو يفكر في حياته الجديدة معها وهل سيولد حب بينهما ام ستبقى تكن له العداوة بالرغم من انه لم يسبق له ان قام بفعلة شنيعة تجاهها، اساسا لم يكونا مقربين كثيرا من بعضهما بسبب فارق العمر الكبير اولا، والمشاكل العائلية ثانيا، ولو لم يكن والده اخد وعدا من ابيها لما حدث ما حدث،، اطلق تنهيدة عميقة تنم عن اليأس والعجز الذي هو فيه لا تغادر صورتها وهي ترتدي القفطان مراى عينيه السماوية،، لا يدري لما شعر باحساس غريب لحظتها ولما خفق قلبه بسرعة فور رؤيته لها ؟ هل يُعقل انه بدأ يحبها ؟؟ مع انه تمام العلم باحساسها تجاهه ام انه محض اعجاب وحسب وسيزول مع مرور الزمن،، لا يدري ولا يستطيع تفسير تلك الاحاسيس التي انهالت عليه فجاة من العدم، افاق مع نفسه من موجة التفكير الزائد تلك بعد ان وصل الى وجهته المنشودة، حيث كان يقطن والد الطفل في شقة من العمارة ب في حي البرتقال وقد كان ذلك الحي سيء السمعة بعض الشيء ولم يكن هارون يحب تواجده فيه كثيرا،، حمل هاتفه وترجل من سيارته يسير بخطى تابثة نحو باب العمارة وقد انتابته روائح كريهة تعود الى رائحة العفن لكلب او قط ميت ربما، حيث وضع مرفقه على انفه كي يمنع استنشاقها، بعد ان صعد الدرج وصولا الى الطابق الثالث ضغط على زر الجرس لتفتح له سيدة شابة تبدو في العقد الثاني من العمر في شهرها السابع كما اخبرته والدة الطفل، كانت ترتدي منامة بيتية بيضاء فضفاضة طويلة وباكمام قصيرة عليها حرف الالف باللاتينية وتضع وشاحا اسود فوق راسها تتدلى بعض الخصلات من المقدمة، بقيت تنظر نحوه ببلاهة وفي راسها تساؤلات جمة حوله..

- مساء الخير سيدتي، هل رابح حمادو في المنزل ؟

وقبل ان تجيبه اتاه صوته من الداخل يسأل زوجته عن الطارق، حيث ما ان راه حتى اقبل نحوه قائلا :

- عفوا، من تكون حضرتك ؟

- مرحبا سيد حمادو انا الطبيب النفساني هارون زعيم لقد كلمتك امس على الهاتف بخصوص وضعية ابنك بلال

مرت ثواني قليلة حتى تذكر السيد رابح بخصوص مسألة قدوم هارون، بعدها مد يده نحوه مصافحا اياه يلقي التحية ويعتذر عن نسيانه للامر، لم يكترث الاخر كثيرا ولم يبالي ايضا بردة فعله، فقط ابتسم بتصنع ودلف الى الداخل بامر منه تحديدا الى غرفة المعيشة، ثم امر زوجته ان تعد لهما فنجانين من القهوة، بعدها جلس على اريكة من الجلد بنية اللون وقال بفضول :

- قلت على الهاتف امس ان الموضوع خطير ؟

تنحنح هارون قليلا ثم اجابه بهدوء ينظر داخل عينيه بحزم :

- لن اطيل الكلام اكثر يا سيد حمادو وساقول لك باختصار ان ابنك بحاجة ماسة اليك، وليس من العدل ان تتخلى عنه وتترك مسؤولياته على عاتق امه فقط لانه مصاب بالتوحد

ابدى رابح انزعاجا طفيفا حول كلامه وقال وهو يشعل سيجارة قد اخرجها من جيب بنطاله :

- لا افهم لما تتدخل انت بالامر ؟ وما علاقتك بابني وزوجتي الاولى نسرين ؟

- لا تربطني بها اي علاقة، لقد شدني فيها كفاحها لاجل راحة ولدها وهذا ما جعلني اسعى لمساعدتها، لقد اتت لمعالجة بلال قبل ثلاثة ايام وما فهمته منها ان ابنك يحتاج اليك بقدر ما يحتاج لامه

- انت لن تفهم شعوري ابدا الا عندما تجرب ما عشته،، ان يكون لديك ابن مصاب بالتوحد يعني انك لن تعيش الابوة ابدا،، لن تاخده الى الملعب ولا الى الحديقة، لن تسمع منه كلمة ابي، ولن يخبرك بما حدث بينه وبين اصدقائه

لم يحتمل كلامه ذاك واعذاره التي هي اقبح من ذنبه وقال بانفعالية زائدة :

- هل انت جاد في كلامك ؟ ا هذا هو عذرك لتركك ابنك وزوجتك وهي في امس الحاجة اليك ؟ لما لم تفعل والدته مثلك ؟ هي ايضا بشر ولديها طاقة محدودة في التحمل،،، هل اخبرك لماذا ؟ لانها ليست انانية مثلك لقد ناضلت وبكل قوة فقط لاجل سعادة ابنها طوال هذه المدة التي كنت انت غائب فيها

- حسنا ايها الطبيب ما هو المطلوب مني ؟

- لا شيء، فقط اغدق على بلال بالحب والحنان، وعوضه عن النقص الذي عاشه فترة غيابك

بقي رابح صامتا ولم ينبس ببنت شفة وكأنه يشعر بالندم قليلا حول ما فعله لابن يعاني من مرض التوحد

كان هارون على وشك مغادرة البيت ولكنه تذكر امرا مهما فاردف مجددا :

- الاربعاء المقبل لدي موعد مع بلال حوالي الساعة العاشرة والنصف صباحا، وساكون مسرورا جدا اذا حضرت انت ايضا

- الاربعاء !! لا اعلم اشعر انه لا يمكنني الحضور لدي عمل مهم، ما رايك بالثلاثاء ؟

- اسف انا ايضا لا استطيع، لانه عقد قراني ذلك اليوم

- اوه، فهمت حسنا سارى في الامر واخبرك

- اذا اتفقنا

قام هارون بعدها من مكانه لحظة دخول زوجته عليهما، وهي تحمل صينية فضية في يديها عليها قدحين من القهوة رائحتها قد بلغت عنان سقف الشقة، اعتذر منها على اتعابها دون قصد وهي في شهرها،، وغادر المنزل يدعو الله ان يتحرك قلب ذلك الرجل ناحية ولده ويغير تصرفه معه ويتقبل فكرة وجوده في حياته.

***

اتى يوم عقد القران بلمح البصر بعد اسبوع ونصف فقط من خطبة هارون وريان، حيث استيقظت الاخيرة باكرا مع شروق السمش الذهبية للاستعداد لهذا اليوم الذي لا ترغب بمروره، لحد الساعة لا زالت لا تصدق انها ستتزوج من ابن عمتها وزواجا تقليديا خاليا من الحب والعاطفة، مع انها حاولت كثيرا وبشتى الطرق ان تمنع هذا الزواج ودعت الله كثيرا

ان تحدث معجزة وتنقذها من براثن هذا الواقع القاسي ولكن من دون فائدة يبدو ان نصيبها كان هكذا وعليها ان ترضى به، ترجلت عن سريرها بخطى متثاقلة تقصد الحمام الذي وجدت فيه شقيقها يستحم كي يلحق على موعد حلاقته باكرا، فهو اخو العروس وعليه ان يظهر في ابهى حلة، لم تجد ريان بدا الا ان تذهب الى المطبخ وتأخذ لها قدحا من الهوة كي تطرد النعاس عنها،، جلست على الكرسي في انتظارها كي تغلي بعد ان وضعتها في الابريس وراحت تتصفح مواقع التواصل الاجتماعي كمضيعة للوقت، انتبهت مع اشعار وصلها على الفيسبوك عبارة عن طلب صداقة من هارون زعيم مكتوبة باحرف لاتينية كبيرة، اذ استغربت من تصرفه هذا بعد حادثة رقم هاتفها، ويبدو انه يسعى لشيء اخر اكبر من عقلها الصغير ذاك، راحت تلقي نظرة خفيفة على حسابه بعد ان قبلت صداقته، والذي كان في منتهى الاناقة والغرابة ايضا إما لا يعكس شخصيته وإما هي بالفعل لا تعرفه جيدا، معظم منشوراته تعود لصوره عندما يزور مكان جديد او منطقة ما سواء في داخل الوطن او خارجه، لاحظت انه ذهب الى المغرب في سنة 2016 فهي تعرف الدار البيضاء جيدا قد سبق وسافرت اليها عندما كانت صغيرة مع والدها ووالدتها وحتى لديها صورة تعود لها قد رسمتها باناملها السحرية، وكذلك ذهب الى دبي وهذا ليس غريبا فخالته تقطن هناك، وقام ايضا بزيارات عديدة للحمامات في مدينة تونس مرة سنة 2013 ومرتين في 2014 و2016 ... ويبدو انه يعشق السفر مثلها تماما من خلال منشوراته على مواقع التواصل الاجتماعي ويحب الطبيعة ايضا وهدوء الليل مثلها بالضبط، كانت صوره وهو في عمر العشرين جذابة قد اخذت استحسانها على حين غرة وراحت تشعر بشي غريب ناحيته لا تدري عنه شيئا، امسكت بقلبها الذي صار يخفق بسرعة وطردت عنها الافكار الغريبة تحاول اقناع نفسها انها تتوهم وحسب فهي احبت شخصا واحدا ولن تحب غيره،،، افاقت من شرودها على صوت صافرة ابريس القهوة وخروج سليم من الحمام ايضا، حيث وضعت هاتفها جانبا بعد ان اغلقت اتصالها بالشبكة واخذت لها فنجانا سريعا كي تتدارك موعد حمامها تاركة والدتها قد استيقظت لتوها... انهت ارتداء ثيابها من فستان قرمزي من الحرير من الجزء السفلي ويكسوه الدانتيل على الاطراف من الجزء العلوي، باكمام طويلة وحجاب اسود وحذاء ذو كعب عالي، حملت حقيبتها اليدوية تضع فيها هاتفها وخرجت من غرفتها الى الصالون حيث تجلس امها وخالتها جاهدة ولينا والبقية من افراد العائلة في انتظار قدوم العريس،، تلك اللحظة رن جرس المنزل حيث ركضت عائشة بسرعة لتفتح الباب تستقبل شذى وإيلين بالاحضان وتنهال عليهما بالقبل تاخد رايهما في فستانها الوردي المنفوخ.. كان كل شيء هادئ وجميل فرح في البيت وزعاريد تتعالى من طرف فادية وجاهدة يعبران عن فرحهما بهذه المناسبة الجميلة،، والكل يتبادل نظرات السعادة عدا ريان التي كانت تبكي دما داخليا وروحها تصرخ وتناجي تطلب النجدة لكن لا احد يشعر بها او يبالي بجراحاتها.. ساعة مرت وهم في انتظار جرس السيارات على احر من الجمر فقد داهمهم الوقت وتأخروا كثيرا فما زال هناك حفلة صغيرة ستقام بحضور باقي الاقرباء، وهناك وليمة ايضا على العشاء كعادة

تقليدية معروفة في مدينة عنابة جوهرة الشرق الجزائري،، تلك اللحظة اقبل بلال يركض من الخارج ويصرخ عن وصول الجماعة، حيث شعرت ريان بالغبط وامسكت قلبها الذي لا يعرف طريقا للتوقف عن الخفقان.

كان هارون يرتدي بدلة سوداء مع صدرية بيضاء وربطة عنق في شكل فراشة غرابية اللون، ترجل من سيارته مع عبد الصمد وصديق مقرب له قد قام بعزيمته وبعض الاقرباء من النساء والرجال يطلقون الزغاريد ويرقصون بفرح في ابتهاج عربي سخي، تقدم نحو الداخل بعدها مع والدته وجدته وخالته ليندا حتى صار قبالة عروسه التي كانت في انتظاره في المربع بفستان قرمزي مثير يأخذ الانفاس، مطقطقة الراس نحو الاسفل كعادتها لا يدري ان كان من شدة الحياء ام من التوتر او من شيء اخر يجهله،، تقدم نحوها ببطئ حتى اصبح امامها لا تبعده عنها سوى بضع سنتيمترات وقدم لها باقة من الورود الحمراء ترمز للحب والوفاء قد امسكتها ريان رغما عنها تبتسم بتصنع كي لا تثير الشبهات، ثم امسكت بيده بطلب منه وقلبها لا زال على حاله يخفق بسرعة يسير بها الى سيارته والجميع خلفهم.. وقعت على تلك الورقة وكأنها وقعت على قرار اعدامها،، وها هي الان صارت زوجته شرعا ولا يمنعه عنها اي شيء، كادت ان تتساقط تلك العبرات من عينيها الزمردية لكنها تداركتها بصعوبة بالغة كي لا تفضح نفسها ويشك الجميع بها فلا احد يعلم عن زواجها الاجباري غير علئلتها، ولهذا يجب عليها ان تستمر في التمثيل فقط كي تسلم من جراحات السنة الناس،، اقبل الجميع عليهم من الاقارب والجيران يباركون لهما بهذا الاقتران ثم غادروا بعد ان اتموا المهمة التي قدموا لاجلها، وكذلك ريان كانت تريد الامر عينه لكن والدها الذي لا ينفك عنها قد زاد الطين بلة حينما طلب من هارون ان ياخد عروسه ويحتفلان معا في احد المطاعم،، ارادت ان تتهرب لكن تاييد البقية للفكرة حال دون ذلك ولم يجد هارون بدا الا لتلبية الامر والاستسلام له.

كانت ريان طوال الطريق صامتة ولم تنبس ببنت شفة تنظر الى الخارج من خلال زجاج النافدة سارحة بافكارها التي تاخدها عن اليمين تارة وعن الشمائل تارة اخرى وكأنها في عالم اخر ولا تابه لوجود هارون بجانبها،، اراد الاخر ان يفتح حديثا معها ويحاول ان يتسلل داخل عقلها قليلا لربما نجح في قراءتها على النحو الصحيح لكنه لم يجرؤ خصوصا بعد نبرتها تلك معه عندما كلمها على الهاتف،،، انها قوية جدا وهو يدرك هذا تماما ويبدو انه سيتعب معها كثيرا، انتبه عليها وهي تراقب طيور النورس والابتسامة ترتسم على شفتيها الكرزية حيث استغرب حركتها كثيرا وصار يتسائل عن سرها، تنحنح قليلا ثم قال :

- تحبين طيور النورس ؟

- نعم... اجابته بلا مبالاة متناسية تماما مشاعر الكره التي تكنها له، ثم واصلت كلامها...

- انه طائر الحظ خاصتي،،، اقصد كان طائر الحظ خاصتي

لاحظ هارون الحزن البادي على ملامح وجهها ولكم اراد معرفة سببه تلك اللحظة، لكنه ضغط على مشاعره تاركا كل شيء للوقت المناسب، ابتسم بعفوية على تفكيرها الطفولي وهي فتاة في الواحدة والعشرين من عمرها وقال :

- ا تعلمين ماذا يقولون عن هذا الشيء يا ابنة خالي ؟

كانت ريان قد سبق وسمعت هذه الجملة من قبل وعادت بذاكرتها الى الماضي تحديدا ذلك اليوم الذي لم تنساه ابدا ثم اردفت تمسك بقلبها :

- ماذا ؟

- تطير.. لا يوجد شيء اسمه طائر الحظ، هي خزعبلات لا اساس لها من الصحة

نفس الاجابة ونفس السؤال، وكأن الكون كله اتفق عليها، صارت تتسائل بين نفسها هل يعقل ان شخصية ابن عمتها وتفكيره تتشابهان مع شخصية وائل وتفكيره ايضا ؟؟ هي لا تعرف هارون جيدا ولم تجمعهما مواقف حقيقية سويا بسبب فارق العمر والمشاكل العائلية ولكن من خلال صفحته على الفيسبوك وما سمعته منه الان يدل ان هذا الشخص نسخة طبق الاصل عن ذاك، انتبهت مع صوته وهو يكلمها عن سبب صمتها المفاجئ حيث قالت :

- لقد سرحت قليلا في كلامك، ربما انت على حق، لا يوجد طائر حظ او شيء من هذا القبيل، ولكن لكل منا ايمانه الخاص بالاشياء ولا تستطيع ان تجعل الناس يفكرون مثلك

كان كلامها وجيها فهو بالنهاية لديه طريقته الخاصة كما لديها هي ايضا ذلك، ولهذا التزم الصمت ولم يعلق على جوابها كي لا يدخلا في نوبة نقاشات بيزنطية لا طائل منها،، بعد ان وصلا الى مطعم الباراداس نفس المطعم الذي كانت ترتاده ريان رفقة وائل، ترجلا من السيارة ودلفا الى الداخل ياخدان لهما مكانا جانبيا قرب النافذة،، اخدت ريان همبرغر مع صحن سلطة مشوية واخد هارون شوربة سمك مع نقانق،، ومشروبات غازية لكليهما، وراحا يتناولان الطعام بنهم شديد لشدة الجوع الذي فتك بهما،، توقف هارون ياخد له استراحة وسرح قليلا في تلك العيون الزمردية التي هي نفس عيون والدته ينظر اليهما بهيام فلطالما كان يعشق عيون امه وكان يحلم دوما بالزواج من فتاة عيونها خضراء واسعة ويبدو ان حلمه تحقق في هذا كما اراد بالضبط، حتى في ملامحها كانت تشبه عمتها كثيرا، فريان منذ ان كانت صغيرة من يراها يقول انها صورة طبق الاصل عن عمتها سهام، وهارون انتبه على هذا اليوم فقط...

- انت تشبهين امي كثيرا،، حتى شقيقتي الاء لا تشبهها مثلك

توقفت ريان عن الاكل جرّاء سؤاله وقالت وهي ترتشف من علبة كوكاكولا ..

- اجل، مع الاسف

- مع الاسف !!

- اسمع يا هارون، ان عمتي التي هي والدتك تكرهنا وتكره امي ايضا وبسبب هذا لا تنتظر مني احترامها او حتى التعاطف معها،، لاكون واضحة معك منذ البداية

تفاجأ كثيرا من ردها وكلامها بخصوص والدته، وقد ادرك ان هذا الغِرة لا تشبه امه في الشكل وحسب بل في العقلية والقوة ايضا انها بالفعل سليطة لسان مثلها...

- لم تتغيري ابدا، كل شيء فيك حسن الا لسانك السليط يجب ان يُؤدب

- ان لساني لا يقول الا الحق ان اعجبك او لم يعجبك يا ابن عمتي

- لما انت حاقدة علي لهذه الدرجة ؟

- لانك ابن تلك العائلة التي انكرت وجودنا ولم تعترف بنا

- غير صحيح جدتي خديجة تحبكم مثلما تحبنا هي لا تظهر هذا فقط

- وماذا عن امي ؟

- تلك مسالة تخصها ولا علاقة لي بها

- على كل لا اريد ان اتكلم في الموضوع الان، وكما اخبرتك سابقا لا استطيع ان احبك بمجرد ان والدك وعد ابي،، اساسا انا لن اعترف بهذا الارتباط لانه اجباري عني

- وماذا عساي افعل ؟ انا ايضا مثلك أُجبرت عليه

ابتسمت بسخرية لاذعة على كلامه واردفت :

- كان بامكانك ان تلجأ الى امام فقيه في الدين وتساله عن الحكم في موقف كهذا !! لكن لم تفعل ؟ بل استسلمت للامر الواقع واجبرتني عليه ايضا

كانت محقة في كلامها كيف لم تخطر على باله هذه الفكرة ؟ ويلجأ الى امام فقيه في الدين او حتى داعية ويطلب منه المشورة، ربما كان هناك حل للمشكلة وما كانوا سيصلون الى هذه النقطة، اراد ان يتكلم معها مجددا لكن صوت الهاتف الجوال الخاص به حال دون ذلك، كان يرن على نغمة سيمفونية قديمة لِ بيت هوفن التي تعشقها ريان كثيرا، لان وائل كان يُفضل هذا النوع من الموسيقى الكلاسيكية على العصرية،، تلك اللحظة خفق قلبها بصورة رهيبة

خصوصا وهي تتذكر ايامها ولحظاتها الساحرة مع من اعتبرته نصفها الاخر وملاذها الآمن، امسكت بكأس الماء الموضوع فوق الطاولة وارتشفت منه بروية تستعيد انفاسها الضائعة تراقب هارون وهو يتحدث على الهاتف امامها،، كان المتصل هو السيد حمادو والد الطفل المُصاب بالتوحد الذي سبق وطلب منه ان ياتي برفقة ابنه الموعد القادم كي يعرف المزيد عن حالة طفله، وقد توقع هارون خيرا كثيرا منه واملا في التغير؛ لكن توقعاته كلها قد ذهبت سدى بعد ان اجابه بكلمة واحدة (انا آسف حضرة الطبيب لن استطيع التواجد يوم غد بسبب ظرف طارئ)... لم يترك له المجال حتى للاستفسار عن السبب الذي جعله يتراجع بل اغلق الهاتف في وجهه بطريقة فظة وقام بحظره بعدها كي لا يصل اليه من جديد،،، شعر هارون بالاسى خصوصا انه وعد والدة بلال انه سوف يكلم ابوه ويحاول معه كي يهتم بابنه قليلا؛ انتبهت ريان الى علامات وجهه التي تبددت من الاحسن الى الاسوأ وادركت ان الاتصال لم يكن جيدا حيث تنحنحت بخفوت وقالت له بفضول :

- هل انت بخير ؟

نظر الاخر نحوها بحزن عميق محاولا اخفائه بشتى الطرق واردف نحوها :

- لقد ازعجني تصرف اب مريض لي

- لاحظت هذا،، هل هو لا يأبه بحالة طفله ؟

- اجل

تنهدت ريان وزفرت بحنق تتذكر بدورها تصرف والدها بعد ان زج بها في كنف هذا الذي يجلس قبالتها وقالت تشيح بنظرها الى الخارج :

- هناك منه الكثير الكثير اللذين لا يكثرتون لاحوال اولادهم،، كيف يعيشون وكيف يشعرون وما هي هواياتهم ومتطلباتهم.. الاشياء التي يحبونها والتي يكرهونها و... الخ،، وبالنهاية انت الطبيب النفسي وتستطيع فهم هؤلاء وفهم اولئك ايضا

شعر هارون من خلال نبرة صوتها انها تقصد والدها في كل كلمة قالتها، فهو يعرف خاله جيدا انه صارم جدا وعنيد ويفعل ما يريده هو فقط مثلما ارغمها على الزواج منه، تلك اللحظة رق قلبه تجاهها قليلا وبات يفهم سبب رفضها التام له، فهي مثلها مثل اي فتاة تسعى لعيش قصة حب مع شخص في مثل سنها ولن تثير اهتماماتها الماديات والمظاهر الخادعة، وظهوره هو في الوسط قد افسد عليها جميع مخططاتها،، كان على شفة حفرة من اخبارها انه سيتراجع عن الامر وسيلغي مسأله الزواج هذه من الاساس، فهو لن يرغمها ابدا على اشياء اجباري عنها لكن ذلك الصوت الانثوي وهو ينادي باسم ريان اوقفه عن ما كان ينوي القيام به، التفت ناحيته ليتفاجأ بحسناء تقف وراءه تبتسم مع زوجته وتنظر نحوه بحقد

وكراهية،، شعر لحظتها وكأن احدهم سكب عليه كأس ماء بارد، وصار يحدث نفسه عن معرفة حبيبته بزوجته وهل يعقل ان تخبرها عن الذي كان بينهما ام لا ؟؟ ... تقدمت الاخيرة منهما وقالت بلهجة نارية تخاطب ريان :

- ريان !! الف مبروك سمعت ان عقد قرانك كان اليوم ؟ ... ثم التفتت على هارون وواصلت كلامها بمكر : هل هذا هو عريس الغفلة ؟

لم تكن ريان على اتفاق مع حسناء البته وياما وقعا في نوبات مشاحنة مع بعضهما البعض بسبب غيرة حسناء منها لتفوقها واخدها الشخص الذي تحبه، لكن ريان كانت تجهل الجزء المتعلق بهارون والذي كلفها خسارة كل ما حلمت به...

- اجل صحيح، وهذا هو زوجي .. من اين سمعت بالخبر ؟؟

- جميع من في الصف يتكلمون بالامر على الواتساب

- ا ليس لديكم عمل اخر سوى اغتياب الناس ؟

- على رسلك عزيزتي نحن لا نتمنى لك سوى الخير

ابتسمت ريان بسخافة حول كلامها وقالت :

- حسنا، شكرا لك والعاقبة لك ايضا

التفتت الاخيرة على هارون وقالت بتماطل :

- ان شاءالله وهذا ما سيحدث اساسا

غادرت المكان تاركة ريان تتسائل حول هذا الكلام الغامض الذي تفوهت به ولا تدري لما خالجها احساس غريب عندها انها تقصد زوجها بهذا، بقيت تنظر نحوه بصمت ولم تتفوه بعدها باي حرف كما فعل هو ايضا الامر ذاته بعد ان انصدم كثيرا من العلاقة التي تربط زوجته بحبيبته السابقة.

***

رن المنبه الساعة الخامسة والنصف صباحا فوق راس هارون الذي ايقظه من كابوس مرعب جدا كانت ريان هي بطلته او بالاحرى رهينته فيه، اخد يلهث ويمسح حبات العرق من جبينه يستغفر الله كثيرا ودقات قلبه لا تعرف طريقا للتوقف ابدا، اسند راسه مجددا على الوسادة وراح يفكر بالشيء الذي راه في حلمه وصار يتسائل ان كان سيفعلها حقا على ارض الواقع ام سيفي بوعده تجاهها،، تنهد باسى وازاح اللحاف عنه يترجل عن سريره يقصد الحمام كي ينعش نفسه بالمياه الساخنة ويتوضأ بعدها لاداء فريضة الصبح،، احيانا ينسى هارون نفسه نائما ولا يحالفه الحظ كثيرا في صلاتها في الوقت..

بعد ان احتسى فنجان قهوته الصباحية، ارتدى ثيابه وقصد عيادته في عجل وعقله لا ينفك التفكير عن حل للمشكلة التي في انتظاره،، كان قد وعد السيدة حمادو والدة الطفل المصاب بالتوحد انه سيحاول مع طليقها كي يهتم بابنه قليلا لكن يبدو ان الامر اصعب مما توقعه،، في طريقه مر على بائع الكعك الجوال وقد خطر على باله شيء لم يتوانى في فعله لحظتها؛ بعد ان انتهى منه ادار المقود مجددا نحو حي لاسيتي اوزاس يستمع الى سيمفونية موزارت الشهيرة على راديو اذاعة عنابة مستمتعا قليلا بنسمات البحر التي صارت تهمس على مسامع اذنيه، وما هي الا دقائق حتى كان على اعتاب الحي اذ قابل حسناء قادمة من الجهة المقابلة ترتدي جينز اسود وقميص بادينجاني باكمام قصيرة تتمايل بكعبها العالي الاسود اقتنته الشهر الماضي برفقته من محل دبي التجاري القابع في وسط المدينة؛ تُطلق شعرها الاملس المصبوغ بالاصفر خلف ظهرها،، القت عليه التحية بشيء من الانزعاج ما ان لمحته يترجل من سيارته قائلة :

لم تكتفي بالخطبة يا سيد هارون فتزوجتما ؟ والله انا اهنئك بصراحة على هذه العجلة

رمقها الاخر بنظرات نارية مردفا نحوها :

- ا لن تستسلمي يا حسناء ؟ هل ستبقين هكذا ؟ ماذا كنت تتوقعين مثلا ان اترك ريان واتزوجك انت ؟

- ولما لا ؟؟ اساسا هذا الذي يجب ان يحدث .. هل كان حبنا بالنسبة لك هشا لدرجة ان تنسى بهذه السهولة ؟

كانت حسناء تتكلم وصوتها يعلو في كل مرة لدرجة ان هارون قد فقد اعصابه عليها ولم يعد يحتمل هذا اكثر،، صاح فيها بعنفوانية جعلتها ترتد بضع خطوات للوراء مصدومة من نبرة صوته عليها..

- اقولها لك وللمرة الاخيرة صدقيني، انا وانت لن نكون سويا واخبرتك بالمسالة قبل ارتباطنا لكن انت من اصريت.. لهذا لا تختبري صبري اكثر يا حسناء لانه ليس من صالحك، ريان زوجتي من الان وصاعدا وحياتي لها هي وحسب ان اعجبك او لم يعجبك، واذا عرفت انك ازعجتها بشيء فانني لن ارحمك

- واو انا لا اصدق حقا، صرت تحبها ايضا وتدافع عنها

- اجل، لقد احببتها هل ارتحت ؟؟ ولا تظني انني لم انتبه لحركاتك امس في المطعم،، لا اعلم عن كيفية العلاقة التي تجمعكما لكن ان سمعت انك بشيء ما او انك اخبرتها عن ماضينا فتاكدي انني سادمرك وانهيك يا حسناء

كاد يذهب ناحية باب العمارة لكنه توقف فجاة وكأنه تذكر امرا ما حيث واصل حديثه نحوها :

- وبخصوص عملك معي انا لن اتدخل فيه لانه ليس من طبيعتي ان اقطع ارزاق الناس، وبقائك في المكتب يعتمد على تصرفاتك

غادر بعدها يقدح شرارة ودخان راسه يتصاعد في الهواء حلقلت حلقات؛ فمنذ امس وهو يعيش صدمة عن علاقة حسناء وريان ويخاف كثيرا ان تخبرها بكل ما تعرفه،، هو واثق ان ريان لن تكثرت كثيرا لانها لا تحبه لكنها قد تجده عذرا في الابتعاد عنه وهذا ما لن يسمح هارون بحدوثه،، جلس فوق كرسيه المصنوع من جلد التمساح، وفتح حاسبه المحمول يقوم بارسال بعض الرسائل الالكترونية المهمة لا ينفك عقله التفكير بين الفينة والاخرى بموضوع حسناء التي باتت قنبلة موقوتة بامكانها الانفجار في اي لحظة،، وبينما كان غارقا في افكاره اتصلت عليه الاخيرة تخبره بقدوم اول مريض الذي كان رجلا اربعينيا يعاني من صدمة حادة دفعته الى الانتحار مرات عدة كلها باءت بالفشل،، كان هارون يستمع اليه بكل جوارحه بالرغم من انه ليس اقل راحة واطمئنان منه يحاول معه بشتى الطرق في اخراجه من منطقة الظلام التي سحبته عنوة مقنعا اياه ان الحياة تستحق دائما ان نعطيها فرصة ثانية وثالثة طالما هناك نفس،، لم تُبدِ نصائحه اي نتيجة بحكم انها الحصة الاولى ولهذا طلب منه موعدا اخر الاسبوع المقبل بعد ان مرت ساعة وربع دقيقة،، شعر الرجل بالارتياح قليلا ناحية هارون ووعده ان ياتي مرة اخرى كي يستمر في العلاج،، بعدها غادر المكان لاخذ موعد من سكريتيرته وعاد الاخر في تفكيره بريان وبلال في نفس الوقت، لا يدري لما يشعر ان هذان الشخصان هما من سيغيران حياته على نحوٍ اخر،، وفي نوبة تفكيره سمع طرقات خفيفة

على الباب حيث امر صاحبها بالدخول ليتفاجأ بالسيدة نسرين حمادو وابنها قد اتت قبل موعدها؛ نزع نظاراته الطبية وقال مدهوشا..

- سيدة حمادو !!

- اسفة حضرة الطبيب اعلم انني اتيت قبل الوقت المطلوب، لكن الامر ليس بيدي،، فانا اعمل ممرضة في مشفى الخروبة ولا يمكنني ترك عملي وقتما اردت

- حسنا لا باس اساسا ليس لدي موعد الان .. اخبريني ما الجديد ؟

تنهدت المراة بحزن تنظر الى ابنها الذي يجلس قبالتها يعبث بلوحه الالكتروني لا يآبه باي احد موجود امامه، وقالت بعد تردد كبير..

- لقد اتصل بي رابح امس

ابدى هارون انتباها اكثر واجاب :

- وبعد !

- طلب مني ان لا اعتمد عليه ابدا في الاهتمام ببلال وكأنه غير موجود، كما انه نبهني من ان اخبرك بما حدث كي لا تذهب اليه وتكلمه

تفاجأ الطبيب جدا من تصرف هذا الرجل الذي يثبت ان قلبه لا يعرف الرحمة ابدا، ولم يرف له جفن بخصوص مسالة ابنه الذي هو في امس الحاجة اليه، تنهد باستغراب رافعا احد حاجبيه قائلا :

- والله صراحة لم اتوقع هذا الامر منه ابدا يا سيدة حمادو، لقد ظننت لوهلة انه سيَلين قليلا ناحية بلال،، لكن الواضح انه قاسي جدا

- لقد توقعت انا تصرفه فهو لن يتغير ابدا لان معدنه هكذا،،، اسمعني يا دكتور لقد اعتدتُ على غياب زوجي من حياتي انا وابني ولهذا قصدتك في المساعدة، ارجوك انا ليس لدي سوى بلال في هذه الدنيا، امي فارقت الحياة وانا صغيرة وابي تزوج من اخرى قد اخدته مني كليا واعلم انها لن تفتح بابها لابني ان اصابني مكروه وهذا ما جعلني احاول بشتى الطرق ان اعلمه كيف يواجه الحياة والمجتمع

توقفت عن الكلام ترمق فلذة كبدها بشيء من الشفقة والحنين وكأنها ستغادره عما قريب ولن تراه مرة اخرى، لم تقصر نسرين معه في شيء بل ضحت بكل ما تملكه في سبيل سعادة ابنها ولانها، لم تفلح في اغلاق الفجوة التي تركها زوجها في نفسية بلال قررت ان تلجأ الى طبيب نفسي لعل وعسى يساعدها ذلك في تربيته وتنشاته نشأة صالحة،، شعر هارون بالاسى

حيالها كما انه لاحظ ان قواها بدات تنهار شيئا فشيئا جرّاء المسؤوليات الواقعة على اكتافها، اخرج منديلا ورقيا من درج مكتبه وناوله اياها بابتسامة لطيفة ارتسمت على شفتيه القرمزية...

- انا واثق انك ستتخطين هذه العقبات انت وابنك يا سيدتي فقط عليك بالايمان بقدراتك وانك كفؤا لها..

سكت قليلا يشيح بنظره نحو الصغير الذي راه غارقا في عالمٍ اخر ثم اردف مرة اخرى...

- والان اذا سمحتِ اود ان اتكلم مع بلال لوحدنا

- حسنا حضرة الطبيب، سانتظر في القاعة

غادرت السيدة حمادو غرفة الطبيب الى قاعة الانتظار تاركة صغيرها بمفرده معه، الذي راى ان يبدا رويدا رويدا في سحبه قليلا الى الواقع ومعرفة الاسباب التي دفعت به للتصرف بعنفوانية بين الفينة والاخرى، كان بلال لا يكترث لاي شيء حوله ولا يشعر بوجود اي احد معه يُطلق عنانه مع لعبة التراكيب التي حمّلها مع غيرها من العاب الذكاء على لوحه الالكتروني وبالرغم من صِغر سنه الا انه كان جيدا فيها لدرجة ان اقرانه كانوا يغارون منه ومن ذكائه الفذ،، تنحنح هارون قليلا واخرج قطعتين من الكعك الشهي قد اعتاد على شرائه من بائع الكعك الجوال كل صباح، وراح ياخد قضمة صغيرة مستمتعا بمذاقها اللذيذ، في بادي الامر لم ينتبه الصغير معه بل ظل ملازما لعبته يحاول الفوز فيها باي طريقة، مع انه قد شعر بوجود خلل ما او طاقة تقوم باختراق عالمه الذي لا يحبذ اي غريب ان يتسلل اليه، لكن اعادة هارون الكرّة قد جعلته يتوقف عن اللعب وينظر اليه بتساؤل وحيرة، ادرك الطبيب انه نجح في الاختبار واذا ما واصل عمله فان خطته ستنجح، وصار ياخد قضمة ثالثة ورابعة يتلذذ بمذاقها وكأنها لحم طائر سُمّان مشوي، ثم توقف قليلا ومد يده للصغير يطلب منه ان يشاركه في الاكل،،، بقيت يده معلقة في الهواء دون اي ردة فعل من بلال، وما هي الا برهة زمنية قصيرة حتى قال له :

- بلال لا يأكل من عند الغرباء

وضع هارون قطعة الكعك فوق الطاولة وابتسم بسعادة لانه واخيرا جعله يتكلم وقال بعدها بحنية زائدة على غير العادة منه :

- حسنا يا صغيري لن اصر عليك، لكن اعتبرني بمقام والدك وخد مني هذه الكعكة ؟

وضع بلال يداه على اذنيه ما ان سمع كلمة والدك، وقد شعر هارون بالهلع من ان يدخل في نوبة صراخ حاد، حيث لم يجد حلا غير ان يعانقه وبشدة يحاول تهدئته بروية يخبره ان كل

شيء سيكون على خير ما يرام،،، كانت تلك المرة الاولى التي يشعر فيها بلال بهذا الاحساس الغريب وبالرغم من انه يعاني من رهاب العناق ولم يكن يسمح لاي شخص بان يلمسه وحتى والدته، الا انه استسلم لهارون وهو يجهل السبب، بعد ثواني معدودة ابتعد الاخير عنه وصار يربت على فروة راسه بكل حب يحاول بذلك ان يتقرب منه ويصبح صديقه وحافظ اسراره.. بادله بلال الحديث بنوع من الارتياح قد لمحه في عينيه وصار يكلمه عن علاقاته باصدقائه المقربين وهما هيثم ونوفل والعاديين ايضا، وكيف يتنمرون عليه ويسخرون منه احيانا لكن هو لم يكن يكترث لتصرفاتهم لانه اعتادها منهم كثيرا، اخبره ايضا عن فتاة أعجب بها في الصف اسمها فتون هي من سوريا انتقلت للعيش الى الجزائر قبل سنتين، ولهجتها الغريبة بالعامية هي ما اثارت اهتمامه بها وانجذابه اليها،، مرت نصف ساعة تقريبا وبلال يبوح لطبيبه بكل ما يخبئه داخل قلبه، اذ بدا يشعر بالاريحية قليلا كونه وجد من يشرح له صدره حتى توقف عن الحديث عندما سأله هارون عن علاقته بابيه،، ابدى لحظتها انزعاجا شديدا واردف قائلا :

- ليس لبلال اب

- حسنا،، الا تشتاق اليه على الاقل ؟

فاجئه هارون بسؤاله الذي لم يتوقعه منه،، اذ قام بضربه على الوتر الحساس... سكت الطفل قليلا يتلفت ناحية النافذة بعدها اجابه :

- بلال يريد قضاء وقت مع والده كما يفعل هيثم و نوفل،، بلال يريد الذهاب الى مدينة الملاهي معه، ويريد قضاء العطلة الصيفية في منتجعات تلمسان،، يريد الذهاب الى المخيم في غابات سرايدي ويريد التخييم في شواطئ تيبازة ايضا

- ومن اين لك معرفة كل هذا يا بلال ؟ ثم ليس من الضروري ان تفعله مع والدك

- جميع زملائي في الصف واصدقائي يفعلون هذه الاشياء مع اوليائهم، ودائما يتكلمون امامي عن رحلاتهم في المصيف وخارج البلد ما عداي انا لانه ليس لي اب

ضربت كلمته الاخيرة اوتار فؤاد هارون، وجعلت قلبه ينتفض مكانه شعورا بالاسف حيال هذه الصبي الذي لا ذنب له في ما يعيشه الان من فقد للابوة،، كادت تسقط تلك الدمعة من عينيه تأثرا بوضع مريضه لكنه تمالك نفسه كي لا ينصاع لعاطفته،، تنحنح بخفوت ووضع مذكرته الجلدية التي يقيد فيها اسرار مرضاه فوق مكتبه مرفوقة بقلمه الاسود الجاف وقال :

- حسنا يا صغيري ما رايك لو نقوم معا بتلك الاشياء ؟؟ ان لم يكن لديك مانعٌ طبعا ؟

- حقا !! .. اجابه الصغير بنبرة خاطفة لا يصدق ما سمعه باذنيه

- نعم، ولما لا... فانا قد سبق وقمت بعدة رحلات على الصعيد الداخلي والخارجي ولا ضير ان تشاركني في احداها هذه المرة ؟

سكت بلال قليلا يخمن بينه وبين نفسه، فهو لم يسبق له ان شارك اسراره مع غريب لكنه شعر بنوع من الامان تجاهه لا يدري سببه، تردد بعض الشيء ثم اردف نحوه ..

- لكن بلال لم يذهب في سياحة خارجية مع احدٍ من قبل

- اممم ما رايك ان ناخد اذن والدتك اذا ؟؟

- بلال سيشعر بالفرح في هذه الحالة

- اتفقنا اذا يا صديقي

انتهت الحصة الاولى للمعالجة التي راى فيها هارون خيرا بالنسبة لحالة بلال، وقد اخده حيث تجلس والدته في قاعة الانتظار تطالع احد مجلات الموضة وقال لها مطمئنا اياها ...

- سيدتي ابشرك ان وضع ابنك سيتحسن مع مرور الوقت لا تقلقي

كادت تجيبه نسرين التي وقفت مكانها فور رؤيتها لهما لكن صوت بلال حال دون ذلك حيث قال :

- امي سيصبح لبلال اب

فتحت الاخيرة عينيها في ذهول واجابته مستفسرة :

- ماذا تقصد بني ؟

- هذا الرجل سيكون ابي وسياخدني في رحلات مثل اصدقائي وزملائي بالصف

ابتسم هارون بلطف واح يربت على خصلات شعره بعدها التفت الى نسرين واردف :

- اعدك ان ابذل قصارى جهدي في اخراجه من قوقعته، واذا تطلب مني الامر ساكون بمثابة ابيه،، اذا احتاجني في اي شيء وجدني بجانبه

- حقا لا ادري كيف ارد لك جميلك يا حضرة الطبيب ارجو ان تنال السعادة التي تستحقها في القريب العاجل،،، وان تحصل على الحب من جميع من حولك

غادرت السيدة حمادو رفقة ابنها والفرحة بادية على وجهها لا تصدق انها واخيرا عثرت على حل لمشكلة ابنها،، اما هارون فقد عاد الى مكتبه تحت انظار حسناء التي كادت تنفجر من الغيض بسبب كل ما دار امام عينيها.

***

بعد مرور اسبوع واكثر بقليل من عقد قران ريان بابن عمتها اخيرا خرجت من غرفتها التي اتخدتها سجنا لها وحدادا على روحها التي لم تتوقف لحظة واحدة عن الانين بسبب ما يحصل معها،، كانت تتجنب الحديث مع والدتها والبقية وخصوصا ابيها الذي هو سبب كل ما يجري حولها، كما انها لم تعد تتناول طعامها كما المعتاد بل صارت تاخد لها قضيمات صغيرة فقط تكفيها كي تبقى على قيد الحياة،،، لم يجدي معها كلام اختها وصديقتاها اي نفع في تقبل الامر الواقع لها وقد اقسمت انها لن تحب ذلك الرجل ولو وضعوا سكينا على رقبتها، ولن تعتبره زوجا لها ولو وقعت على مئات الاوراق،، كان تفكيرها الزائد سيقودها الى الجنون ولم تجد شيئا مسليا تفعله وتنسى به مرارة ما تعيشه غير الهروب الى الرسم فلها ما يقارب شهر لم تُمسك بريشة والوان.... بسرعة اخرجتُ اوراقي البيضاء والواني المائية وريشة حمراء عليها زهور الاوركيدا، ونزلتُ الى حديقة البيت الامامية اقوم بتوظيب المُعدات على النحو الصحيح، ورحتُ بعدها اقوم بتحويل كل ما هو ملموس امامي الى صورة جميلة آية في الروعة، كانت صورتي الاولى عبارة عن طائر ابيض جريح يرقد بجانب وردة حمراء في حقل سنابل شاسع تتخلله خيوط اشعة الشمس الذهبية التي لا يمكن للمرء ان يعيش بعيدا عن اشعتها الدافئة، بعدها باشرتُ في نحت اللوحة الثانية التي لم استغرق وقتا طويلا في رسمها، وهي قارب صغير اسود اللون بشراع نيلي يركبه صياد صغير يرتدي قميص ازرق وقبعة من القش يُبحر الى الافق البعيد وطيور النورس تحلق فوق راسه،، توقفتُ هنيهة ارقب لوحتي الفنية اتمنى في سري ان اكون مكان الصياد واسافر الى اللامكان حيث لا يوجد هارون ولا سهام ولا حتى والدي الذي فرض علي هذا الزواج،، تجمعت بعض العبرات في عيناي وكادت تتساقط منهما لكن سرعان ما تداركتُ الموقف ونفضتُ مخيلتي من تلك الافكار اعود الى رسم صورة اخرى غريبة ومختلفة عن سابقتيها،، اخدتُ وقتا اطول فيها هذه المرة حتى انهيتها لدرجة انني لم اشعر بمن يقف خلفي ويقوم بمراقبتي...

- واو لوحة جميلة بالفعل

انتفضتُ بفزع على ذلك الصوت الغليظ الذي اخافه واخشاه، والتفتُ لاتفاجئ بهارون يقف خلفي ويتفحصني من الاعلى والاسفل يكتم ابتسامته التي يخال انني لم الحظها على شفتيه القِرمزية بسبب منظري المضحك الذي طَغت عليه الالوان المائية،، جزء في انفي وبقع منتشرة بعشوائية على ثيابي وقليل على جبهتي، اقترب مني اكثر حتى صار قبالتي وراح ينظر الى اللوحة التي كانت عبارة عن فتاة ترتدي فستان زفاف وتحمل في احدى يداها اكليل من الورد وفي اليد الاخرى سكينا ملطخة بالدماء،، ملامح وجهها سوداء وشعرها مرفوع في شكل كعكة..

- لم اكن اعلم انك تُجيدين الرسم... قال وهو ينظر الى الصورة بعيون ثاقبة

اجبته وانا اضع الريشة فوق طاولة الرسم :

- لاننا لسنا مقربين من بعض لتلك الدرجة

- هممم... منذ متى وانت تمارسين هذه الهواية ؟

- منذ نعومة اظفاري

- وهل شاركتِ في مسابقات الرسم ؟

- اجل.. على المستوى الولائي والوطني، وقد فزت مرة بميدالية فضية،،، كان ذلك العام الماضي عندما شاركت في مسابقة النحت على الجدران اقامتها ولاية تبسة

افقتُ مع نفسي وانا اتكلم براحة مع هارون لا ادري من اين سقطت فوق راسي،،، تنحنحتُ بخفوت وقلت وانا اعيد اشيائي الى الحقيبة الخاصة بالرسم :

- بالمناسبة ما الذي اتى بك الى هنا ؟

- اتصل خالي بي وطلب مني القدوم لانه يريدني في موضوع ما

- اؤكد لك انه بخصوص موعد الزفاف

تلك اللحظة اعتراني حزن مفاجئ وانا اجيبه لم افلح في اخفائه وقد لاحظه هو الاخر جيدا حيث قال :

- لما تبدين مستاءة !

- ما رايك انت ؟

- لن تتقبلي الامر ا ليس كذلك ؟ ولن تعطي هذا الارتباط فرصة ؟

- انت لن تفهمني يا هارون ولن تفهم ما يخالج تفكيري وعقلي،، المسالة ليست في الاعتياد وحسب لان جميعنا نعتاد على الاشياء ونألف وجودها، المشكلة في الحب ... ا فهمتني ؟ في الحب يا هارون، انا لا اشعر باي احساس تجاهك، على العكس اكرهك لدرجة غير متصورة لانك فُرضت علي واجباري عني سواء كنت مذنب ام لا، ولهذا انني ارجوك ان لا تسالني مرة اخرى عن حالي فانت على دراية تامة به

غادرته وانا استشيط غضبا لاجل تغيير ثيابي والاستعداد للذهاب الى محل دبي التجاري مع شذى وإيلين كي نتسوق قليلا، بعد ان الّحت امي علي ان ابدأ في تجهيزات يوم زفافي الذي من الواضح انه قريب جدا، ارتديتُ فستان زهري طويل مع جاكيت جينز باكمام طويلة وحجاب من نفس لون الفستان وحذاء رياضي ابيض ثم حملت حقيبتي وهاتفي وخرجت من البيت تاركة هارون يتكلم مع ابي في غرفة المعيشة واخي سليم قد انضم للتو اليهما... كانت الشوارع تعج بالناس كبارا وصغارا والساحل يشهد حالة ازدحام كبيرة من السياح اللذين لم يملوا ويشبعوا من البحر، حيث اعترتني رغبة شديدة عندها ان اقوم بسباحة طويلة المدى في البحر، لكن وقتي المحصور لم يسمح لي،، اوقفتُ سيارة اجرة وطلبت من سائقها ان يُقلني الى شارع رحبة الزرع حيث يوجد هناك بائع مؤكولات تقليدية لذيذة كنت قد اشتهيتُ تناول المقرود المقلي عنده، بعد عشر دقائق وصلت هناك مع اتصال شذى التي يرجح انها صارت على اعتاب المحل التجاري،، طلبت منها ان تنتظرني دقائق بينما اقتنيتُ حاجتي، والتفت على البائع بعدها اطلب منه خمس حبات مقرود مقلي وثلاث حبات من اليويو الشهي كالذي تعده شقيقتي فادية،، كان البائع شاب ثلاثيني فتي اسمر البشرة وقصير القامة غاية في اللطف والاصالة يستقبل الزبائن ببشاشة،، اذ ما هي الا ثواني حتى ناولني مشترياتي يعيد الي قطع نقدية،، ودعته بابتسامة شبه معدومة واستدرت للخلف في عجل كي اخرط على شذى لدرجة انني ارتطمتُ بجسد ذكوري على غفلة منى اوقعتُ جرّاءه ما احمله بين يداي،، حيث دنوت الى الاسفل كي اخد اشيائي لكن تلك اليد التي كانت تلتف حول معصمها ساعة سوداء من نوع دانيال حالت دون ذلك وما شدني اكثر هو الصوت الغليظ مُردفا نحوي قائلا :

- انا آسف يا آنسة لم انتبه لك !!

رفعتُ راسي ودقات قلبي صارت تخفق بصورة رهيبة،، فهذا الصوت ليس غريبا علي انا اعرفه منذ ثلاثة سنوات،، كانت صدمة غير متوقعة بالنسبة لي فالذي يقف قبالتي الان يساعدني في حمل مقتنياتي هو نفسه ذلك الشاب الذي تخلى عني وعن حبنا بسبب احلامه والسفر خارجا...

- غريباً حقا !! فقد سبق وعشنا هذا الموقف من قبل

ابتسمتُ بسخرية على كلامه آخُد منه كيس الحلويات، وقلت وانا انظر داخل عينيه الكستنائية :

- اجل معك حق، الموقف الذي كلفني حياتي كلها

- هل ما زلت عاضبة مني ؟

ابتسمتُ مرة اخرى بسخرية على كلامه الذي يحاول استفزازي به وقلت وانا ارفع يدي اليسرى في وجهه اريه خاتم عقد قراني بتحدي :

- على العكس يا وائل لم اعد غاضبة... انظر لقد اصبحت متزوجة الان ولم يبقى الا يوم دخولي

كان الامر بالنسبة اليه مفاجئة لا تخطر على بال احد، لدرجة ان ملامح وجهه تبددت من الجيد الى السيء وصار لون بشرته صفراء وكأنه راى شبحا للتو، استعاد رباطة جأشه بصعوبة وقال :

- بهذه السرعة يا ريان ؟

- وماذا كنت تتوقع عزيزي وائل، ان ابكي حدادا عليك حياتي كلها،، يبدو انك لم تعرفني جيدا اذا

- اجل.. لم اعرفك جيدا بالرغم من انها ثلاثة سنوات، على كلٍ بما اننا التقينا صدفة هنا اريد ان اخبرك ان موعد طائرتي هو يوم 25 سبتمبر، لقد تم قبولي في جامعة كندا لاجل الدوكتوراه

تلك اللحظة شعرت بالالم والحزن وتمنيت لو كنت معه في هذه الرحلة، لكن لا نستطيع تغيير الماضي، ولا التحكم بالحاضر، ولا التنبأ بالمستقبل ايضا، ازدريت ريقي بصعوبة وقلت له مودعة اياه :

- اتمنى لك التوفيق والسداد في حياتك

غادرته وانا العن كل شيء في سري على حظي العاثر الذي خدلني في اخر لحظة ولم يرأف بحالي، فقد كنت ايضا على شفا حفرة من تحقيق جميع احلامي لكن كل شيء تلاشى واختفى، مسحت قطرات الدموع من عيناي واستعدت رباطة جأشي اواصل المسير حيث شذى في انتظاري التي وجدتها برفقة ايلين يتجولون في محلات الملابس على الرصيف المقابل، القيتُ التحية عليهما بنوع من الفتور قد لاحاظاه جيدا لكنهما لم تعلقان كالعادة ظنا منهما ان هارون السبب وذهبتُ معهما الى مركز دبي التجاري نتجاذب اطراف الحديث حول شتى الميادين وتفكيري بوائل لم ينفك عني البته.

***

يوم الزفاف...

مرت الايام بسرعة البرق على ريان التي كانت تتمنى عكس ذلك وبشدة، وما زاد من المها اكثر واكثر هو ما اخبرها وائل به عندما صادفته قرب محل الحلويات التقليدية وقد شاءت الاقدار ان يكون موعد طائرته وخروجه من هذه البلاد هو نفسه يوم ذهابها الى بيت زوجها مقرنة باصفاد الخدلان بدلا من اصفاد الفرحة،، امضت معظم وقتها تلك الفترة حبيسة غرفتها لا طعام ولا مرح ولا حتى حديث مع امها كما اعتادت من قبل،،، ولكن ما الفائدة ؟ فزواجها محسوم ولو اغلقت على نفسها في بروج مشيدة لوجدها ابن عمتها واحضرها رغما عن انفها، كانت والدتها من تقوم بجميع التحضيرات دون ان تساعدها في شيء لعدم رغبتها، حتى انها لم تختار جهازها مثلها مثل اي فتاة تحلم بذلك اليوم الذي ستتربع فيه على عرش عش الزوجية، كانت فادية من قامت باقتناء جميع متطلباتها من البسة بيتية صيفية وشتوية، واخرى لاجل الخروج كما انها اوصت صديقتها تعمل خياطة في دكان صغير في ولاية سكيكدة ان تَخيط لها فساتين المناسبات لربما انتفعت بهم يوما، وكل هذا وذاك كان تحت انظار ريان لكن لا حماس ولا عزيمة ولا حتى رغبة في فعل اي شيء يخص هذا الزواج اللعين،، كان شهر اوت كافيا لشراء كل متطلبات العروس من اعلى راسها وحتى اخمص قدميها، ما عدا الاثاث واشياء البيت التى رفض هارون ان يُضاف اي شيء جديد للمنزل، فقد قام بتصميمه خصيصا على ذوقه من كل النواحي ولم يكن يرغب باي تداخلات لا على الصعيد الداخلي او الخارجي، وبعد ان تمت كل التجهيزات اتى موعد الزفاف في

الخامس العشرين من شهر سبتمبر... استيقظت باكرا كعادتها تشعر بالاعياء ولا مزاج لها ايضا في فعل شيء ولا حتى الخروج وتحمل لسان عمتها سهام الذي يقطر سما، دلفت عليها عائشة الغرفة تركض في فرح وتنادي على خالتها التي استقبلتها بالاحضان تنهال عليها بالقبل ...

- متى اتيت يا سكرة خالتك ؟؟

- الان، اوصلنا ابي وغادر الى عمله

- حقا ! ا لن ياتي لاجل حفل امسية الزفاف ؟

- لقد اخبر امي انه سيخرط علينا في السهرة

- اممم فهمت

- خالتي ريان هل ستتزوحين فعلا ؟

كانت الصغيرة تتكلم وفي عينيها بريق من الحزن اشعر ريان بالفضول التي اجابتها باستغراب :

- هل انت حزينة يا عزيزتي عائشة ؟

- نعم

- ولما ؟ ا لا تريدنني ان اتزوج ؟

- لقد اعتدت وجودك كلما اتيت الى هنا، واللعب معك ايضا ولكن عندما تتزوجين لن نخرج سويا كما كنا نفعل، ولن ناكل المثلجات عند الساحل، ولن نلعب معك الغميضة والرُّديا

ترقرقت عينا ريان بالدموع تتذكر تلك الايام الجميلة الاي ستودعها اليوم ولن تعود اليها مجددا، احتضنت ابنة اختها بقوة كبيرة تزيل الاشتياق والحنين الذي لن تراه مرةً اخرى،، ثم مدت يدها نحو درج كومدينتها واخرجت منها رباطا قرمزي اللون وقامت بربطه حول معصم ابنة اختها ثم اردفت مجددا :

- اسمعيني يا حلوتي، هذا الرباط سيذكرك بي وبايامنا الجميلة التي قضيناها سويا، اياك ان تفرطي به ا هذا مفهوم ؟؟

اجابتها عائشة وفي عينيها بريق من الفرح :

- اعدك يا ريان انني لن افرط به ولن انزعه من معصمي

صارت ريان تقبلها بجنون مرة ثانية ثم تركتها تركض نحو شقيقها لاجل اللعب في حديقة البيت، اما هي فقد تزّجلت عن سريرها وسارت نحو الحمام كي تنعش نفسها بماءه الساخن، وتبعد عنها التوتر الذي هلّ عليها من العدم، صادفت قرب الباب شقيقتها تحمل صينية القهوة تاخدها الى غرفة المعيشة لاجل فطور الصباح وقد بادرتها بنكتة مضحكة ممازحةً اياها،، لكن ريان كانت ردة فعلها عنيفة بعض الشيء بسبب الوضع المختلف الذي تعيشه رغما عنها،،، حاولت فادية ان تتفهم تصرفها وتجاهلت ما بدر منها تواصل مسيرها اينما تريد، اما ريان فقد اغلقت على نفسها في الحمام تستمتع بتلك المياه المتساقطة عليها كشلالات جرجرة اكثر تدفقا وحرارة،، لا ينفك عقلها التفكير بهذا اليوم لا تدري لما يخالجها احساس مخيف حول نهايته،، صارت تتسائل حول هارون وما الذي يفعله الان وهل استيقظ ام لا،، والكثير من الاسئلة بخصوص عريسها انهالت عليها ضربا بالسياط دون ان ترحمها وتتركها بحال سبيلها،، بعد ان انهت حمامها ارتدت ثيابها وتناولت فطورها مع امها وشقيقتها.

كانت الساعات الاولى مملة بالنسبة لها حيث لم تجد شيئا لتفعله فوالدتها مشغولة بجميع التحضيرات والتجهيزات في قاعة الحفلات من لوازم العشاء وحلويات القهوة التي ستقدم مع العشية، وكذلك اوصت ابنتها فادية ان تؤكد على الفقيرات (فرقة الموسيقية) بخصوص ساعة قدومهم،،، كان الجميع على اعصابهم يركض هنا وهناك كي يلحقوا على كل شيء، وريان خارج نطاق التغطية من كل هذا وذاك،،، بعد ان اتفقت فاطمة مع شقيقتها جاهدة ان تبقى مع العروس ومصففة الشعر التي اتت خصيصا للعناية بها، غادرت هي مع ابنتها وبقية الاقارب من شقيقتها الاخرى سلوى وبناتها التوأمين الى قاعة الحفلاتpetit mouse المقابلة لشاطئ البحر فيدرو،، كي تلحق على اخر الترتيبات،، تاركة ريان بمفردها وقلبها يشهد حالة هيجان من مد وجزر بامكانهما اغراق عنابة باكملها،، كانت شذى وايلين قد وصلتا للتو للبيت لاجل الوقوف بجانب صديقتهما معنويا حيث فتحت عليهما خالتها الباب تطلب منهما الانتظار قليلا لان ريان مع المصففة الان..

بعد ساعة اخرى كانت ريان في ابهى حلة بذلك اللباس التقليدي من نوع كاراكو ازرق نيلي مطرز بالفضة،، ترتدي مجوهرات لامعة من عقد ذهبي يزين رقبتها واقراط واساور من ذهب وفضة اضفت عليها رونقا ياسر القلوب،، كان التاج الذي فوق راسها المرصع بالعقيق والجوهر قد اجهدها من التعب ولم تعد تتحمله اكثر من ذلك اذ كادت ان تنزعه لولا مصففة الشعر التي قامت بتهدئتها،، جلست على الكرسي تاخد انفاسها ولا سيما ان الحذاء ذو الكعب العالي قد جعلها تشعر بالاعياء في انتظار فرقة العيساوة التي ستكون رفيقتها من البيت الى قاعة الحفلات، وفي تلك الاثناء دلفت عليها شذى وايلين كل واحدة منهما ترتدي لباسا تقليديا من القفطان المطرز على اخر مودة تضعان مساحيق التجميل وترتديان احذية ذات كعب عالي،، وشعر كل واحدة عليه تسريحة جميلة تناسب هذه اليوم المميز،، ما ان راتهما ريان حتى شعرت بالسرور قليلا وصارت تبوح لهما بكل ما يخالج نفسها كما انهما لم تضغطا

عليها او تحاولا مواساتها لانهما تعلمان تمام العِلم بالشيء الذي تمر به، وليس بالامر اليسير عليها ان تتقبله مع انه مر شهرين او اكثر على خطوبتها من هارون،،

بعد ساعة اخرى من الانتظار اتت اخيرا فرقة الجوق العيساوة يضربون على البندير بكل قوة ومهارة ويعزفون على الناي تحت تهاليل وزغاريد جاهدة وابنتها لينا وشذى وايلين ايضا، معبرين عن الفرح بهذه المناسبة، كان شقيقها سليم وابن خالتها محمد هما من قاما باخراجها من البيت كعادة شرقية يعملون بها وقد كان هناك حصان ابيض ايضا في انتظار العروس كي تمطتيه وتسير به الى قاعة الخفلات طوال الطريق مع صوت اطلاق البارود،، استغربت ريان كثيرا وجوده فهي لم تكن تعلم بامره وقد استفسرت عنه من اخيها سليم فاخبرها ان هارون هو صاحب الفكرة، ما زاد من استغرابها اكثر واكثر، وهو اهتمام هارون الزائد بها وصارت تتسائل حول امكانية حبه لها ام لا ؟ لكنها ايضا لم تكن في حالة تسمح لها بالتفكير في مثل هذه الامور فما يهمها هو ان يمر هذا اليوم على خير الف ما يرام وحسب ولا شيء اخر،، كان الجميع من عامة الناس ينظرون الى هذا الحفل؛ بعضهم قد توقف وصار يلتقط صورا اعجابا بالامر،، والبعض الاخر القى نظرة عابرة وواصل مسيره دون مبالغة في الاهتمام،، بعد ان وصلت الفرقة الى القاعة التي كانت تبعد البيت بضع كيلو ميترات وحسب ترّجلت ريان من على الحصان بمساعدة شقيقها حيث استقبلتها امها وفادية بحرارة وبعض من الاقارب ايضا صاروا يسيرون خلفها ويطلقون تصفيقات حارة وزغاريد تصم الآذان، حتى صاروا امام كرسي العروس اين ما ستقوم والدة العريس بوضع الحناء على يدها مع التشييد بالمهر الذي كان عبارة عن سوار ذهبي بدولارتين وعقد رقيق من الذهب ايضا، تحت غناء شرقي خاص يعبر عن تلك المناسبة، ورقص بعض المدعوين سواء من ناحية العريس ام العروس،، كانت سهام تُري فرحتها للجميع وتتصرف وكأنها سعيدة بهذا الزفاف، بالرغم من انها عكس ذلك تماما تلعن الساعة التي اخدت فيها ذلك الوعد من زوجها كي تحضر ابنة عدوتها زوجة لفلذة كبدها،، وهكذا جرت الرياح بما لا تشتهي السفن،، جميع من في الحفل اراد شيئا وتمناه لكن الواقع صدمه بما لم يكن في الحسبان..

بعد ساعات اخرى من رقص وزغاريد وتقديم الحلويات والطعام للمدعوين وانتهاء جميع المراسم،، اخيرا ارتدت ريان فستان الزفاف الابيض في شكل حرف الف بالاجنبية له فتحة عند الصّدر، باكمام طويلة من الدانتيل، تزينه بارقة احجاره الرمادية المتلألئة، ينتهي بطرحة منفوخة الى الاسفل بخيوط من فضة،، تطلق شعرها الكيرلي خلف ظهرها دون تسريحة او اي شيء اخر، فهي لم تصدق متى تنزع عنها اكسسوارات الشعر، فقط اكتفت بوضع اكليل من زهور التوليب والياسمين البيضاء كعادة جديدة لم يسبق لعروس ان قامت بها، ثم بقيت في غرفة التبديل الخاصة بها مع مصصفة الشعر التي احضرتها برفقتها في انتظار زوجها، ودقات قلبها تخفق بصورة رهيبة فها هي دقائق فقط تفصلها عن وداع اهلها اللذين عاشت معهم 21 سنة، وذهابها مع شريك حياتها ويا ليته كان كما حلمت به وتمنته، بل اخر شخص

على قلبها ستشاركه ادق تفاصيلها،، اخيرا وصل العريس الى القاعة مع بعض من اصدقائه يرتدي بدلة سوداء وصدرية بيضاء مع ربطة عنق في شكل فراشة زادته بسطة وجمالا،، اي فتاة تراه في هذه الحالة تعشقه من النظرة الاولى،، ترّجل من سيارته وهو كله هيبة ووقار يكاد يخفي توتره وخجله بشيء من البراعة قد اتقنها على مر السنين، وسار مع رفيقيه وابن عمته حيث يجلس المدعوين، ثم واصل هو بمفرده تحديدا الى غرفة التبديل الخاصة بالعروس، وهناك تفاجأ بعد ان فتح الباب بتلك الملاك التي تقف قبالته وملامح وجهها لا تبشر بالخير بالرغم من مساحيق التجميل عليها،، تقدم نحوها بخطى بطيئة وقلبه يخفق بسرعة اعجابا ولوعة بها فهي بالنهاية تشبه والدته وكلما رآها شعر نفسه وكأنه ينظر الى امه،، ازدر ريقه بصعوبة وقال لها بعد ان صار قبالتها..

- انت بالفعل عروس حقيقية بهذا الفستان

لم تفهم ريان قصده في بادي الامر، لكنها تذكرت بعدها ذلك اليوم في زفاف عمتها ليندا كما انها استغربت تذكره للامر الذي مضى عليه اكثر من خمسة سنوات،،، اجابته والتوتر مسيطر على صوتها ..

- كذلك انت تبدو عريس حقيقي بهذه البدلة

ابتسم ناحيتها بلطف وامسكها من يدها بحنان يجرها ببطئ الى الخارج مودعين الجميع من الاقارب تحت وابل من التصفيقات الحارة من الطرفين حيث سيارته مركونة عند الرصيف المقابل للبحر،، كانت السماء قد تلّبدت بالغيوم معلنة دخول فصل الخريف المتقلب الاحوال، حيث تغير الحال فجاة دون سابق انذار وضربت خيوط البرق عنان السماء مُرفقة باصوات الرعد التي خلفت وراءها دويا مرعبا جعل قلبها الصغير ينتفض مكانه من شدة الهلع اضافة الى الذي تعاني منه،، كانت تراقب هطول الامطار من نافذة سيارة البولو السوداء وعيناها الزمردية على وشك ان تترقرق بالدموع بسبب الوضع الذي أُجبرت عليه وبالرغم من انها كانت تعلم انه واقع لا محالة،، تمنت تلك اللحظة ان تختفي عن هذا العالم والى الابد كي تختفي معها آلاماها واحزانها التي حلقت فوقها منذ ذلك اليوم المشؤوم ولم تنفك عنها ابدا،،، كانت سارحة بافكارها حتى اتاها صوته الغليظ الرجولي قائلا لها :

- اراك تبدين مستاءة ؟ ا هناك ما يُزعجك ؟

اطلقت ابتسامة ساخرة حول كلامه وكأنه يجهل سبب حزنها، وقالت وهي ترمقه بنظرات نارية بامكانها احراق قارة باكملها :

- ا وتجهل الامر حتى تستفسر عنه ؟

تنهد هو بضيق واشاح بنظراته عنها نحو الطريق لا يجد ما يقوله لها، فبالنهاية هي محقة في كلامها،، وهذا امر مفروغ منه؛ ولكن حدث ما حدث الان ولا يمكن تغيير الماضي،، كان يعتقد انها ستعتاد مثلها مثل اي فتاة جمعها القدر بمن لا ترغب به، فقد صادف حالات كثيرة شبيهة بحالتها وانتهت على خير ما يرام وهي كذلك ستتقبل الوضع في النهاية فلا يوجد امامها خيار اخر،، اطلق تنهيدة عميقة واردف محاولا تلطيف الجو المكهرب :

- اسمعيني يا ريان، انا اتفهم شعورك هذا فقد مرت علي حالات كثيرة كهذه لكنها ليست نهاية العالم عزيزتي،، حاولي ان تتقبلي الامر كما سافعل انا والا ستسوء الامور وحسب

بقيت صامتة ولم تنبس ببنت شفة تغوص بافكارها في عالمها الوردي الذي وجدته الوحيد من فتح احضانه لها على عكس الجميع،، لم تشأ ان تدخل في نقاشات معه فهو لن يفهمها ابدا وان كان امهر طبيب نفساني عرفته المدينة برُمتها ولن تستفيد شيئا من البوح له عن ما يخالج نفسها فقد صارت زوجته وانتهى الامر.

وصلا اخير الى البيت القابع في حي الزعفرانية بعد ان رفضت ريان وبشدة قضاء الليلة في الفندق، فهي ليست في مزاج جيد يسمح لها بفعل ذلك، وقد بقيت مصممة في قرارها بالرغم من اصرار امها وشقيقتها الكبرى، ولأن هارون يعلم بظروفها وافق على الامر دون اي اعتراض متفهما الوضع الذي تمر به،، كانت الامطار قد توقفت عن النزول آنذاك لكن اصوات الرعد ما زالت تضرب الوسط بكل عنفوانية، ترجّل الاثنان من السيارة وسارا سويا ناحية البيت تحت ظُلمات الليل الذي يسوده السكون باطياف يكسوها الاسود تتارجح عن اليمين تارة وعن الشمال تارة اخرى،، كانت ريان تجد صعوبة في المشي بذلك الكعب العالي والفستان الابيض الذي تحلم بارتدائه كل فتاة في ربيع عمرها مقبلة على الزواج، وقد كادت ان تتعثر في حفرة صغيرة وتسقط ارضا لولا خفة هارون وحركته السريعة في الامساك بها من مرفقها، شعر كل منهما لحظتها بكهرباء سرت في انحاء جسديهما وصار قلب ريان يخفق بصورة رهيبة لا تدري ان كان بسبب التوتر ام بسبب الاحراج ام بسبب شيء اخر هي تجهله،، بعد ان اجتازا الحديقة الامامية للمنزل صعدا الدرج حيث منزل هارون والبرد قد نالا منهما هما الاثنان،، ادار هارون المفتاح ثلاثة مرات جهة اليسار وفتح الباب يطلب من عروسته ان تتفضل الى بيتها الذي تراه هي سجن ليس الا اتت اليه رغما عن انفها، كان المكان مظلم جدا قبل ان يشغل هارون الانوار وهادئ من اي حركة، حيث اثار ديكوره التركي انتباه ريان فهي تعشق هذا النوع من التصاميم،، سارت ببطئ ناحية غرفة النوم التي صادفتها في طريقها بعد ان نزعت حذائها ذا الكعب العالي وارتمت فوق السرير بعشوائية تشعر بتعب شديد،، تنظر في الفراغ الذي كان يحاوطها من كل حدب وصوب،، اما هارون فقد توجه الى غرفة المعيشة وجلس على الاريكة يقوم برخف ربطة عنقه ويفكر في نفس الوقت عن ما سيحدث الان ؟؟ من جهة هو وعدها انه لن يلمسها الا بموافقتها ومن جهة

اخرى امه تصر على الامر واكدت عليه ذلك، كما انها اخدت منه وعدا ايضا ان يسلمها ذلك المنديل الاحمر كعادة شرقية قديمة ما زالت العائلة محافظة عليها،، اطلق زفيرا حادا ينم عن الضيق الذي سيطر على وجدانه وراح يمسح حبات العرق عن جبينه ممررا انامله على وجهه.. مضت نصف ساعة وهو على حاله حتى رن هاتفه الجوال حيث اجاب على الخط بعد ان لمح اسم والدته على الشاشة...

نعم امي ماذا هناك ايضا ؟

- هارون لا تنسى ما تكلمنا فيه ؟؟ غدا اريد ذلك الشيء بين يدي

- لما انت مصرة ؟؟ ا لا تعلمين ان هذه الامور قد اندثرت وصارت نسيا منسيا ؟

- هل تنوي ان تُخالف عاداتنا وعادات اسلافنا ؟ ام انك خائف على مشاعر حبيبة قلبك تلك ؟

- ولكن يا امي ...

لم تدعه سهام يُنهي كلامه واغلقت الهاتف في وجهه تاركةً اياه وسط متاهة عتماء يبحث عن ثغرة للنجاة،، فهو الذي لطالما اوجد الحلول لمشاكل الناس اللذين يقصدونه من كل فجٍ عميق، عاجز الان تمام العجز عن ايجاد حل للمصيبة التي هلّت عليه، وقف مكانه وسار ناحية غرفة النوم وقلبه يخفق بصورة رهيبة غير معتاد على هذه الاجواء، اختفت هيبته ووقاره واختفى هدوئه وثباته وهو الان مقبل على اصعب امتحان، ادار مقبض الباب ودلف الى الداخل ببطئ ليتفجأ بتلك الملاك التي تنام ببراءة بفستانها الابيض وكأنها عذراء الغابة الخضراء،،، تقدم ناحيتها وصار يتفحص باقي تفاصيل وجهها التي اخدته شغفا منذ اول مرة رآها فيها؛ وخصوصا الان وهي تضع مساحيق التجميل لكن بصورة بسيطة من احمر الشفاه والكحل وغيرها من المساحيق الاخرى الذي يجهلها هو،، اقترب منها وكاد ان يلتهم تلك الكرزتين على غفلةٍ منها لكنه سرعان ما ابتعد عنها عندما باغتته بحركة خاطفة وهي تفتح عينيها تنتفض مكانها من رؤيتها له،، قالت بنبرة متقطعة وقلبها يرتعش من الهلع :

- ماذا هناك ؟ ماذا تفعل هنا وفوق راسي ؟

- اهدئي لا تخافي ...

كان يريد ان يقترب منها ويحاول معها بروية لعلها تستسلم له، لكنها فاجأته بالعكس وصارت تصرخ عليه ان يخرج من الغرفة وفورا فقد سبق وان وعدها بانه لن يمس شعرةً منها دون اذن منها، سكتت قليلا تلتقط انفاسها بعدها واصلت كلامها وهو يقف قبالتها مدهوشا من ردة فعلها التي وجدها مبالغا فيها، كما انه لم ينبس ببنت شفة ...

- اياك ثم اياك يا هارون ان تفكر مجرد تفكير ان تفعلها لقد وعدتني من قبل ولا يمكنك ان تخلف بوعدك فهذا ليس من شيم الرجال ابدا

هي دائما تنجح في استفزازه ولا تدري انها بهذا قد فتحت على نفسها باب جهنم وبئس المصير، من جهة ثقتها الزائدة بذاتها ومن جهة ثانية والدته واصرارها على ذلك الشيء، كل هذا وذاك كان يضغط على هارون كثيرا، لقد حاول ان يتفهمها دائما ويتفهم انها تزوجته رغما عنها لكن هذا لا يعطيها الدافع ان ترفضه بهذا الشكل وهو زوجها وحلالها، تبدّدت ملامحه واختفت تلك الحنية من على وجهه وصارت عيناه السماوية تقدح شرارة جرّاء كل شيء، وامسك ريان من مرفقها بكل قوة لا يآبه بصرخاتها الموجعة وهي ترجوه ان يتوقف، القاها بعنفوانية فوق السرير ونزع ربطة عنقه وقلبه يتطاير داخل قفصه الصدري، اخذ يقبلها بغضب وقد اعمى الحقد بصيرته وجعله لا يُدرك الامر الذي هو بصدد القيام به، صار يمرر يداه على انحاء جسدها وهي تحاول باعتراض بكل ما اوتيت من قوة لكن ماذا ستفعل قطة وديعة بين احضان ذئب شرس قد تم استفزازه بطريقة قاسية، كانت ريان تصرخ وبشدة وتتوسله ان يتوقف دون المساس بها وبهذه الطريقة المؤلمة لكنه لم يكن ينصاع لها ابدا،، لقد دفعت به الى فرض نفسه عليها، ولكن بالحلال وتحت سقف واحد.

***

فتح هارون عينيه بصعوبة بعد ان ازعجته اشعة الشمس التي ارسلت بخيوطها تتسلل خيفة عبر زجاج نافذة غرفته لتداعب رموشه السوداء شديدة الكثافة،، اراد ان يتحرك قليلا لكن هناك ما اعاق حركته حيث انتبه مع وجود شخص اخر يشاركه سريره بعد ان اعتاد النوم بمفرده،، التفت ناحية اليمين وصار يتفحص ملامح زوجته وهي تنام بوداعة في حضنه،

تُمسك باللِّحاف بكلتا يديها وتلفه على جسدها كي تستر ما وُوري عنها،، بقي هارون شارد الذهن في تفاصيل وجهها البريئة التي اخدته عشقا منذ ان راها اول مرة بعد ان كاد يدعسها بسيارته،، اراد ان يداعب انفها الصغير قليلا لكنه تراجع في اخر لحظة عندما تذكر ما فعله بها ليلة امس، وكيف سلب منها اهم ما تملكه بطريقة وحشية ودون ان يرحمها او يبالي بصرخاتها الموجعة،، شعر بالضّيق من نفسه وصار يؤنب ذاته فهو لم يسبق له ان تعرض لاي مخلوق على هذه الكرة الارضية، ابعد عنه اللِّحاف بعنفوانية ثم ترجل عن سريره يقصد الحمام وعقله لا ينفك التفكير بالامر، يجهل كيف سيواجهها من الان وصاعدا،،، في تلك الاثناء فتحت ريان عينيها على صوت الباب وهو يُغلق وصارت تُعيد ترتيب الاحداث التي جرت معها ليلة الامس تُمسك براسها الذي نال الصداع منه، حتى تذكرت ما حصل حيث دخلت في نوبة بكاء هستيري لا تصدق انها بالفعل قد عاشت ما عاشته،، توقفت للحظة ما ان سمعت وقع خطواته قادم الى الغرفة فتظاهرت بالنوم كي تتحاشى النظر اليه او حتى الحديث معه،، اما هو فقد ادرك من خلال اصوات تنفسها المضطربة انها مستيقظة،، تردد قليلا بين نفسه ثم اخد له شهيقا وزفيرا عدة مرات بعدها اقترب منها وصار يخاطبها بهدوء...

- اعلم انك مستيقظة لا داعي ان تتظاهري بعكس ذلك

لم يتلقى منها اي جواب بل استمرت في تمثيلها على انها نائمة،، اما هو فقد واصل حديثه...

- اسمعيني جيدا انا اعتذر بالفعل عما حدث ليلة امس، لقد فقدت السيطرة على نفسي لاسباب عدة،،، اعلم انك لن تسامحيني مهما قلت لكن صدقيني انني نادم عما جرى واعدك انه لن يتكرر هذا الفعل

تلك اللحظة فتحت ريان عينيها بكل غضب وقالت وصوتها علا زيادة عن اللزوم....

- قلت تعدني ؟؟ هل حقا تفي بوعودك ؟؟ ... واضح جدا انك لا تخلف بها

- فقط انصتي لي ...

وضعت يداها على مسامع اذنيها تمنع عنها صوته المقرف بالنسبة لها وقالت بصراخ :

- لا اريد ان اسمع منك اي شيء، فقط اذهب عني ولا تريني وجهك ثانية ايها الحقير الوغد،، انا لن اغفر لك على ما فعلته بي ايها السّافل

لم يتحمل هارون تلك الشتائم الموجهة نحوه فحمل نفسه بسرعة وغادر المنزل يلعن نفسه والساعة التي اخلف فيها بوعده ولمسها فيها،، لقد وعدها بالفعل انه لن يقترب منها الا برضاها اذا لماذا فعلها معها ؟؟ ا لهذه الدرجة احبها ورغب بها ؟ ا لهذه الدرجة لا يحتمل امساك نفسه عنها وهما تحت سقف واحد ؟ ام ان والدته السبب بكل ما جرى ولو لم تلح في

طلبها عليه لما آلت الامور نحو منحى سيء ؟ كل هذا وذاك كان يدور في مخيلة راس هارون الذي شعر ان الدنيا صارت تدور من تحته، ولم يجد الا عمله المهرب الوحيد من كل ما يعايشه بالرغم من انه عريس جديد ويُفترض به انه يستعد لقضاء رحلة ممتعة في شهر العسل،،، في تلك الاثناء التي غادر فيها هارون البيت اغتمنت ريان الفرصة وركضت الى الحمام تلف جسدها بنفس اللحاف الذي استعملته ليلة الامس، كي تُنعش نفسها بمائه الساخن وتُزيل عنها اثار ذلك الذئب الذي فتك بها،، بقيت على حالها دقائق وهي كالتمثال لا حراك؛ فقط لا تتمنى شيئا سوى ان تغادر روحها بعيدا فهي لم تعد تحتمل اكثر... صارت تبكي بشراهة وباعلى صوت لا تآبه بمن يقطن تحتها ويستمع لانينها، تريد ان ترتاح من كل الاعباء والبكاء هو الشيء الوحيد الذي بقي لها، لم تنتبه مع صوت فتح الباب اذ اتضح ان هارون قد نسي شيئا ما وعاد الى المنزل لاجله وهناك لفت انتباهه صوت ريان قادم من الحمام وهي تئن وتبكي،، امسك بقلبه الذي صار يخفق خوفا عليها وتقدم ناحية الباب يطرق بخفوت يسألها ان كانت بخير ام لا،، ام هي فور ان سمعت صوته صرخت عليه مجددا :

- ا لا تفهم انت ؟ لقد قلت لك لا اريد رؤية وجهك المقرف لما لا تدعني وشأني ؟؟

بلغ السيل الزبى مع هارون ولم يعد يحتمل نهفاتها الصيبيانية بالرغم من انه يراها محقة بعض الشيء، ولكن لا يعطيها ان تتمادى اكثر واكثر،، اخد نفسا عميقا ثم اجاب بهدوء :

- لقد وصل الغضب معي الى ذروته، ان لم تتخلي عن عنادك هذا الذي لا معنى له فسيكون لي تصرف ثاني معك

توجه بعدها الى غرفة نومه واخد صندوق خشبي صغير حمله بين يديه يغادر البيت الى منزل والدته كي يعطيها ما الّحت على حصوله،،، بعد طرقات عدة على الباب فتحت عليه وهي تتاؤب بسبب الاعياء من حفلة الزفاف الذي ما زال مسيطرا عليها واخدت عنه ذلك الشيء دون ان ياخد معها في الكلام، اساسا هي تعلم ما جرى وقد اصرت على ذلك المنديل فقط مكرا تجاه ريان لعلمها المطلق كرهها لهارون،، اغلقت الباب وهي تبتسم بخبث تتجه ناحية المطبخ وهناك صادفت امها تاخد لها كاسا من الماء، قالت لها بفزع ..

- امي ا هذه انت ؟ متى استيقظتِ

- هل انت سعيدة يا سهام ؟

اجابتها الاخرى بعدم فهم ..

- ما هو قصدك ؟

- تعلمين جيدا ما ارمي اليه،،، لقد حذرتك من طلب هذا الامر من هارون وتلك الجلطة اصابتني جرّاء هذا الامر لكن انت لن تتغيري ابدا

- ما الذي يحدث معك يا امي ؟ على اساس كنت تكرهين فاطمة واولادها ولا تطيقينهم ؟ ما الذي تغير فجاة ؟

- انا لم اكره احفادي ابدا،، صحيح لم احب تلك المراة لاختلاف عقليتها عنا، لكن لم أُكِن الحقد لاولادها فهم بالنهاية اولاد كمال ايضا،، فقط لم اكن اظهر الامر وحتى ابنك هارون يعلم بهذا،، اسمعيني جيدا لقد خالفتني هذه المرة وفعلتها مع ريان لكنها ستكون الاخيرة؛ ان سمعت انك ضايقتها بشيء من الان وصاعدا فانني لن ارحمك،، مثلما الاء وهارون وعبد الصمد احفادي فاولاد كمال احفادي ايضا، هل هذا مفهوم ؟؟

- حسنا امي مفهوم.

***

فتح هارون باب المكتب باحباط شديد تحلق فوق راسه طيور الحزن لا تنفك عنه منذ هذا الصباح،، فتح النافذة على مصرعيها وراح يجول بناظريه نحو الشارع الذي يشهد حالة من الصخب من طرف المارة والباعة يعرضون سلعهم في ابتهاج عربي سخي يبعث البهجة على النفس،، اخرج سيجارة من جيب جاكيته مُرفقةً بقداحة فضية لها قيمة معنوية بالنسبة له، فهي تعود الى والده رحمه الله، واخذ يسحب كميات كبيرة من الكوكايين ويقوم باخراجها بكل غضب لتتصاعد فوقه حلقات حلقات، يحاول ايجاد حل للمشكلة التي فعلها بيديه،، انتفض تلك اللحظة على صوت انثوي من خلفه تطرق عليه الباب وتلقي تحية الصباح بنوع من الرهبة والتردد، اشّر لها هارون بمرفقه ان تتفضل وتجلس فوق الكرسي اما هو فقد عاد

مكانه يضع بقايا سيجارته على زبدية مزركشة بالورود،، تنحنح بخفوت وبادر هو اولا بالحديث كعادته عندما يصادف حالات مستعصية..

- اذا هذه اول مرة تأتين الى هنا ؟

- اجل حضرة الطبيب

وضع هارون نظاراته الطبية وحمل مدونته الجلدية وقلمه الاسود الجاف ثم واصل كلامه...

- اسمك لو سمحتِ

- هيفاء ابراهيمي

- حسنا ما الذي جعلك تلجئين لطبيب نفسي ؟

- اعاني من مرض خطير، وقد سمعت عن مهاراتك من طرف الجميع لهذا قلت اجرب حظي

- اممم مثير للاهتمام،، حسنا وما هو مرضك المستعصي هذا ؟

- الشيزوفرينيا !!

وضع هارون قلمه فوق طاولة المكتب ونزع نظاراته الطبية باهتمام مردفا نحوها..

- تقصدين ازدواجية في الشخصية ؟

- اجل !!

- وكيف علمت انك تعانين من هذا المرض ؟ ... اقصد ما هي الاعراض التي جعلتك تظنين هذا ؟

سكتت الفتاة قليلا تلتقط انفاسها التي استهلكتها في الحديث مع هارون ثم تريثت بعض الشيء واجابته :

- لا ادري كيف اصف لك شعوري الذي بالاساس لا اعلم كيف اصفه لحالي انا.. مرات تعتريني رغبة شديدة في القيام بشيء ما، نزهة على شاطئ البحر او تسوق مع احد الصديقات،، مراجعة بعض الدروس بحماس وغيرها من النشاطات، لكن فجاة و دون سابق انذار تختفي تلك العزيمة وذلك البريق المتوهج، لانزوي داخل غرفتي المظلمة لا ارغب في القيام باي شيء،، وبصراحة يا حضرة الطبيب بت اسأم هذا الوضع وبات يُقلقني ايضا

كان هارون يستمع لمريضته بكل جوارحه بالرغم من ان تفكيره بريان كان يتسلل داخل عقله بين الفينة والاخرى،، الا انه ما زال محافظا على رباطة جأشه امامها،، تنحنح قليلا ثم قال لها :

- ا هناك سبب يجعلك تنغلقين على نفسك ام لا ؟

- لا .. لا يوجد سبب،، يعني حتى لو هناك لا اعتقد انه كفيل بحبسي داخل غرفتي، لا ادري لما افقد حماسي فجاة وينزل مستوى معدل طاقتي صدقني لا ادري

تنهد هارون وكأنه قد بدأ يربط الخيوط ببعضها وقال بثقة :

- اسمعيني يا انسة هيفاء حسب ما ذكرته لي الان فانت لا تعانين من مرض الشيزوفرينيا، بل هو اضطراب ثنائي القطب وهو مرض نفسي يشعر صاحبه ببعض التناقضات وحالة مزاجية مفرطة

- لم افهم كلامك ؟؟ هل هو خطير ؟

وقبل ان يجيبها رن هاتفه الجوال الموجود في جيب جاكيته، حيث حمله بين يديه ليتفاجأ باسم زوجة خاله على الشاشة،، بسرعة استأذن من مريضته واجاب على الخط بتوتر..

- آلو !!

- صباح الخير يا هارون، ارجو ان لا اكون قد ازعجتك

- لا يا خالتي لا يوجد ازعاج ؟ تفضلي

- بصراحة اتصلت على ريان مرات عدة لكنها لم تجب على مكالماتي، فانتابني القلق، هل هي بجانبك ؟

تصاعدت الدماء في وجهه ولم يدري ما يجيب به زوجة خاله بخصوص ابنتها، ولا سيما بعدما تذكر ما حدث ليلة الامس،، تنفس بعمق واغمض عينيه باسى ثم اردف :

- لا، ليست بجانبي لقد خرجت للتو لاقتني بعض الحاجيات.. لا تخافي على ريان هي بخير وقد تركتها استيقظت من نومها، ربما لم تسمع صوت هاتفها وحسب

- حسنا بني لقد طمأنتني عندما تعود للبيت سلم عليها وارجوك ان تنتبه لها هي امانة عندك الان

- لا تقلقي خالتي فاطمة ساضعها بين عيناي

اغلق المكالمة وراح يفكر بخصوص ان كان هناك مكروه حدث لها حتى لا تجيب على اتصالات امها،، تذكر لحظتها تلك اللوحة التي رسمتها عندما ذهب اليهم ذلك اليوم وقد بدأ قلبه عندها يخفق بصورة رهيبة، ان كان ما يفكر فيه الان هو نفسه ما قامت بفعله تلك العنيدة،، بسرعة اعتذر من مريضته هيفاء واغلق عيادته يسابق الريح الى المنزل يدعو الله في سره ان لا تتهور وتفعل شيئا بنفسها، فعندها لن يسامح نفسه ابدا،، كان يدعس على الفرامل بقوة كبيرة لدرجة انه كاد يدعس كلبا ضالا مرة وامراة حامل مرة اخرى،، يضرب المقود مرات وينطق بالفاظ بديئة سوقية مراتٍ اخرى،، حتى صار على اعتاب البيت حيث صوت احتكاك العجلات بالارض احدث صريرا مزعجا جدا لفت انتباه تلك العجوز التي كانت تمر من الحي،، ترّجل من سيارته واخرج مفاتيحه يصعد السلالم في عجل ودقات قلبه تكاد تخترق جدار قفصه الصدري،، دلف الى الداخل ينادي عليها : رياااان ... رياااان ... رياااااان اين انت ؟؟ ... بحث عنها في غرفة النوم وغرفة المعيشة دون فائدة،، حتى في الغرفة الاخرى التي تطل على الصالون غير موجودة وفي الحمام والمرحاض ايضا،، جن جنونه لحظتها وركل الكرسي امامه بكل غضب يتسائل عن اختفائها في اول يوم بعد زفافها،، حتى انتبه الى الستائر وهي تتطاير عند الشرفة، سار بخطى بطيئة صوب المكان ليتفاجأ بها ملقاة على الارض جثة هامدة وعلب الادوية مرمية بعشوائية امامها، فتح عينيه في ذهول لا يصدق ما يراه امام عينيه، ودنى منها يحاول افاقتها بشتى الطرق : ريان ... رياااان هيا افيقي ارجوك لا تفعلي هذا بي، اعدك انني لن افعلها مجددا ولن اقترب منك، فقط افتحي عينيك ولا تحرميني منك ارجوووووك يا رياااان... كان يبكي بشراهة عليها لا يستوعب انها فعلتها وقتلت نفسها وحرمته منها بعد ان تعلق بها وبملامح وجهها البريئة،، بعنادها وبتصرفاتها الصبيبيانية وباحلامها ايضا ومعتقداتها التي يراها هو مجرد تطّير، اقترب منها وامسك بمعصم يدها يرى ان كان هناك نبض ام لا، فعاد له الامل محلقا فوق راسه بعد ان تاكد انها لا زالت على قيد الحياة،، بسرعة حملها بين دراعيه وركض بها الى اقرب مستشفى، حيث فور وصوله استقبله الطاقم الطبي المكون من ممرضتين وطبيبة جراحة يجرون المريضة الى غرفة العمليات.. تاركين هارون في حالة يُرثى لها خوفا ان يحدث لها مكروها، عندها لن يسلم من السنة اهلها خصوصا والدتها التي اوصته عليها،، جلس على الكرسي في الرواق شارد الذهن ينظر في الفراغ لا يصدق متى تنتهي هذه العملية،، وبعد ساعة من الانتظار فُتح الباب واخيرا وخرجت الطبيبة التي ما ان راها هارون حتى هرع اليها يسألها عن حالة زوجته، فتجمد الدم في عروقه ما ان راى وجهها بعد ان نزعت الكمامة عنه،، بلع ريقه بصعوبة وقال بتعلثم :

ـ ا هذه انت يا منال ؟؟!

كانت الاخيرة ترمقه بنظرات حقد وغضب لا تتمكن من امساك حالها ابدا عليه بسبب ما فعله مع شقيقة خطيبها ولا سيما عندما لمحت اثار اعتداء على جسدها،، هذا غير محاولة الانتحار جرّاء اسباب هي تجهلها،، قالت له :

- لن اسالك عن اثار الاعتداء تلك يا سيد زعيم كونك زوجها، وساغض الطرف ايضا عن الاسباب التي اودت بها الى الانتحار والتخلي عن حياتها وهي شابة في ربيع عمرها،، لكن قل لي سبب واحد يدفعك لفعل هذا بها ؟

احنى راسه من شدة الخجل لا يدري ماذا يجيبها وهو نفسه لا يعلم سبب فعلته الشنيعة تجاه زوجته،، سكت قليلا ثم اردف :

- هل هي بخير حضرة الطبيبة ؟

- تتهرب من الاسئلة اذا ؟

- ارجوك هذه مسالة شخصية واعدك انها لن تتكر ثانية يا منال، فقط اخبريني هل ريان بخير ؟

- اجل،، لقد اسعفتها في الوقت،، اجرينا لها غسيل معدة وقمنا باخراج كميات الادوية التي تعاطتها، وحالتها الان مستقرة

- ومتى يمكن ان اراها ؟

- حالما تستيقظ فهي الان تحت تاثير المخدر

- منال ارجوك فليبقى الامر بيننا،، لا تخبري اي احد عنه وخصوصا سليم

تنهدت منال باسى وقالت :

- حسنا يا هارون ساغض الطرف هذه المرة، لكن فليكن بعلمك انها الاولى والاخيرة اذا تكرر الامر فلن اسكت لك

- لا تقلقي وشكرا لك

- العفو

***

فتحت ريان عينيها ببطئ تشعر بثقل شديد في راسها وشتى اطراف جسدها بسبب المخدر،، كانت اصوات الاجهزة الموصولة بها قد لفتت انتباهها وصارت تتفحص المكان الذي هي فيه، حتى جال في خاطرها كمية الادوية التي ابتلعتها هذا الصباح بعد خروجها من الحمام مباشرة،، ادركت عندها انها لم تمت وما راته قبل قليل كان مجرد حلم وحسب، وهي لا زالت تتنفس بالرغم من انها تمنت حدوث عكس ذلك،، لم تلبث مكانها كثيرا حتى دلفت عليها الطبيبة المسؤولة عنها مع احد الممرضات تسألها عن حالها بنوع من اللطافة والرقة،، اما ريان فما ان راتها حتى خفق قلبها بسرعة خوفا من ان تخبر شقيقها وعائلتها بما حدث فهي لم تحسب حساب نجاتها... قالت بتعلثم :

- منال ارجوك لا تخبري سليم والبقية

- اطمئني عزيزتي سيبقى الامر سرا بيننا لقد سبق ووعدت زوجك بالامر

ما ان سمعت ريان تلك الكلمة حتى تملكها احساس غريب لا تدري كينونته، وقد عبرت لحظتها عن غضبها الشديد منه بعد ان تذكرت ما فعله بها واجابت منال قائلة :

- هل هو من احضرني الى هنا

- اجل... اجابتها وهي تجلس بجانب سريرها تقوم بفحص روتيني لها ما بعد العملية

- وهل ما زال ينتظر في الخارج ؟

- لا يصدق متى تستيقظي وتفتحي عينيك

ابتسمت بسخرية على كلامها لجهلها بعض الامر واردفت نحوها :

- فعلا لا يصدق !!

شعرت منال بشيء من الريبة ينبع من لسانها وقد ادركت ما ترمي اليه حيث امسكتها من يديها بحنان وقالت :

- اسمعيني يا ريان لا ادري ما حدث بينك وبينه، لكن اثار الاعتداء على جسدك واضحة جدا هذا ان لم ننسى امر الانتحار،، ولهذا ساسالك بكل وضوح ؟ .. هل فرض نفسه عليك بالاجبار ؟؟

لم تكن ريان ترغب بالحديث مع اي كان، كما انها لم تكن في حالٍ يسمح لها باخبار خطيبة شقيقها بما جرى حتى لا تُحدث غلبة في الوسط،، تنهدت بعمق تُغمض عينيها المتعبتين وقالت بهدوء :

- ارجوك يا منال لا اريد الحديث عن الموضوع

- حسنا عزيزتي انا لن اضغط عليك

- لا اريد لاحد ان يعلم بالامر اذا سمحتِ

- لا تقلقي من هذه الناحية وارتاحي الان

وفي تلك الاثناء طرق الباب ودلف هارون بخطى مثتاقلة والتوتر هو سيد الموقف، تنحنح بخفوت يتحاشى النظر الى ريان التي كانت شاردة الذهن وطلب من منال ان تتركهما بمفردهما،، حيث اومات له براسها بالايجاب واخدت معها الممرضة تؤكد على هارون ان لا يتجاوز خمس دقائق كي لا يتعب المريضة، بعد ان صارا لوحدهما تقدم ناحيتها وجلس على كرسي خشبي قبالتها ثم قال لها بحرج :

- هل انت بخير ؟

- ما رايك انت ؟ ... اجابته وهي تنظر الى سقف الغرفة سارحة بافكارها وكأنها في عالم اخر

- انا اسف كل هذا حدث بسببي

بقيت صامتة ولم تجبه، اما هو فقد اغمض عينيه يعيد ترتيب الاحداث بالم، نادم جدا على ما ارتكبه بحقها، لكنه لم يرد ان يظهر ضعيفا امامها ايضا ويجعلها تظن انها الضحية وحسب والطرف المظلوم من القصة،، اجابها بهدوء :

- اسمعيني انا اعلم ان كل ما عشته كان قاسيا عليك .. زواجك الاجباري مني وما حدث ليلة امس ايضا، لكن انا كذلك ضحية مثلك لاشياء انت تجهلينها،، لا تنظري للامور من زاوية واحدة يا ريان فانا ايضا مظلوم مثلك

- لماذا انقذتني ؟ لقد كنت اود الموت كثيرا كي ارتاح من هذه الاعباء ! لماذا انقذت حياتي ؟؟

كانت تتكلم معه وفي صوتها نبرة ضعف واسى تنظر داخل عينيه السماوية غير مكترثة لما سيحل به بعد سماعه لهذه الكلمات،، تفاجأ جدا من حديثها ولم يتوقعه ابدا ولم يجد ما يقوله ايضا،، زفر بحنق ثم قال :

- ما هذا الذي تقولينه هل جننت ؟؟ ا لهذه الدرجة تريدين التخلي عن حياتك

- الحياة هي التي تخلت عني وليس انا

ادرك هارون انها دخلت في نوبة اكتئاب حاد ولم يعد هناك حل سوى ان تتم معالجتها من طرف اخصائي نفساني وقد خطرت في باله فكرة عندها قرر العمل بها صبيحة يوم غد.

في صباح اليوم الموالي استيقظ هارون في تمام الساعة السادسة والنصف بعد رنين المنبه الذي ازعجه حتى في منامه،، ترجل عن الكنبة الذي نام عليها ليلة الامس تاركا المساحة لزوجته في غرفته فقد عزم هذه المرة انه لن يقترب منها الا بموافقتها ورضاها،، قصد الحمام اول شيء كي يتوضأ لقضاء فريضة الصبح ثم توجه الى ريان التي كانت تنام بوداعة على سريره تحتضن وسادته المفضلة؛ وترتسم على شفتيها القرمزية اعذب ابتسامة بريئة،، بقي برهة زمنية يتفحص ملامحها بكل حب وحنان حتى انتبه مع نفسه واعاد رباطة جأشه يقوم بافاقتها بهدوء،،، ثواني معدودة وفتحت عينيها ببطء تنظر من حولها وتحاول استيعاب الامور فقد ما زال النعاس مسيطرا عليها، حتى ادركت انها في البيت الان والذي يقف قبالتها هو زوجها، فركت عينيها تزيل النوم عنها وقالت بتساؤل :

- ماذا تريد من عند هذا الصباح الباكر ؟

- جهزي نفسك بسرعة سنذهب الى مكان ما ؟

ازداد تساؤلها وعلت الدهشة ملامحها واجابته بعدها باستغراب :

- اي مكان هذا سنذهب اليه ؟

- لا تطرحي اسئلة الان،، ستعرفين كل شيء في وقته

تزّجلت عن سريرها بصعوبة بسبب التعب من يوم امس،، وقصدت الحمام كي تنعش نفسها قليلا بعدها ارتدت ثيابها وتوجهت الى المطبخ لتتفاجأ بزوجها قد اعد لها افطارا شهيا،، جلست غلى الكرسي قبالته وقالت :

- وما هذا الان ؟

اجابها بابتسامة عفوية يمد يده نحو ابريق العصير

- فطور الصباح !!

- هارون الى اين تريد الوصول بهذه الحركات ؟

- الى حتى مكان، ا هناك مانع في إعدادي لفطور كهذا ؟

صارت ريان تنظر الى الطماطم المقطعة دوائر عليها قليل من زيت الزيتون والجبن الطري الابيض الموضوع فوق بعضه البعض بطريقة تسر الناظرين،، حتى البيض المسلوق موجود ايضا مرفوقا بالزيتون الاسود والقشدة الشهية، ابتسمت بسخرية لرؤيتها لكل هذا وذاك وقالت :

- ا ترانا في وضع يسمح لنا بتناول فطور كهذا ؟

اجابها الاخر ياخد له حبات من الزيتون ..

- علينا ان نتاقلم فقط وسيتحسن كل شيء

-قلت نتاقلم ؟

- هيا يا ريان استعجلي في الاكل علينا ان نلحق على العمل

- صحة وعافية انا لا رغبة لي في الاكل

اخد هارون قطعة من الجبن يقوم بوضعها على خبز التوست مع قطعة من الطماطم ثم اردف نحوها :

- على راحتك عزيزتي

استغربت ريان بروده هذا من عند هذا الصباح وكأن شيئا لم يحدث لا امس ولا قبله، وبقيت تتسائل حول هذا التغيير اذ بدا لها انه يتصرف بلا مبالاة متناسيا ما مرت به هي، هل يعقل انه يريد فرض الواقع عليها وجعلها تتقبله ان شئت ذلك ام ابته ؟؟ ولما لا فقد باتت تتوقع منه اي شيء الان،،، بعد ان انهى هارون فطوره حمل اشيائه وخرجا من البيت سويا يقصدان العيادة،،، وطوال الطريق لم يتفوه احدهما باي حرف كل منهما شارد الذهن في عالم اخر لا يربط احدهما باي طرف حتى وصلا الى الوجهة المنشودة حيث استغربت ريان الامر وقالت تنظر ناحية زوجها :

- لماذا اتينا الى هنا ؟

- ستعلمين الان هيا انزلي من السيارة

بعد ان وصلا الى الطابق المرجو وجداه مفتوحا كالعادة عندما تكون حسناء في المكتب فقد اتصل عليها ليلة امس واخبرها ان تبدا بمزاولة عملها كما انه طلب منها تقييد المواعيد الى ما بعد الحادي عشرة صباحا،، تذكر هارون انه نسي هاتفه في السيارة فامر ريان ان تسبقه الى قاعة الانتظار ريثما يحضر هاتفه ويخرط عليها اما هي فقد دلفت الى الداخل والفضول ينهش تفكيرها حول احضار هارون لها الى مكان عيادته وقد تفاجأت اكثر عندما لمحت

حسناء الشخص الذي تكرهه يجلس على الكرسي في قاعة الانتظار حيث قالت لها بنبرة انزعاج :

- ا هذه انت !!

رمقتها الاخرى بحقد واجابتها بخبث :

- اجل عزيزتي انا اعمل عند زوجك منذ اكثر من ستة اشهر

- مثير للاهتمام حقا،، اذا هارون هو الشخص الذي كنت لا ترين غيره واخدك عشقا من الوهلة الاولى ؟

تذكرت ريان عندها ايام الدراسة عندما كانت تستمع لاحاديث حسناء في مجمع الفتيات حول الطبيب النفساني الذي تعمل عنده مساعدة وكيف اخدها عشقا من النظرة الاولى وصارا يتواعدان بعدها،، وكذلك تذكرت عندما كانت معه في المطعم واقبلت نحوهما هي تتمايل بكعبها العالي وتتحدث معها بغموض حيث اتضحت الامور لها الان،، افاقت من شرودها على صوت حسناء وهي تخاطبها بمكر :

- لقد كنا سنتزوج لولا وجودك انت وتخريبك لكل شيء،، بسببك وبسبب الوعد اللعين بين والدك ووالد هارون تخليت عن حبي وتخلى عني الشخص الذي عشقته حد النخاع

اطلقت ريان ابتسامة ساخرة على كلامها واردفت :

- وهل تعرفين ما هو الحب حتى تتكلمين عنه ؟ اشك انك تقولين الصدق فانت والحب خطان متوازيان لا يلتقيان ابدا عزيزتي

كادت ان تجيبها حسناء لكن ظهور هارون قد جعلها تصمت تتوعد لها في سرها وقد شعر انه هناك خطب ما وعليه معرفته حيث قال موجها كلامه لزوجته :

- ما الامر عزيزتي ؟ ا هناك شيء ما

- لا،، كنت ادردش مع حسناء وحسب اتضح انها مساعدتك ؟ لما لم تخبرني عندما صادفناها في الطعم ذلك اليوم ؟

- ربما نسيت هل ازعجك الامر ؟

لم ترد ريان تبدي اهتمامها بهارون وتجعله يشعر انها تفكر به ولهذا انكرت كل شيء وقالت :

- لا اساسا انا لا يهمني الامر، ثم لما اتيت بي الى هنا ؟

كاد الاخر يجيبها لكن دخول السيدة حمادو وابنها بلال غيرا مجرى الامور،، خصوصا عندما كانت في تلك الحالة، بسرعة التفت هارون عليها وقال بتساؤل :

- ماذا هناك يا سيدة حمادو ؟ هل بلال بخير ؟

ترتقرت عينا السيدة بالدموع وقالت :

- لا ادري حضرة الطبيب لقد فعلت كل ما اخبرتني به الحصص الفارطة، وقد شعرت ان هذا يجدي نفعا في بادي الامر، لكن امس حدث ما لم يكن في الحسبان

رفع هارون حاجبه في استغراب واردف من جديد :

- خيرا ان شاءالله،، سأرى في الامر ارجوك لا تقلقي

- شكرا لك

التفت هارون على ريان التي كانت تراقب الحوار بلا مبالاة بين زوجها وتلك المراة وقال مخاطبا اياها :

- عزيزتي اذا سمحت انتظري خمس دقائق فقط .. هل هذا ممكن ؟

- كما تريد

دلف هارون الى داخل مكتبه برفقة السيدة حمادو وابنها الصغير اما ريان فقد جلست على احد الكراسي تاخد لها مجلة من فوق الطاولة تحاول اضاعة الوقت بها ريثما ينهي زوجها عمله وتعلم هي سبب قدومها الى هنا،، وقد كانت حسناء تطالعها بحقد بين الفينة والاخرى تتمنى لو بامكانها قتلها كي ترتاح منها الى الابد،، بقيت ريان تقلب في تلك المجلات واحدة تلوى الاخرى بتذمر وقد بدا صبرها ينفذ شيئا فشيئا من ملل الانتظار،، ثم وقعت مكانها تقصد النافذة المطلة على شوارع المدينة حيث لفت انتباهها محل المؤكولات السريعة الذي يعد البوراك العنابي المعروف في مناطق الساحل الشرقي وقد كان هناك اقبال كبير من الناس عليه دفع بعصافير بطنها تغرد من شدة الجوع الذي هلّ عليها فجاة بسبب رفضها لتناول فطور الصباح،، ارادت ان تذهب وتاخد لها بوراكة او اثنتين قبل انتهاء الحصة وما ان كادت تخطو بضع خطوات خارج القاعة حتى توقفت على صوت فتح الباب من طرف السيدة حمادو تقود ابنها الصغير الى الكراسي وتطلب منه بلطف ان ينتظرها هنا ريثما تنهي حديثها مع الطبيب،، غيرت ريان وجهتها وسارت ناحية الصبي، الذي انهش الفضول نحوه تفكيرها؛ جلست بجانبه بهدوء تراقبه وهو يشاهد فيديو عن الحيوانات المفترسة وكيفية صيدها لفريستها من الغزلان وابناء آوى،، لم تكن تعرف عن وضعيته اي شيء لكنها شعرت بشيء غريب تجاهه لا تدري ما هو،، ظلت يا في تلك العينين الضيقة شديدة السواد

وكأنها تُذكرها بشخص ما كانت تعرفه في الماضي،،، اجل انه حبيبها الوسيم وائل الذي تخلى عنها وعن حبها الكبير له، انتبهت معه وهو يقوم بالدخول الى لعبة التراكيب لعبته المفضلة وصار يقوم بوصل القطع مع بعضها البعض حيث لم تستغرق منه المرحلة الاولى سوى عشر ثواني وحسب لدرجة ادهشت ريان وادركت انه ذكي جدا، واصل بلال في تجاوز المراحل حتى وصل الى المرحلة العاشرة والتي كانت صعبة بعض الشيء عليه اذ استصعب مكان القطعة الثالثة اين من المحتمل ان يكون ؟ ... ابتسمت ريان برقة وقالت له بعفوية ..

- يمكنني تقديم المساعدة اذا اردت ؟

انتبه الصغير معها وصار يتفحص ملامحها التي وجدها مرهقة جدا وبالرغم من صغر سنه الا انه راى في عينيها الزمردية حالة هيجان من مد وجزر بامكانهما اغراق قارة باكملها،،، اعاد نظره مجددا نحو لوحه الالكتروني واردف قائلا :

- حسنا لا مانع لدى بلال في قبول المساعدة

استغربت ريان اسلوبه في الحديث كثيرا خصوصا عندما ذكر اسمه في وسط الجملة وقد تجاهلت الامر مؤقتا وصارت تقوم بارشاده في الطريقة الصحيحة كي ينهي مرحلته في اللعب...

- هل انت ايضا مريضة مثلي ؟ ولهذا اتيت الى الطبيب النفساني ؟

توقفت ريان لوهلة عن اللعب تنظر داخل تلك العينين خلف تلك النظارات الطبية وقالت بتوتر :

- كيف خطر على بالك هذا ؟

- هناك الم داخل عينيك استطيع رؤيته بوضوح

خفق قلبها بشدة وكادت تترقرق عينيها بالدموع لكنها جابهت سقوطهما وتنفست بحنق مردفة نحوه :

- لا يا عزيزي لست مريضة،، انا زوجة الطبيب النفساني واسمي هو ريان وانت ما هو اسمك ؟

- بلال ومتشرف بك،، بصراحة انت لطيفة جدا مثل زوجك وبلال احبك وارتاح لك

امسكت ريان بيديه الصغيرتين امتنانا عن رايه فيها لكنه سحبهما بلمح البصر وكان تيارا قد مر على جسده،، شعرت ريان بالريبة تجاه الموقف وكادت ان تتكلم معه لكن خروج هارون

والسيدة حمادو حالا دون ذلك،، وقد تفاجئ هارون بجلوس زوجته بجانب الطفل لكنه لم يهر انتباها كثيرا، اما بلال فقد ركض الى امه مخاطبا اياها :

- امي انظري، تلك زوجة الطبيب النفساني واسمها ريان وقد احبها بلال كثيرا فهي لطيفة مثل زوجها وقد ساعدتني في اجتياز المراحل الصعبة ايضا

تقدمت منها نسرين ترتسم ابتسامة لطيفة على شفتيها الكرزية وقالت مصافحة اياها :

- مرحبا سبدتي انا والدة بلال

- اهلا بك ان ابنك لطيف جدا وقد احببته من الوهلة الاولى

- يبدو انك تعشقين الاطفال ارجو ان يرزقك الله بالذرية الصالحة

ارتبكت فور سماعها لتلك الكلمة ورمقت هارون الذي كان يقف قبالتها بنظرات غريبة لم يفسر معناها اما هو فقد بادلها نفس الشيء سارحين في عيون بعضهما البعض حتى ايقظهما صوت نسرين تستأذن بالانصراف،، التفت هارون على حسناء وقال بصرامة :

- لا يوجد مواعيد الان على ما اعتقد ؟

اجابته الاخرى وهي تنظر الى الملف امامها :

- لا حضرة الطبيب جميع مواعيدك تبدأ من الساعة الحادي عشر واول موعد مع اسماء

- اوه جيد لقد تاخرت كثيرا عن مزاولة العلاج، ارجو ان يكون هناك تطور بخصوص حالتها

- والموعد الثاني مع ذلك الرجل الاربعيني قدور شلبي

- اجل تذكرته،، هذا جيد اذا لا تحولي لي اي اتصال الان

- حاضر حضرة الطبيب

التفت الاخير على زوجته التي ما زالت تقف مكانها وقال يوجه كلامه نحوها :

- تعالي معي الى الداخل

سارا معا خطوتين وما ان كادا يدلفان الى غرفة المكتب حتى قاطع حبل افكارهما ببعض صوت انثوي يطلب المساعدة،، لقد كانت تلك الفتاة التي اتت امس وتعاني من اضطراب ثنائي القطب، نظر هارون ناحيتها بتذمر فهذا ليس وقتها ابدا وقال :

- انسة ابراهيمي ؟؟

- اسفة حضرة الطبيب اعلم انه ليس موعد حصتي لكنني مضطرة فلدي عمل بعد قليل وان لم اذهب ساطرد

تنهد بياس واجابها :

- انا اسف لكن لدي عمل الان لا استطيع الاهتمام بك

نظرت نحوه بتوسل وقالت :

- فقط خمس دقائق من وقتك ارجوك

تلك اللحظة قاطعت ريان حوارهما وقالت موجهة كلامها لهارون :

- حسنا لا باس اهتم بمريضتك ولا تشغل بالك بي فانا معتادة على الانتظار

لمح هارون في عينيها نفس تلك نظرة التي سبق وراها من قبل اول مرة عندما كاد يدعسها بسيارته،، كان يود لحظتها ان يترك كل شيء ويمسك بيديها الذابلتين وياخدها اليه الى مملكته ودفئه لتشعر بالامان ويُعيد لها ثقتها بنفسها من جديد لكن لا يوجد باليد حيلة فهو قبل كل شيء طبيب نفساني مهمته في مداواة جراح الناس من احدى اولوياته ايضا،، عاد لمكتبه مع مريضة تاركا فراشته اليائسة في غرفة الانتظار الذي جعلها تضيق درعا منه وتحمل نفسها بعجل الى محل البوراك الذي جعل لعابها يسيل رغما عنها وهي لا شهية لها في الاكل،، كان الشارع يشهد حالة عجيبة من الصخب غالبا معتادون في هذه المنطقة الصراخ باعلى اصواتهم لجلب الزبائن وعرض سلعهم عليهم كما ان العاملون لا يتخلون عن الارتداد الى هنا لاجل وجبة الافطار في حالة ما اذا لم يكفيهم الوقت لتناولها في المنزل،، كانت اشعة الشمس الخريفية قد بدات تتربع وسط السماء الصافية مع بعض الغيوم البيضاء كالقطن التي تشاركها المكان، شعرت ريان برغبة شديدة في الرسم وقد حلق الالهام فجاة فوق راسها يحثها على الولوج الى عالمها الوردي وترك كل شيء وراءها كما هو؛ لكن عصافير بطنها ايقظتها من سرحانها ودفعت بها لله الى محل المؤكولات السريعة تطلب من البائع ان يلف لها قطعتين من البوراك العنابي الشهي مع قارورة بيبسي في كيس، اومأ البائع لها بالايجاب واجابها ان تنتظر دقائق فقط كي ينهي مع تلك السيدة الاربعينية،، بقيت ريان واقفة مكانها تتامل في خلق الله تارة وشاردة في ذلك الثنائي العاشق يجلسان على طاولة دائرية في المحل ويتجاذبان اطراف الحديث حيث اعادها المشهد الى الماضي قبل سنتين عندما ذهبت مع وائل الى مطعم داود باشا في وسط المدينة كثالث موعد لهما بسبب عقلية حبيبها السابق، اجتاحتها موجة حنين مؤلمة وصارت تتمنى لو انها معه الان بدل ذاك المختل الذي اذاها ليلة زفافها ولم يتفهم طبيعة زواجها منه،، رفعت راسها الى السماء وصارت تدعو الله ان يخرج وائل من قلبها الذي ترعرع فيه فهي الان اصبحت متزوجة بغض النظر عن طبيعة علاقتها مع

زوجها، ايقظها الرجل من شرودها يقدم لها طلبها ويخبرها بسعره في نفس الوقت حيث فتحت حقيبة نقودها وناولته ورقة نقدية من فئة الفين دينار وبقيت في انتظاره ليعيد لها الباقي... في تلك الاثناء انتهى هارون من موعد جلسته مع المريضة وقد طلب منها بلطف ان تذهب الى المساعدة لاجل الحساب وتقييد موعد اخر، بينما هو حنل هاتفه واتصل على حسناء يطلب منها ان تخبر ريان كي تدلف عنده، لكنها فاجأته عندما اجابته انها غادرت المكان ولا تعلم اين ذهبت تحديدا، تلك اللحظة ازدر ريقه من الخوف خشية ان يُصيبها مكروه ما، ولم يشعر بنفسه الا وهو يحمل هاتفه ومفاتيح سيارته يركض باسرع مما يمكن حتى حسناء تفاجئت بردة فعله وصارت تدور الاسئلة براسها يمينا ويسارا،، بعد اندعس هارون على البنزين ادار المقود يلتفت يمينا وشمالا باحثا عن زوجته التي هي في حالة صدمة كبيرة واحتمال ان تعيد الانتحار من جديد،، مجرد تفكيره بالامر كان سيفقده جنونه، يبدو انه اخطأ عندما اخد بذلك الوعد على محمل الجد ولو تراجع عن الامر عندما طلبت منه يوم اتت الى عيادته لكان هذا افضل لكلا الطرفين وربما افضل لها هي اكثر شيء،، لكن ماذا عساه يفعل ؟؟ هل يُعقل انه احبها ؟ هل يعقل انه اغرم بها من اول مرة راها فيها بعد عدة سنوات ؟ والوعد لم يكن الا مجرد ذريعة كي يظفر بها،، اجل هذا ما اعترف به هارون بينه وبين نفسه،، يا ليت ريان فقط ترى حبه لها ورغبته الشديدة ناحيتها،، هكذا هم البشر يستمرون في التمسك بالوهم متجاهلين الحقيقة التي امام انظارهم،،، بقي هارون يجوب مدينة عنابة من الشرق الى الجنوب باحثا عن اي اثر لها لكن من دون فائدة، حتى توقف لحظة امام حديقة ايذوغ بعد ان راها تجلس على احد الكراسي تتناول شيئا ما لم يميزه من بعيد،، بسرعة ركن سيارته امام الرصيف وترجل في عجل يركض نحوها وهو يحمد الله في سره انها لم تتهور وتقم بتلك الفعلة الشنيعة مجددا،، بعد ان اقترب منها وصار قبالتها قال لها :

- الف صحة وعافية

انتفضت على صوته وتوقفت عن الاكل ترمقه باستغراب عن ايجاده لها وهي لم تخبره عن مكانها...

- كيف وجدتني ؟

- وهل سيعصب علي ايجاد زوجتي ؟ استطيع رؤيتك من بين الالوف من الناس

لاول مرة تمر على مسامع اذنيها مثل هذه الكلمات،، والتي جعلت قلبها المرهف المليئ بالاحاسيس المتناسية يخفق بصورة رهيبة ولا تدري سببه،، علا التوتر وجهها وادارت راسها ناحية اليمين وقالت :

- لما تفعل هذا ؟

- افعل ماذا ؟ ... اجابها وهو يجلس بجانبها ينظر الى الطريق العام

- اراك بدأت تعتاد على هذا الزواج كثيرا ؟

- وهل يوجد خيار اخر غير الاعتياد يا ريان ؟ ... احيانا ترسو سفننا في شواطئ لا نرغب بها لكن ماذا عسانا نفعل ؟ انه القدر ولا ارادة لدينا للوقوف في وجهه

اسندت راسها على الكرسي ترتشف من قارورة البيبسي تعيد ترتيب كلماته الاخيرة التي هو على الف حق فيها،، ثم اجابته :

- ا لهذا السبب احضرتني الى عيادتك ؟

- لم افهم ؟

- تريد ان تعالجني من جميع ما مررت به ؟

- والله اكذب عليك ان اخبرتك العكس... اجل احضرتك الى عيادتي للمعالجة وارجوك من قلبي ان لا تصديني، اسمحي لي كونني طبيب نفساني وليس زوجك ؟

بقيت ريان تفكر بين نفسها هنيهة في عرضه، وقد ارتات للموافقة اذ لم يبقى امامها خيار اخر وقالت وهي تقف مكانها ..

- هيا بنا اذا وارجو ان لا يسبقني مريض اخر هذه المرة

- لا تقلقي

بعد مسافة طريق دامت عشر دقائق كانا على اعتاب العيادة كل منهما يشعر باحاسيس ملخبطة ومشاعر جديدة لم يسبق لهما ان عاشاها من قبل، ترجلا من السبت وسارا ناحبة الطابق الثاني حيث كانت هناك مريضة في القاعة برفقة والدتها قد مضى على انتظارها ربع ساعة كما اخبرته حسناء بالامر؛ اعتذر منها باسف وقام بجر زوجته خلفه بلطف الى مكتبه عاقدا العزم على الدهول الى عالمها الوردي،، كانت الغرفة هادئة جدا تحتوي على خزانة خشبية مصبوغة باللون الاسود اللون الذي تحترمه كل الالوان بها بابين فقط يتوسطهما زجاج املس يعكس صورة الشخص الواقف قبالته، وبجانب تلك الخزانة وعاء بني عليه باقة من نبات الصبار الذي يضفي رونقا فتانا على المكان، نظرت خلفها حيث الباب فلمحت حوض مائي للسمك موضوع بطريقة تلفت الانتباه وبجانبه اريكة من الجلد خلفها ستائر ارجوانية تزين نافدة الغرفة،، جلست ريان على الكرسي باريحية شبه معدومة ونظرت نحو صورة معلقة في الحدار تعود لفرويد الطبيب النمساوي المشهور في علم النفس ..

- ما رايك في ديكور الغرفة ؟

- جيد، لا يختلف كثيرا عن ديكور البيت،، يبدو انك تعشق هذا النوع من التصاميم ؟

- صحيح.. المهم لنعد الى موضوعنا

- من اين تريد ان ابدأ حضرة الطبيب ؟

- من الاول

سكتت ريان قليلا مترددة بعض الشيء ولا تعرف من اين تبدأ في الحديث لكنها قررت ان ان تثق به ليس كونه زوجها بل كونه امهر طبيب نفساني عرفته المدينة،، تنحنحت بخفوت واردفت بصوت هادئ ...

- لقد بدأ كل شيء منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي تلاشت فيه احلامي وصارت سرابا امام ناظري

- اي يوم ؟؟ ... سالها وهو يحمل قلمه الجاف ومدونته الجلدية

- اليوم الذي كدت تدعسني فيه بسيارتك !!

عاد هارون بذاكرته الى الماضي وقال باهتمام :

- اجل، تذكرت .. ماذا حدث ذلك اليوم لقد انهش الفضول تفكيري بخصوص ما جرى معك فقد كانت حالتك يرثى لها ؟

اسندت ريان راسها على الكرسي وبدات تتكلم باسى ...

- في ذلك اليوم كنت على شفا حفرة من تحقيق امنياتي الثلاثة اللاتي حاربت العالم اجمع لاجلهن لكن ما حدث بعدها لم يكن في الحسبان ابدا

- ماذا حدث ؟؟ او بالاحرى ما هي الامنيات التي تمنيتها ؟

- لقد كانت اول امنية هي ان انال الشهادة في تخصص الهندسة الكيميائية وفعلت بتقدير جيد لكن مسؤول الجناح آنذاك اخبرني انه لا استطيع استيلامها بسبب ضياع كشف نقاطي للسنة الثانية من ملفي الدراسي،، والثانية ان افوز في مسابقة الرسم التي فتحتها اكاديمية الفنون في كندا وقد ارسلت لهم تصاميمي لكن تم رفضها ... سكتت ريان ما ان وصلت الى الامنية الثالثة لدرجة انها جعلت الفضول حولها ينهش تفكير هارون

- وماهي الامنية الثالثة ؟

- ان اتزوج من الشخص الذي احبه واعيش قصة حب ولا بالاحلام

بعد ان انهت ريان حديثها، نزع هارون نظاراته الطبية ووضع قلمه الجاف ومدونته وقال لها بلطف :

- لا ارى اي تعقيد في ما قلته يجعلك ترمين كل شيء خلف ظهرك وتنزوين داخل قوقعتك ؟

استغربت ريان كلامه واردفت :

- ماذا تقصد ؟ هل انا ابالغ بالامر ؟

- لنقل ليس مبالغة ولكن انت تريدين ان تعيشي حياتك دون عراقيل وصعوبات .. تريدين كل شيء ياتي اليك على طبق من فضة او ذهب ولكن الحياة ليست هكذا ابدا؛ ليست فراشات وردية كما تخالينها،، لم تنالي الشهادة ذلك اليوم بامكانك استيلامها اليوم او غدا مثلا هي ليست نهاية العالم ؟ لم تربحي في المسابقة هذه المرة تستطيعي المحاولة من جديد مرة ثانية وعاشرة ان استلزم الامر حتى تظفري بمرادك ... و بخصوص الحب الذي تتمنينه فهذه مسالة اخرى، فاطهر انواع الحب واصدقها على الاطلاق هو ذاك الذي يُعاش بعد الزواج،، وغير هذا لا تصدقي

- تريد القول انني حملت الموضوع زيادة عن اللزوم وما كان ان احزن لهذه الدرجة ؟؟ تقصد بكلامك انني انا المخطئة ؟

تنهد الاخر بياس لا يدري كيف يقوم بايصال لها الفكرة عن البدء من جديد وواصل كلامه مردفا :

- اسمعيني يا ريان هناك المئات مثلك يحلمون باشياء ويفعلون المستحيل كي يبلغون ما يريدونه؛ ولكن يجهلون ان للقدر راي اخر في ذلك... صحيح ان قراراتنا واختياراتنا هي من تحدد لنا مصيرنا واتفق مع هذا، ولكن ماذا ان كانت تلك القرارات ليست لصالحنا ؟؟ ماذا ان كانت تلك الخيارات ستضرنا ولن تكون نفعا لنا ؟ ... صدقيني انك ستحققين جميع احلامك وستبلغين ما تشائين يوما ما؛ فقط عليك ان لا تستسلمي عند اول خيبة او خدلان فالدنيا لا تعطينا دروس بالمجان، عليك ان تدفعي الثمن كي لا تقعي في الخطأ مرتين

سكتت ريان هنيهة تزن ما قاله في راسها .. بعدها اجابته :

- ربما انت على حق في كلامك ... لكن الفعل صعب بعض الشيء وكذلك مسالة الزواج التي ظهرت من العدم قد قلبت جميع الموازين،، ولا سيما ما حدث امس ..

كادت ان تنهي كلامها لكنها توقفت فجاة عن الكلام بعد ان لمحت تبدد ملامح هارون،، تنحنح الاخير واردف :

- اتفهم وضعك لكن عليك ان تستمري وتجابهي، الانتحار والهروب ليس حل للمشكلة على العكس يصعب الامور وحسب،، واجهي وامنحي الحياة ونفسك ومن حولك فرصة، صدقيني لن تخسري شيئا على العكس ستكسبين اشياء عديدة.

***

فتحت ريان عينيها الزمردية ببطئ شديد تعيد احداث الحلم الجميل الذي راودها ليلة الامس بعد سلسلة حافلة من الكوابيس على ارض الواقع،، ترتسم على شفتيها الكرزية الممتلئة ابتسامة لطيفة تفكر في ما سيحدث بعد الان،، كان كلام هارون معها امس كونه طبيبها مفيدا جدا لها وقد صدق من مدح اسلوبه في العلاج فقد جربت هي بنفسها، مدت يدها الى هاتفها الذي كان ملقى بعشوائية تحت وسادتها ترى الساعة اين صارت الان حيث وجدتها الثامنة والنصف صباحا، ترجلت بسرعة عن مكانها وقصدت غرفة المعيشة ترى في امر زوجها، فوجدت الاريكة شاغرة والبطانية ملفوفة بطريقة انيقة والمكان مُرّتب كما يجب؛ ادركت لحظتها انه غادر البيت الى عمله وواضح انها لم تشعر به ايضا،، لا تدري لما شعرت لحظتها بالاسى عليه فهو بالرغم من انه ضحية في القصة مثله مثلها الا انه لم يستسلم للامر الواقع بل ظل محافظا على رباطة جأشه، وربما لو لم تستفزه تلك الليلة لما حدث ما حدث،، افاقت من شرودها ونفضت عنها تلك الافكار، فلا شيء سيغفر له فعلته بحقها.. فتحت جميع نوافذ البيت تستقبل نسمات البحر التي انعشت نفسها وراحت تتأمل طيور النورس من جديد : ستبقى دائما طائر الحظ خاصتي ولو اريتني العكس، متاكدة ان الامور ستعود الى مجاريها وتلك الامنيات الثلاثة ستتحقق يوما ما !! .. قررت ريان ان تاخذ بكلام هارون على عين الاعتبار، وان تمنح الجميع من حولها فرصة جديدة وتتصالح مع نفسها كي تصالحها الحياة

بحد ذاتها،، ولهذا اول شيء قررت فعله هو العمل على التصاميم لارسالها الى اكاديمية الفنون في كندا،، لم تشأ ان تستمر في تعليمها كما انها لم تعد تهتم لشهادتها لان هدفها الان بات واضحا وهو النجاح في هوايتها واثبات نفسها بجدارة امام من استخف بقدراتها،، بعد ان انهت فطورها الذي كان على الطاولة قد قام باعداده هارون تاركا لها نصيبها منه، ارتدت صدرية وردية اللون كانت معلقة على باب المطبخة ثم رفعت شعرها الكيرلي في شكل قصة ذيل الحصان وراحت تقوم بتقطيع البصل والطماطم لاجل مرقة جلبانة لذيذة مع لحم الدجاج،، خطر على بالها لحظتها ان تضيف على طبقها الرئيسي سلطة مشوية بالليمون والثوم المفضلة لديها، فتوجهت نحو الثلاجة تُخرج الفلفل الاخضر مرفقا بحبات اخرى من الطماطم الحمراء، كانت تعتريها سعادة غريبة لا تدري ما مصدرها، تتحرك يمينا ويسارا في مطبخها تضع لها اغاني اجنبية هادئة منسجمة مع موسيقاها لاقصى درجة، فجأةً هبّ عليلٌ من نسمات هواء الابيض المتوسط حرك ستائر المطبخ الرمادية وصارت الاجراس المعلقة عند باب الشرفة تُصدر رنات جميلة قد جعلتها تتوقف عن تحريك الوعاء والنظر ناحية السماء،،، تلك اللحظة تذكرت ريان الماضي والايام الجميلة عندما كانت في ريعان الطفولة تُشاهد انمي ايميلي فتاة الرياح المفضل لديها، والذي كان منزل خالتها اليزابيث يحتوي على نفس تلك الاجراس،، احسّت انها قد سافرت بالزمن الى الماضي وصارت تتأرجح بين ثنايا ذكريات قد اصبحت من غابر الازمان؛ جال قليلا في خاطرها ان تبدا في نحت لوحة جميلة تنبض بالحياة والامل وترفرف بجناح التفاؤل، لكن صوت رنين جرس المنزل قد حال دون ذلك... وضعت الملعقة جانبا، وسارت ببطئ نحو الباب تتسائل عن الضيف الذي اتى في مثل هذا الوقت، ادارت المقبض لتتفاجئ بعمتها تقف قبالتها ترمقها بنظرات مِلؤُها الكراهيةُ والحقد، ازدرت ريان ريقها وقالت بفضول :

- عمتي سهام !!

- اجل عمتك سهام، ووالدة زوجك ايضا

- خيرا ا هناك خطبٌ ما ؟!

لم تجبها عن سؤالها بل دلفت الى الدّاخل دون ان تنتظر كلمة تفضل منها، مرت على انفها روائح جميلة قادمة من المطبخ، فشعرت ان ابنها قد وضع الزواج في مساره الصحيح ويبدو ان ريان تقبلت الامر الواقع ايضا بهذه السهولة،، قصدت المطبخ وقالت :

- يبدو انك وضعتِ الزواج في مساره الصحيح يا عزيزتي ريان

لم تفهم الاخرى قصدها وقد بقيت برهة زمنية تزن كلماتها حتى استوعبت ما ترمي اليه،، امسكت بالملعقة ترى في امر فطورها اين صار واجابتها بثقة :

- وهل تركتم لي خيار اخر يا عمتي الغالية ؟

- انا ايضا لم اكن سعيدة باحضارك عروسا لابني، لكن عمك ابراهيم هو من اراد هذا ... اجابتها وهي تجلس على الكرسي تاخد لها كاسا من الماء

- حسنا عمتي ماذا تريدين مني الان ؟ انت وانا نعلم جيدا طبيعة العلاقة التي تجمعنا فلا داعي للتمثيل

- لسانك سليط بالفعل، يذكرني بشبابي عندما كنت عروس جديدة

تقدمت ريان منها وقالت وهي تنحني عند اذنها بصوت هادئ :

- لقد قلتها بنفسك يا عمتي.. اشبهك، يعني ليس بالشكل وحسب بل حتى في الفعل ... فتوخي الحذر !

كانت سهام تعلم جيدا ان طباع ريان وشكلها الخارجي نسخة طبق الاصل عنها، وكل العائلة تدرك هذا ايضا، لدرجة ان أي شخص غريب يراهما معا يقول انها ام وابنتها،، سكتت قليلا مُداريةً للموقف بعدها اردفت مُغيِرة الموضوع ..

- بالمناسبة لم اكن اتوقع منك تلك الشجاعة ليلة زفافك يا عزيزتي

- ما هو قصدك ؟ وعن اي شجاعة تتحدثين ؟

- اقصد انك كنت رافضة تماما لهذا الزواج ولم تكوني راضية به، لكن مع هذا استسلمت لهارون وببساطة ايضا

شعرت الاخرى بالدماء تفور في راسها ولم تستوعب كلامها ابدا، حيث قالت لها بعدم فهم :

- لحظة لحظة ! ... كيف علمت انني استسلمت لهارون او انه حدث شيء بيننا ؟ هل تراقبيننا ؟

ابتسمت الاخرى بخبث وقالت :

- لا داعي لمراقبتِكُما،، فقد اهداني قرة عيني المنديل الاحمر في صباح اليوم الموالي، بعد ان اخذتُ وعدًا منه في ذلك

فتحت ريان عينيها في ذهول تُعيد احداث تلك الليلة التي دفعتها للتخلي عن حياتها وتفضيل الموت عليها، امسكت بقلبها الذي صار يخفق بصورة رهيبة لا تستوعب افعال عمتها التي فاقت كل الحدود، لانها بالرغم من عِلْمها المُطلق لطبيعة هذا الزواج الا انها لم تكف عن ياقتها،، تنفست الصّعداء مرات متتالية وقالت بعد ان استعادت رباطة جأشها...

- انت بالفعل يخاف منكِ.. بصراحة لم استغرب تصرفك ابدا فهذا امر مُتوقع منك؛ لكن ا تعلمين شيئا ؟ انا بالفعل اشكرك على تدخلك هذه المرة، لانها مرَّت ليلة ولا بالاحلام،، صِدقا انا لن انساها حياتي كلها

مثلما كانت ريان تنجح في استفزاز هارون، قد نجحت هذه المرة في ضرب عمتها على الوتر الحساس اذ لم تتوقع منها ردا كهذا ابدا،، وقفت مكانها من قمة الانزعاج على كلامها وغادرت البيت تُتمتم بكلمات غير مفهومة، اما ريان فقد بدا يتوضح لها السبب وراء اندفاع هارون لها بتلك الطريقة وهو قد وعدها مُسبقا انه لن يلمس شعرةً منها.. تنهدت بأسى تفكر في القادم من ايامها خصوصا انها بين احضان عائلة لا تعرف الرحمة ابدا، وعادت الى فطورها والتوتر هو سيد الموقف، وقد ارادت بعد ان تنتهي من عملها ان تُهاتف امها وشقيقتها الكبرى كي تطمئنهما عن حالها ولا سيما ان هارون اخبرها ان والدتها بالها مشغول عليها.

***

سارت شذى غُداة اليوم مع إيلين في المحلات التجارية لوسط المدينة تفكران في شراء هدية صغيرة لريان بمناسبة زواجها، فقد قررتا بعد مرور اسبوع او اكثر ان تقوما بزيارة خفيفة لها للاطمئنان عن حالها. كانت الاسواق تشهد حالة كبيرة من الصخب والضجيج خصوصا في يوم العطلة الذي ترتاد فيه العاملات السوق لاجل شراء اللوازم من جميع النواحي،، كانت فكرة الهدية من تخطيط ايلين ولهذا هي من قررت اختيار شيء مناسب لها وعلى ذوقها ايضا، وقد كانت اول وجهة لهما الى محل دبي التجاري والذي يقصده الناس من كل حدب وصوب لوجود كل السِّلع ولمختلف الفئات العمرية؛ حيث كان الطابق الارضي مخصوص للحقائب الظهرية واليدوية، وايضا يوجد به قسم خاص بالاكسسوارات وكذلك بالملابس

الخاصة بالصغار، اما الطابق الاول فهو يخص الكبار وحسب من عمر المراهقة، يحتوي على ثياب صيفية وشتوية بيتية واخرى للخروج، اما الطابق الثاني فقد كان للمفروشات المنزلية من زرابي وستائر واقمشة وغيرها ..الخ،، استمرت الفتاتين قرابة ساعة ونصف وهما تجوبان المحل للبحث عن شيء مُلفت ونادر لكن من دون فائدة لم يعجب ايلين اي شيء بالرغم من ان شذى قد عرضت عليها فكرة شراء ساعة فضية من نوع دانيال، لكن الاخرى رفضت وبشدة لانها تعلم ان وائل كان يرتدي هذا النوع من الساعات اليدوية،، غادرتا المحل تقصدان محل camالتجاري وهي كلمة مختصرة معناها غرفة الحرف والمهن، معروف على انه يعرض اجود السلع والاكسسوارات من شتى الانواع، يقع بعد سوق الحطاب للخضر وطريقه سهلة وقريبة من محطة الحافلات، لم تستغرق شذى وايلين وقتا للوصول وفورا قصدتا الطابق الاول الذي يوجد به دكان صغير يقوم ببيع القطع الاثرية من اواني فخارية مرت عليها عقود من الزمن، ومجسمات خشبية لبواخر قراصنة وهواتف ثابتة من الجيل الاول،، وكذلك ساعات رملية جميلة ومصنوعة بطريقة تسُّر الناظرين،، امسكت إيلين بواحدة منها معروضة في الواجهة الامامية باذن من صاحب المحل وقالت مخاطبة شذى :

- مارايك بهذه ؟؟

اجابتها الاخرى باهتمام ..

- غايةً في الاناقة انا متاكدة انها ستعجب ريان وكثيرا ايضا

- صحيح معك حق فهي تعشق هذا النوع من الهدايا القيّمة ولهذا اردت ان اتي الى هنا

- حسنا اذا اتفقنا على الهدية فلتطلبي من البائع ان يضعها في كيس جميل مناسب ولنذهب الى محل المؤكولات السريعة الموجود في لاسيتي اوزاس لانني اشتهيت البوراك العنابي فجاة

- حسنا، وما رايك بعدها لو نُلقي التحية على زوج ريان ايضا، بما ان عيادته في تلك الاحياء ؟ ... قالتها ايلين تداعب صديقتها بمرح،، حيث اجابتها الاخرى بنفس النبرة

- ولما لا

توجهت ايلين لمحاسبة البائع تطلب منه بأدب ان يضعها في كيس خاص بالهدايا،، اذ لبّى لها الاخر طلبها بكل رحابة صدر، وقبل ان تخرجا من الدّكان لفت انتباه شذى حاملة مفاتيح صغيرة في شكل ثنائي من شاب وفتاة يعانقان بعضهما البعض بطريقة حميمية مليئة بالحب، وقد عقدت العزم ان تضيفها الى هدية ايلين كي ترفع من معنويات ريان وتغير نظرتها في زواجها،،، غادرت بعدها الفتاتان المحل تتوجهان الى مكانهما المنشود وفي طريقهما قرب محطة توقف الحافلة شعرت شذى باحدهم يمسك بمرفقها من الخلف،، ازدرت ريقها لحظتها والتفتت ترى في الامر لتتفاجأ بمن تخشى رؤيته...

- الى اين آنسة شذى ؟

- سليم !!

ابتسم الاخر ناحيتها بخبث كبير، وقال يرمقها بنظرات قذرة ..

- لقد اشتقت اليك كثيرا، وانت ا لم تفعلي ؟

كادت ان تجيبه شذى ولكن صوت ايلين التي تقدمت منهما مستفسرة عن الامر حال دون ذلك حيث قالت موجهة كلامها لصديقتها :

- ماذا هناك يا شذى ؟ ومن يكون هذا الشاب ؟

- انا خطيبها وانت ؟ ... قالها سليم بعجرفة تاركا علامات الاستفهام تحلق فوق راس ايلين التي اجابته بفضول :

- قلت خطيبها !!

التفتت بعدها الى شذى التي تجمّد الدم في عروقها لرؤيتها له وواصلت كلامها ..

- ماذا يقول هذا ؟ هل انت مخطوبة بالفعل ؟؟

- لا اصدق يا شذى، انت لم تخبري صديقتك انك مخطوبة ؟

تحلّت الاخيرة ببعض الشجاعة وقالت بحدة :

- انت ولا يمكن ان تصبح خطيبي يا سليم ناهيك عن زوجي اصلا،، لا تنسى ان خالي عباس هو من ورطني بك، ابتعد عن طريقي ولا تظهر قبالتي مرة اخرى

- انت تحملمين عزيزتي ان لم تكوني لي فاعدك انك لن تكوني لغيري !!

قالها سليم وغادر المكان تاركا شذى في حالة رعب وخوف من القادم فقد اتى الكابوس الذي كانت تخشى قدومه الان، ولا تدري ماذا ستفعل الان كي تخرج من هذه الورطة،، ايقظها صوت ايلين من شرودها تتسائل عن القصة التي احدثت ضجة داخل راسها،، جلست شذى على احد مقاعد محطة توقف الحافلة وقالت باسى :

- سليم هو ابن اخت زوجة خالي عباس وقد كان يريد الزواج مني قبل خمسة سنوات، وطبعا لم يسألني احد عن رايي فورا قاموا باعطائي له ودون ان ياخدوا حتى براي امي التي لا حول ولا قوة، وبعد خطبتنا من بعض بشهرين تقريبا دخل سليم السجن بتهمة ترويج المخدرات وتعاطيها ايضا، وقد كانت فرصة على طبق من فضة بالنسبة لي ان أُلغي خطبتي منه وارمي الخاتم في وجهه

سكتت شذى قليلا تلتقط انفاسها ببعض المياه المعدنية ثم واصلت مجددا :

- والان بعد ان نسيتُ القصة قد عادت تنخر في الوسط مرة اخرى،، وذلك الكابوس الذي كنت اخافه قد عاد قبالتي ليجعل حياتي جحيم

شعرت ايلين بالاسى على حال صديقتها وقالت وهي تربت على كتفها :

- آه يا عزيزتي كل هذا مر على راسك ؟ لما لم تخبرينا بالامر ؟

- وماذا كان سيتغير ان اخبرتك انت وريان ؟ فانا نفسي لم اكن مستوعبة له

- انا افهمك، لكن على الاقل لم تكوني لتواجهي كل هذا وحدك

- اعلم انك بجانبي وريان ايضا، لكن هذه المسالة حسّاسة ويفضل ان اواجهها بنفسي فانا لا اريد تعريض اي منكما للخطر، فسليم شخص ذو سوابق ولا اضمن ان يتعرض لكما ايضا

- لا تقلقي كل شيء سيكون على خير الف ما يرام انا اعدك، والان دعينا نذهب لتناول الغذاء فعصافير بطني تزقزق

امسكت ايلين بيد شذى وسارتا الى حي لاسيتي اوزاس تحاولان نسيان ما حدث قبل قليل، فقد ظنت الاخيرة ان الحكاية ماتت بارضها ذلك العام وافتكت منها، لكن يبدو انها بالنسبة لسليم لم تمت بعد وهو الان يريد الحصول عليها ان شئت ذلك ام ابت،، بعد وصولهما اخد مكانا جانبيا في ذلك الدّكان الصغير وقامت ايلين بطلب ساندويتش شاباتي مع قارورة كوكاكولا، وشذى بوراكة مع بيتزا وكأس من عصير البرتقال،، وبالرغم من انها كانت تشعر بجوع شديد الا ان شهيتها في الاكل لم تعد تعتريها بسبب ظهور خطيبها المجرم فجأة ودون سابق انذار، حاولت معها ايلين كثيرا ان تطرد الوساوس عنها مطمئنة اياها ان كل شيء سيكون بخير لكن من دون فائدة؛ دق ناقوس الخطر عليها وبات محدقا بها من كل جانب،، وفي تلك الاثناء لمحت ايلين من الباب الخارجي قرب محل تصليح السيارات حسناء زميلتهم في الدراسة تقف مع شاب طويل القامة مفتول العضلات يرتدي سروال جينز اسود مع تيشرت ارجواني باكمام طويلة وحذاء رياضي من نوع اديداس،، كان واضح جدا انهما يتحدثان عن امر مهم ما اثار فضولها وجعلها تستأذن من شذى لترى من هو هذا الشاب المجهول، خرجت من المحل وسارت ببطئ ناحية اليمين كي ترى ملامح وجهه، وقد اصطدمت بامراة في العقد الرابع من عمرها وكادت توقعها ارضا بسبب قلة تركيزها،، ما دفع بحسناء والشاب للنظر صوب المكان، اذ لفت صراخ المراة على ايلين انتباههما ولِأن الاخيرة شعرت بذلك انحنت ايضا تختبئ خلف سيارة رمادية كي لا يُفتضح امرها، وقد كانت صدمتها بهوية الشخص الذي راته من نافدة السيارة لا توصف جعلتها تفتح فاهها على مصرعيه في ذهول، فقد سبق واخبرتها ريان ان وائل قد غادر البلاد في يوم زفافها لكن ما

راته الان غريب حقا،، ركضت بسرعة الى شذى تخبرها بما راته الان بام عينها، حيث اجابتها الاخيرة باستغراب..

- هل انت متاكدة انه وائل !!!

- اجل بشحمه ولحمه

- اذا لم يسافر الى كندا كما اخبر ريان من قبل، وقد كذب على عليها بخصوص ذلك ؟ لكن السؤال المحير ما الذي يفعله مع حسناء بالضبط وفي هذا المكان تحديدا ؟؟

- لا اعلم يا شذى.. صراحةً انا واثقة ان هناك مكيدة تُحاك في الوسط، وريان وحدها من تعرف القصة.

***

بعد ان انهى هارون صلاة العشاء ارتمى على الاريكة في غرفة المعيشة يشعر بتعب شديد جرّاء هذا اليوم الذي كان حافلا بالمواعيد، من بينهم زوجته ريان التي وجدت نفسها تتحسن رويدا رويدا متجاوزة صدماتها وخيباتها التي عاشتها بسبب خدلان احلامها لها،، كانت جلسة اليوم هي الرابعة على التوالي حيث شعرت ان الاثقال التي كانت متراكمة على عاتقيها قد تلاشت رويدا رويدا، وبدات ترى الامور بوجهة نظر اخرى محاولة التأقلم مع زواجها ووضعها الجديد، كان قرارها قد ادخل السّرور الى قلب هارون بعد تلك الكوارث التي مرّا بها، وقد تفائل خيرا في علاقتهما وانه لم يبقى الكثير ويتغير كل شيء من جذوره،، امسك بهاتفه المحمول وصار يتفحص مواقع الويب يُطالع مقالات فلسفية واخرى علمية عن العقل الباطني للاعداد للدوكتوراه في جامعة كندا، فبعد ان اقدم عليها هنا وصار استاذ جامعي

ناجح ولاق رواجا كبيرا في مهنته قرر الالتحاق بجامعات كندا لتطوير موهبته في علم النفس وبلوغ المراتب العليا، لكن مشكلة زواجه من ابنة خاله قد قلبت جميع الموازين وجعلته يؤجل الفكرة الى بعد حين؛ وبما انه الان صار على اعتاب وضع زواجه في المسار الصحيح قرر الاهتمام قليلا ببحثه والعمل عليه كي لا يفوته الوقت،، فالايام تمضي بسرعة البرق ولا تدركنا اللحظات الا بعد فوات اوانها؛ بقي ساعة ونصف كاملة وهو يطالع مقالات فرويد بكل اهتمام حتى اخده النعاس على غفلةٍ منه، وحلق بعيدا الى ارض الاحلام في دنيا الفانتازيا والخيال العلمي،، وما هي الا ساعة حتى استيقظ بفزع على اصوات صراخ قادمة من غرفة النوم،، بسرعة ترجل من مكانه وركض بهلع حيث تنام ريان ليرى في امرها اذ وجدها في حالة رعبٍ كبيرة، تتصبب عرقا وتلهث بسرعة فائقة،، انفساها متضاربة ووتيرتها على وشك الانفجار، ادرك لحظتها انها رات كابوسا ما جعلها ترتعش من شدة الخوف، فتقدم ناحيتها في عجل ووضع يداه على كتفيها قائلا لها مطمئنا اياها :

- اهدئي عزيزتي لا داعي للخوف انا هنا بجانبك

نظرت الى داخل عينيه السماوية نظرات تحمل معاني كثيرة وكأنها تستنجدُ به وتطلب منه ان لا يتركها بمفردها، ولانه طبيب نفساني قد فهم الى ما ترمي اليه بكل سهولة وقد واصل كلامه عندها ...

- انه كابوس وحسب وسيمُر،، عودي الى النوم الان وانا موجود هنا

امسكت ريان بيده بكل رجاء وقالت تتوسل له..

- نم بجانبي ارجوك !!

خفق قلبه بسرعة رهيبة وهو يسمعها تطلب منه النوم بجانبها، وقد كان على شفا حفرة من اخدها اليه بالاحضان كي يُشعرها بالامان الذي تفتقر اليه،، لكنه تذكر تلك الليلة وما فعله بها فتراجع عن قراره ووقف مكانه يغادر الغرفة بهدوء، لكن صوتها الانثوي الرقيق وهو يُلح على طلبها اوقفه مكانه خصوصا تلك النظرات التي تصرخ باسمه وتنادي عليه، لم يتحمل هارون اكثر من ذلك وسار ناحيتها يحاوطها بدراعيه بكل قوة محاولا معها ان تهدأ قليلا وتنسى ذلك الكابوس،، لاول مرة تنام ريان بكل راحة وامان بعد مرور اسبوع كامل على زواجها،، كان هارون في انتظارها لتغفو كي يعود مكانه، لكن رؤيته لها وهي متشبثة بقميص النوم خاصته وكأنها خائفة ان يهرب بعيدا عنها ويتركها في حال سبيلها، دفعته لان يغير فكرته ويستسلم بدوره للنوم بجانبها يفكر في ردة فعلها غدا صباحا كيف ستكون عندما ترى نفسها نائمة بين احضان الشخص الذي كانت تكرهه ولا تطيق الارض التي يمشي عليها.

اشرقت الشمس الذهبية لليوم الموالي تُرسل باشعتها لتداعب رموش ريان مزعجةً اياها وهي توقظها من حلم جميل راودها،، فتحت عينيها الزمردية ببطئ شديد تحاول الاستيقاظ مع نفسها واستيعاب ما يجري حولها، شعرت ان هناك خطأ ما يُعيق حركتها نظرت يمينها لتتفاجئ من هول المنظر الذي جعلها تفتح عينيها على مصرعيهما، كادت ان تصرخ فيه وتنهال عليه بالالفاظ البديئة لكنها تذكرت احداث ليلة الامس وانها هي من الّحت عليه بان يبقى بجانبها ولا يتركها بمفردها،، لعنت نفسها كثيرا في البداية لاقدامها على امر كهذا وهي لم تتقبله كليا كزوج لها، لكنها ايضا في نفس الوقت بقيت تنظر اليه ببراءة تتفحص ملامح وجهه الرجولية التي تسللت الى قلبها كاعجاب به،، وصارت تداعب وجنتيه التي يكسوها شعر خفيف متراص ببعضه البعض غاية في الاناقة، تتاسف على حالها وتتمنى لو انه بامكانها البقاء هكذا طول العمر، لو بامكانها الاعتراف لنفسها بحبها له وبمشاعرها التي خانتها وصارت تركض اليه بدلا من حبيبها السابق،، هي بدأت تحبه شيئا فشيئا خصوصا بعدما اخبرتها عمتها سهام بانها السبب الذي حرضه ليفعل بها ما فعله تلك الليلة، كما ان وقوفه بجانبها كطبيب نفسي والاعتناء بها جعل قلبها الصغير يَلين تجاهه ويتحول ذلك الكره الى حب بريئ وعفوي،، افاقت مع نفسها وتحركت ببطئ تحمل هاتفها تغادر السرير نحو الحمام كي تغسل وجهها وتطرد النعاس عنها، نظرت نحو انعكاسها في المرآة وسرحت قليلا في ملامحها كيف كانت وكيف صارت الان..

- يجب ان اهتم بنفسي من الان وصاعدا واتقبل الحياة الجديدة كي اعتاد عليها فلا يوجد حل آخر لذلك.

***

حرك هارون دراعه وهو يستيقظ رويدا رويدا فانتبه ان المكان شاغر وريان ليست بجانبه، قام بهلع يستفسر عن سبب نهوضها في هذا الوقت المبكر، وصار يتسائل بين نفسه عن احتمال وجوده بجانبها لربما ازعجها ولم تحبذ ذلك، ترجل من مكانه يتثائب وسار ناحية الحمام فلم يجدها وكذلك المطبخ والغرفة الاخرى ليست هناك،، بدأ القلق يتسلل داخل قلبه خصوصا ان هذه الاحداث قد سبق وعاشها من قبل،، لفت انتباهه عندها ستائر غرفة المعيشة تتأرجح في الهواء يمينا وشمالا فأدرك انها في الشرفة، اذ ركض بسرعة يدعو في سره ان لا تكون قد فعلتها مرة اخرى.. بقي مدهوشا وهو يراها في وضعية غريبة قد احدثت جدلا في دماغه، كانت تجلس على حصيرة، تضع سماعات للموسيقى لدرجة انها لم تنتبه لوجوده ساقاها ممددتان امامها، تُثني رُكبتها اليمنى وتضع قدمها اليمنى على الحصيرة على بضع بوصات من ساقها اليسرى على الناحية الخارجية من ركبتها اليسرى، وتضع راحة يدها اليمنى على الحصيرة خلف الجانب الأيمن من المعدة، بعد ذلك بثواني معدودة قامت بعناق ركبتها اليمنى بواسطة دراعها اليسرى واستمر الحال كذلك دقائق حتى انتفضت بفزع بعد ان فتحت عينيها صدفة لتجد هارون واقفا منتصبا عند باب الشرفة باهتا فيها، شعرت بالخجل والتوتر في آن واحد ونزعت عنها موسيقى التأمل التي كانت تستمع اليها تقوم بتوضيب المكان،، انتبه هارون مع لباسها الرياضي المُغري الذي يُظهر قوام جسدها بشكل مفصل، ترفع شعرها الكيرلي في شكل كعكة وتلفه بوشاح احمر على الجهة الامامية لتبدو اكثر اناقة،، اقتربت من زوجها ببطئ واردفت نحوه قائلة :

- صباح الخير !

افاق من شروده فيها واجابها بهدوء :

- صباح النور كيف حالك اليوم ؟ هل انت بخير ؟

استغربت سؤاله عنها وبطريقة يبدو عليها القلق ثم تذكرت ذلك الكابوس فاجابته عندها :

- اجل بخير.. احيانا يحدث معي هذا استيقظ منتصف الليل وانا اشعر بالخوف والهلع وكأن احدهم يركض خلفي

- اوه هذا مثير، على كلٍ انا دائما بجانبك وثقي انه لن يحدث لك شيء لطالما انت معي يا ريان

بقيت تنظر ناحيته سارحة في تلك العينين السماوية التي تُثير الاعجاب، فبسبب كرهها له واشمئزازها من الطريق التي جمعتهما سويا لم ترى جماله الآخاذ الرجولي الذي يذيب القلب ويُذهب العقل، افاقت مع نفسها على حديثه قائلا لها :

- هل كنت تمارسين اليوغا ؟

- اجل، لقد ذهب عني النعاس وارتأيتُ ان اقوم ببعض التمارينات كي استعيد نشاطي

- جيد، سُررت لاجلك، هذا تطور ملحوظ في حالتك

- الفضل كله لله ثم لك، لقد كنت سندا لي بالفعل

- لقد سبق واخبرتك من قبل انه يجب علينا ان نتأقلم على حياتنا الجديدة، واننا زوجين الان كي نعتاد على بعض

كانت ريان تفهم ما يرمي اليه بكلامه، لكنها ايضا تشعر نفسها انها غير مستعدة بعد لذلك، خصوصا عندما تتذكر ليلة زفافها التي اثرت سلبيا عليها،، تنحنحت بخفوت وقد احمر وجهها من الخجل وقالت :

- اريد هذا ايضا ولكن ليس بيدي يا هارون.. ومع هذا اذا كنت ترغب بالامر فساكون طوع اوامرك فبالنهاية انت زوجي

- لا اريده اجباري عنك، فقد وعدتك انني لن امسّك الا برضاك

- واذا طال رضاي ؟

ابتسم هارون بعذوبة معها واقترب منها لدرجة انه لم تعد تفصلها عنه سوى بضع ميليمترات ثم حاوط خصرها بدراعه وجذبها اليه ليرتطم جسدها النحيل ببنيته الضخمة، ما جعل قلبها الصغير يرفرف من التوتر داخل قفصها الصدري بعدها اجابها بثقة :

- انا اعلم انه لن يطول بل ومتاكد ايضا،، فانت سترضخين لجاذبيتي في نهاية المطاف يا زوجتي العزيزة

بعدها طبع قبلة صغيرة على جبينها بعدما امسك نفسه بصعوبة على التهام تلك الكرزتين اسفل انفها والتي اخدتاه عشقا ولم يعد يصبر عليهما اكثر، تاركا اياها في عالم اخر تحاول قدر المستطاع الاعتياد على مثل هذا الامور،، افاقت مع نفسها وقصدت المطبخ لاجل اعداد فطور الصباح فلم يبقى وقت على مغادرة زوجها المنزل. جلس الاثنان سويا يتجاذبان اطراف الحديث يُكملان مرحلة التعارف التي بدآ بها منذ ثلاثة ايام اين ما توقفا امس، يتكلمان عن كل ما يجوب له الخاطر، عن طفولتهما ومرحلة الشباب والمغامرات التي عاشتها ريان فترة الثانوية وكيف تعرفت على ايلين وشذى وكل شيء لم تترك حكاية الا وقصتها له وهو يستمع اليها بكل حب سعيد لاجلها انها تخطت مشكلتها واخيرا، اما هي فقد بدات تتسلل اليها مشاعر غريبة لاول مرة تعيشها، لكنها تظل تتجاهلها ولا تدري سبب ذلك،، في تلك الاثنان رن هاتفها الجوال على نغمة سيمفونية بيت هوفن قد غيرتها لاسباب خاصة والتي لفتت انتباه هارون الذي قال لها بمزاح :

- لا اصدق انه لدينا نقطة مشتركة ! هل تحبين سيمفونيات بيت هوفن ؟

قالت له قبل ان تجيب على المكالمة :

- بل واعشقها،، فهذا النوع من الموسيقى راقي ولا يتقن سماعه مُعظم البشر

ثم حركت شاشة هاتفها باصبع سبابتها تُجيب على خطيبة شقيقها سليم التي احدث اتصالها الفضول داخل عقلها...

- اهلا منال كيف حالك ؟

احابتها الاخرى بنبرة صوت مضطربة ..

- ريان هل هارون في البيت ؟

- اجل لماذا ؟ ماذا هناك ؟ ولما صوتك مضطرب ؟

- ارجوك اخبريه ان يأتي الى المشفى الذي اعمل فيه وبسرعة البرق

امسكت ريان بقلبها وقد انهش الفضول تفكيرها تنظر الى هارون الذي لا يقل عنها بشيء واردفت قائلة :

- منال لا تلعبي على اعصابي واخبريني ما الامر ؟

- لقد اسعفوا صديقتي المقربة نسرين الى المشفى الان بسبب حادث سيارة وابنها الصغير بلال لا يُردد سوى اسم هارون زعيم لا اعلم ما الصلة التي تربطه به لكن من الاحسن ان ياتي زوجك ويهتم به حتى أُعلم عائلتها بالامر

وقفت ريان مكانها بفزع وردت قائلة :

- حسنا حسنا ساعلمه حالا

اغلقت المكالمة والتفتت على هارون بعيون دامعة تخبره بما حدث مع تلك السيدة، وان ابنها يريده الان وبشدة حيث نزل الخبر عليه كالصاعقة وركض بسرعة ناحية الباب يرتدي حذائه ويطلب من زوجته ان تحضر له اشيائه، لكنها الّحت عليه بالذهاب معه وان لا تتركه بمفرده فقد سبق وتعرفت على مريضه وتريد الوقوف بجانبه كانسانية منها، في البداية رفض هارون الفكرة لكنه بعد توسلاتها رضخ للامر ولا سيما ان الوقت ليس في صالحه،، بعد نصف ساعة من الطريق كانا هناك اذ ترجلا من السيارة وركضا بسرعة ناحية جناح العمليات ليلمحا في رواق الطابق الثاني بلال منكمشا على نفسه يتربع بلاط الارضية ويضع يداه على اذنيه، اقترب هارون منه ودنى نحوه يحاول تهدئته بشتى الطرق، وقد فعل معه كما

فعل في المرة الفارطة، اخده اليه بالاحضان ليشعره بالامان وانه ليس وحيدا،، كانت ريان تقف بالقرب منهما تشاهد ذلك المنظر الذي اثّر على مشاعرها وصارت تبكي تلقائيا وبشراهة ايضا على ذلك الصغير الذي على وشك ان يخسر سنده الوحيد في هذه الدنيا بعد الله سبحانه وتعالى، كان المشهد مؤثر جدا لدرجة ان بعض الممرضات قد توقفن هنيهة وهن يمرون من الرواق يتأسفن على حال الولد،،، مرت خمس دقائق وهارون يعانق بلال كي يهدأ قليلا حتى تأكد من ذلك فابتعد عنه ببطئ وامسكه من كلتا دراعيه قائلا له :

- لا تقلق يا صغيري، ستكون الماما بخير وستعودان سويا الى المنزل

- لا يوجد احد لدى بلال سوى ام بلال .. بلال لا يستطيع العيش بدون والدته

- اعلم اعلم يا عزيزي وهي ستكون بخير كما اخبرتك لا تقلق

تلك اللحظة لم تتحمل ريان سكوتها اكثر، وتقدمت نحو الطفل تجلس بجانبه على الكرسي الحديدي، تربت على كتفه بحنان تحاول اخفاء حزنها ودموعها ثم اردفت بعد ان سكت هارون قائلة :

- ما قاله طبيبك صحيح يا صغيري الجميل، الماما ستكون بخير وستُشفى باذن الله انا اعدك بهذا

نظر بلال نحوها بالم وقال وهو يمسك بيدها :

- ارجوك لا تتركيني ابقي بجانبي،، لقد احبك بلال كثيرا

شعرت ريان باحساس غريب وقد ران قلبها للصغير لا راديا وقالت له عندها :

- اعدك انني لن اتركك ابدا حتى تشفى امك وتعود الى كامل وعيها،، ريان تعدك بهذا يا عزيزي

وفي تلك الاثناء اقبل نحوهما شاب يصرخ وينادي في الرواق على شقيقته نسرين ويسأل اي ممرضة يقابلها في طريقه،، كما ان صوته قد زعزع اركان الطابق الثاني الخاص بالعمليات؛ حيث ما ان وصل حتى كانت المفاجاة كبيرة عليه وهو يرى حبيبته السابقة تجلس على الكرسي بجانب بلال وبرفقتها رجل اخر،، تنحنح بخفوت وقال يتقدم نحو بلال :

- بلال !! هل انت بخير ؟ اين هي نسرين ؟؟

رفع كل من هارون وريان راسيهما ناحية الصوت الذي بدا مألوفا جدا للاخيرة، حيث كانت الصدمة لرؤيتها له غير متوقعة ابدا، وقد شعرت لحظتها وكأن احدهم قد سكب عليها دلو ماءٍ بارد،، اما زوجها فقد وقف مكانه وباشره بسؤال قائلا :

- هل انت قريب من السيدة حمادو ؟

- انا شقيقها الاصغر وائل السّبوعي

مد هارون يده ناحيته يقوم بمصافحته وقد اجابه بعدها :

- متشرف بك، انا هارون زعيم طبيب نفساني وبلال مريضي منذ ما يقارب شهر ونصف ... بصراحة لقد اخبرتني نسرين عن عائلتها قليلا انتما اخوان من الاب فقط ؟

- اجل حضرة الطبيب .. كنا نلتقي من فترة لاخرى بالرغم من المشاكل التي بينها وبين امي، لكن انا لم اقطع صلتي بها ابدا والحمدلله لم نكن نشكو من اي مشكلة

- فهمت،، من اخبرك بالحادث ؟

- اتصلت الممرضة بالبيت وامي من اجابت على الخط وهي بدورها اخبرتني ان ارى في وضعها.. كيف حالها ؟ هل من اخبار ؟

- انها في العملية الان،، نحن ايضا في الانتظار

- ما صلة قرابتك باختي ؟ ومن تكون هذه ؟

كان وائل يتكلم وينظر الى ريان التي لا زالت الصّدمة والخوف مسيطران على ملامح وجهها، لا يصدق انها بالفعل تزوجت ورمت حبه في البحر،، كان يلاحظ الالم في عينيها جيّدا لا يدري ان كان بسبب الحزن على اخته ام بسبب شيء اخر؛ لكنه ايضا لا يستطيع ان يسألها عنه، فهو الان غريب بالنسبة لها ولم تعد تربطها به اي صلة قرابة،، افاق من شروده على صوت هارون وهو يجيبه :

- هذه زوجتي ولا علاقة لها باختك .. الطبيبة المشرفة على العملية من اقاربها وقد اتصلت عليها لان بلال دخل في نوبة هستيريا وكان يردد اسمي

- اوه فهمت

انتبه هارون على تغير ريان المفاجئ فور قدوم هذا الشاب، وكذلك لاحظ نظراته الغريبة تجاهها لكنه تجاهل الامر مؤقتا نظرا للوضع الذي هم فيه،، بعد مرور ساعة الا ربع خرجت منال من غرفة العمليات برفقة الطاقم الطبي وفي عينيها حزن كبير والم لا يُقهر وبالرغم من اعتيادها لهذه الاجواء الا انها لم تتمكن من امساك نفسها وسقطت على الارض تبكي بشراهة وهي تنزع الكمامة عنها،، حيث كانت وضعيتها اجابةً على الاسئلة التي ينتظرها الجميع بخصوص المريضة اقتربت منها ريان وقالت باسى وهي تدنو منها تاخدها اليها بالاحضان..

- عظم الله اجرك يا منال ... كل نفسٍ ذائقةٌ الموت

تلك اللحظة فقد وائل السّيطرة على اعصابه بسبب صدمته بوفاة اخته، وهو قد سبق ووعدها انه سياتي بها الى كندا فور ذهابه اليها،، سقط على الارض يصرخ باعلى صوته وينادي باسمها والدموع قد انهمرت على وجنتيه مثل زخات المطر،، وقد قام هارون بمواساته بعض الشيء، يطلب منه ان يكون اكثر قوة فهذه سُنّة الحياة ومآل الجميع هو الممات والعودة الى الحي الذي لا يموت،، ثم التفت على بلال الذي لم يستوعب بعد ما يجري حوله وقام بعناقه بحرارة عناق الاب لابنه يعده انه لن يتركه وحيدا مهما كلفه الامر.

***

حياة جديدة...

كان الظلام يحاوط المكان من كل حدب وصوب واصوات الباعة قد ملّت ارجاء المكان لدرجة انها اخترقت منطقة الراحة خاصته وجعلته ينزعج كثيرا وهو يجلس على ذلك الكرسي قرب النافدة، في انتظار الطبيب كي يرى في حالته اين وصلت بعد تلك الصدمة التي قاساها بعد وفاة والدته الفجأة،، لم يمضي وقت كثير على مكوثه في مكتب هارون حتى دلف عليه وهو يبتسم ناحيته بعفوية يعتذر منه عن التأخير الذي كان خارج عن نطاق ارادته، جلس على الكرسي وخاطب الصغير وهو يعبث بحاسبه المحمول لاجل دروس المحاضرة..

- اذا ايها البطل اين وصلنا اخر حصة ؟

لم يتلقى هارون اي جواب منه كما انه قد توقع هذا كثيرا فقد بات يعرف طباع بلال وان التوحد لديه يجعله من النوع الكتوم ولا يألف الناس بسهولة،، طنش هارون ثواني يُطلق تركيزه مع الايميل الذي تعذر عليه ارساله لمسؤول المجموعة من الطلاب للبدء في المراجعة حيث تطلب منه بعض الوقت بسبب انعدام الشبكة المؤقت، بعد ان انهى عمله التفت على بلال الذي بقيت ملامحه كما هي شارد الذهن الى الاسفل يشبك باصابعه بسبب التوتر وقال له بلطف :

- ما رايك ان نذهب لمشاهدة مباراة لكرة القدم يوم الاثنين ؟

- بلال لا يحب كرة القدم

- اذا ماذا بحب الصغير بلال ؟

- يحب صيد السمك

تذكر هارون كلام والد بلال حول هذه النقطة وقال بعدها باهتمام :

- هل سبق واصطدت السمك مع احد ما

- لا.. اتذكر انني عندما كنت ضغيرا كان ابي يحب اصطحابي معه لصيد السمك، لكن انا لم اكن اعرف كيف افعل ذلك بسبب وضعي، وهذا ما دفعه للتخلي عني لانني دائما ما كنت ارفض طلباته

سكت بلال قليلا وقد احمّرت وجنتاه بسبب التوتر ثم واصل كلامه قائلا :

- بلال لا يريد ان يكرر نفس الخطأ ويخسر والده الجديد

خفق قلب هارون بشدة فور سماعه للجملة الاخيرة كما انه شعر بالاسى حيال هذا الصغير الذي يعلق كل آماله عليه، تذكر هارون تلك اللحظة حواره مع منال التي اتضح معه انها صديقة المرحومة نسرين المقربة من ايام الجامعة، وقضتا فترة التدريب سويا في مشفى الخروبة،، كما انهما بقيتا على تواصل حتى بعدما تزوجت...

بعد اليوم التي توفيت فيه نسرين والذي كان بمثابة صدمة بالنسبة لي ولبلال لم اجد بدا آنذاك سوى ان اصطحبه معي الى البيت بحكم ان الصغير لا يرغب الذهاب مع اي احد سواي، وحتى خاله وائل لم يكن يريد مرافقته بل كان عدائي جدا معه عندما طلب منه مرافقته الى البيت، وهو ايضا شعر بذلك اذ لم يلح على اخده لكنه طلب منا ان نكلم ابيه فهو الوصي الوحيد والمسؤول عنه شرعا وقانونا،، كنتُ اعلم انها ليست فكرة سديدة لعلمي انه لم يتغير شيء بخصوصه، لكن كان من واجبي ان افعل اللازم... اوصلتُ بلال مع ريان الى البيت وادرت المقود الى منزل ذلك الاناني كي اخبره بوفاة زوجته، وقد كنتُ طوال الطريق متردد

من الامر بسبب خوفي من ردة فعله او ان يغير رايه ويأخده، كنت اتوق لاعيش شعور الاب واسمع كلمة بابا من ولد صغير ما زال في طور النمو والاكتشاف والمعرفة، ان اساعده ليتجاوز العقبات ويأتيني هو بدوره ويشكو لي ما دار بينه وبين اصدقائه او مسائله مع احلامه التي يراها هو بعيدة المنال واراها انا قريبة فأصِله بها،، وبلال قد جعلني اعيش هذه المشاعر الرائعة،،، بعد ان وصلتُ الى بيت السيد رابح حمادو صادفته قرب باب مدخل البناية،، حيث تزّجلت من سيارتي انزع نظاراتي السوداء، ثم قلت وانا القي عليه تحية السلام..

- مرحبا سيد رابح حمادو !!

التفت الاخير ناحية الصّوت واجابني باستغراب بدا واضح جدا على ملامح وجهه :

- انت ثانية ؟ ماذا تريد مني يا رجل ؟ لقد اخبرتك ما عندي ذلك اليوم ؟

حاولت ان امسك باعصابي قدر المستطاع ثم اردفت ناحيته :

- لا تقلق لم اتي لاجل بلال هذه المرة

- اذا لاجل ماذا ؟

- اريد ان ابلغك ان زوجتك نسرين السّبوعي قد وافتها المنية هذا الصباح، بسبب حادث سيارة وقد ماتت اثناء العملية

كنت ارى الصّدمة جيدا في عينيه بالرغم من انه كان يُظهر العكس، وقد بقي صامت ولم ينبس ببنت شفة بسبب عدم وجود ما يُقال في وضعٍ كهذا فقد ظلمها جدا ورمى بها وطفلها بسبب اصابته بطيف التوحد ولن يرحمه عذاب الضمير الان، سيرن في اذنيه مثل طنين النحل كلما وضع راسه على وسادته،، بعد مرور ثواني معدودة قال باسى :

- لقد حزنت لاجلها بالفعل فليتغمد الله روحها بالرحمة

- انت الوحيد الان المسؤول عن بلال والوصي عليه، ولكن ابنك لا يريد غيري بجانبه كما انه كان يردد اسمي وحسب عندما اسعفوا امه وادخلوها جناح العمليات

- يعني ...

- اريد ان اتبنى بلال، وان تتنازل لي عن حقك بالوصاية امام المحكمة ؟

فتح الاخر عينيه في ذهول لم يصدق ما سمعه مني،، ربما لانه لم يتوقع مني موقفا كهذا خصوصا انه تبرأ هو منه بسبب مرضه...

- لما تهتم لامر طفل مريض بمتلازمة لا علاج لها ؟

- لا علاقة لك .. قل لي هل انت موافق ؟

في بادي الامر تردد وقد خِلت انه سيرفض، لكن اجابته كانت عكس ما كنت اتوقع..

- حسنا،، انا اقبل اساسا قد تخليت عن دوري كاب لبلال منذ سنوات ولن يتغير شيء الان .. بلال محظوظ حقا لانه وجد شخصا يرعاه احسن مني.

عدت بسرعة الى المشفى وانا سعيد بهذا الخبر وقد اتصلت على سليم في طريقي كي اخبره ان يوافيني الى مقهى الحرية لاجل طلب المساعدة منه في هذه المسالة، كونه محامي شاطر ولم يخسر قضية منذ ان دلف في هذا المجال.. صادفتني منال خطيبته في طريقي اليها اسألها عن اجراءات نقل الجثة لاجل الصلاة والدفن وقد اخبرتني ان شقيقها ووالدها الذي اتى بعد مغادرتنا نحن سيتكفلان بكل شيء، استوقفتني بعدها وانا في طريقي الى البيت قائلة :

- هارون اريد ان اخبرك بشيء مهم !؟؟

- تفضلي ؟

- قبل اربعة ايم كنت اجلس مع نسرين في شرفة بيتها نتبادل الهموم والحكايات حتى فاجئتني بطلبٍ غريب لم اهضمه ساعتها حتى هذا اليوم

- ماذا قالت لك !!

- اخبرتني انه اذا حدث معها شيء مفاجئ في هذه الحياة، فبلال امانةٌ عندك وقد اخدت مني وعدا ان اقول لك على لسانها هذا الكلام فانت الوحيد الذي تثق فيه ويثق بلال فيه ايضا

- لا تقلقي حتى ولو لم تخبرك هي بذلك فانا كنت سارعاه

- لقد فرحت بهذا، ارجو ان يعتاد عليك وعلى ريان كعائلة جديدة

افاق هارون من شروده سارحًا بنظراته في ملامح الطفل التي تبددت جدا بعد وفاة امه،، كاد ان يتكلم معه من جديد لكن صوت الهاتف حال دون ذلك اذ اتصلت ريان عليه تخبره انها اسفل البناية لاجل اصطحاب بلال معها الى البيت.. اغلق المكالمة معها وامسك بيد الصغير يجره بلطف الى حيث زوجته وفور وصوله استرسلت نحوه الحديث قائلة :

- كيف حاله اليوم ؟ هل استجاب لك ؟

- قليلا،، احسن من امس وقبله

- هارون هل من جديد بخصوص دعوة الوصاية ؟

اجابها :

- ليس بعد، لقد كلمني شقيقك قبل قليل وقال ان الامر يستغرق بعض الوقت

- كم تحديدا ؟؟

- شهر او شهرين على الاكثر

بدا الحزن على ملامح وجهها قد لاحظه هارون جيدا لكنه لا يستطيع فعل شيء لاجلها،، اخدت تربت على فروة شعر بلال ثم اردفت..

- لقد بدات اعتاد وجود هذا الصغير جدا في حياتي، كم اتمنى ان تنتهي اجراءات الوصاية باقرب وقت

- اساسا انت تعتادين على اي شيء في هذه الدنيا عداي انا

قالها هارون بنبرة مزاح محاولا تلطيف الجو بينه وبينها، والتي بقيت ترمقه بنظرات استغراب لكلامه، وقلبها الصغير يتطاير داخل قفصها الصدري من شدة الخجل ...

- ما هذا الان ؟

- امزح امزح معك لا تحزني .. بالمناسبة كيف حال امك والبقية ؟

- بخير انها تسلم عليك، وقد حزنت كثيرا لاجل وفاة تلك المراة

- وماذا كان رايها بشأن بلال ؟

- بالبداية رفضت بسبب وضعه، لكن استطعت ان اقنعها واجعلها تتقبل الموضوع

- فهمت.. المهم خدي بلال الان الى البيت انه متعب ويحتاج الى النوم، وانا ساحاول تاجيل اخر موعد كي اعود باكرا

- حسنا

امسكت ريان بيد بلال تجره بلطف خلفها نحو موقف السيارات وعقلها يفكر بتلك الجملة التي قالها هارون لها (اساسا انت تعتادين على اي شيء في هذه الدنيا ما عداي انا)، شعرت ببعض الحزن والاسى على حاله وحالها ايضا فبالرغم من تواجدهما في نفس البيت، الا انها لم تتمكن من ان تخطو نحوه تلك الخطوات لتكسر الحاجز الذي يمنعها عنه،، بعد ان استقلت السيارة طلبت من السائق ان ياخدها الى حي الزعفرانية، وفي طريقها رن هاتفها الجوال على نغمتها المفضلة والتي اثارت انتباه ذلك الشاب الثلاثيني،، اجابت على الخط بعدما لمحت اسم شذى على الشاشة قائلة :

- اهلا ريان صباح الخير

- صباح النور كيف حالك عزيزتي ؟؟

- بخير وانت ؟ ما اخبارك وكيف صرت الان ؟

- الحمدلله .. احاول ان اكون قوية قدر المستطاع

- كان الله في عونك.. بالمناسبة لقد فكرنا ان نزورك انا وإيلين بعد الظهيرة ان كنت متاحة طبعا ؟؟

- اجل انني في البيت وسيسعدني قدومكما فقد اشتقت كثيرا اليكما

- ونحن ايضا اشتقنا لك اذا موعدنا مساءا

- حسنا.. مع السلامة

- اللقاء

***

دلفت ريان الى الدّاخل وتوجهت الى الغرفة الاخرى من المنزل تقوم بتغيير ثياب بلال بعد ان احضرتهم منال من بيت نسرين الذي كانت تستأجره من عند الفاكهاني سليمان، كما انها تبرعت بجميع الاثاث للجمعيات الخيرية كصدقة جارية على روح المرحومة.. شردت ريان قليلا في تفاصيل وجه بلال التي وجدتها حزينة لابعد الحدود،، وراحت تُفكر في الاحداث التي جرت معها مؤخرا وكيف دارت بها دوامة القدر الى نحوٍ معاكس تماما لم تتوقعه ابدا، فجاة بين عشية وضحاها وجدت نفسها متزوجة من شخص تكرهه وسيصبح لديها ابن بالتبني ايضا،، ابتسمت بسخرية لحظتها على حالها الذي لا يصدقه العقل؛ وقامت بعناق بلال بكل

حب وحنان تشم رائحته العبقة التي تفوح بعطر الخزامى،، بعدها طلبت منه ان يرافقها الى المطبخ لاعداد فطور الغذاء، كانت تعلم انه يحب وجبة البطاطا المقلية مع دوائر اللحم المفروم المشوية، وقد اضافت عليها ايضا شوربة العدس الاحمر لاجل هارون... انخرطت ريان مع تقشير حبات البطاطا والبصل ولم تنتبه مع بلال الذي قام من مكانه وتسلل بهدوء الى غرفة المعيشة تحديدا الى الطاولة التي وجد عليها اوراق بيضاء مرمية بعشوائية والوان مائية واخرى خشبية وقلم الرصاص بجانبه ممحاة على شكل سيارة حمراء ومبراة حديدية،، كانت ريان تغني بمرح تتمايل يمينا وشمالا سعيدة باعتيادها على حياتها الجديدة التي بدات تتخللها الحيوية والحماس، حتى شعرت فجاة بوجود خطأ ما وان ذلك الكيان الذي كانت تلمحه بطرف عينها لا يجلس على الكرسي خلفها، امسكت بقلبها من الخوف ووضعت السكينة جانبا تنادي عليه وتبحث عنه حتى شعرت بالاريحية ما ان راته يجلس على الطاولة في غرفة المعيشة يمسك بقلم الرصاص الخاص بها ويزخرف بابداع على اوراقها التي نسيتها موضوعة هناك، اقتربت منه رويدا رويدا حتى صارت فوق راسه ترى ماذا يرسم، حيث كانت الصدمة بما راته كبيرة جدا، ازدرت ريقها بصعوبة وقالت له بعدم تصديق :

- هل انت من رسم هذه الان ؟!!!

- اجل

- لا اصدق هذا !!

- بلال يحب الرسم منذ ان كان في عمر الخامسة

- والله انك نابغة في الرسم يا صغيري انا في هذا العمر لا استطيع اتقان رسمة كهذه

- هل برايك ستعجب امي اين ما كانت ؟

لمعت عيناها بالدموع لكلامه ولم تجد ما تقوله وقتها،، ابتسمت بحنية واردفت وهي تجلس بجانبه..

- بالتاكيد ستحبها يا صغيري وستحب امك كل شيء جميل تفعله انت

- هل هي تراني الان ؟

- لا اعلم صدقني فانا لست فقيهة في هذه الامور، لكن اعتقد انها تشعر بك وانها تركتك بين ايدينا، واحتمال ايضا انها سعيدة لاجلك لانك ستواصل حياتك رغم فراقك عنها

- بلال يريد ان يكون معك ومع الطبيب هارون، فانتما قد احببتما بلال بالرغم من انه مصاب التوحد

- ونحن ايضا نحبك يا صغيري والتوحد لا يمنعك ان تعيش حياتك مثلنا، فانت يحق لك فعل ما نفعله، والذي يقول العكس لا تستمع له .. هل اتفقنا ؟

- اجل اتفقنا يا صديقتي

طبعت بعدها قبلة صغيرة على جبينه بصعوبة بعد ان كاد يصدها، اذ اسلوبها الحنون معه جعلها تقتحم منطقة الراحة خاصته وتنجح في الاقتراب منه،، ثم عادت الى المطبخ لاجل انهاء مهامها قبل عودة زوجها تاركة اياه سعيدا برسمته التي اخدت عقلها اعجابا.

***

رن جرس المنزل معلنا وصول صديقاتاها التي هي في انتظار قدومهما على احر من الجمر،، فتحت الباب بسرعة واخدتهما اليها بالاحضان والتهاليل معبرة عن الفرح برؤيتها لهما، بعدها راحت تقوم بجولة خفيفة معهما تريهما بيتها الجديد التي صارت سيدة فيه، حيث اثار ديكوره التركي اعجاب الفتاتين كثيرا كما اثار اعجابها هي تلك الليلة،، بعد خمس دقائق جلسوا على الاريكة في غرفة المعيشة وقد باغتتها شذى فورا بسؤالها :

- اذا يا انسة ريان عبدالله ما هي اخر التطورات التي حدثت معك ... هل صحيح انك قررت ان تتبني مريض زوجك ؟

وضعت ريان اصبع سبابتها على فمها كحركة منها لاسكات صديقتها وقالت :

- شذى اخفضي صوتك ارجوك هارون هنا ينام في الغرفة مع بلال

- اوه اسفة ؟

- ا وليس في العمل الان ؟ .... سالتها ايلين بفضول

- لا،، لديه دوام في الجامعة زوالا لكنه لم يذهب بسبب الوضع

- امم فهمت،، اذا مسالة التبني جدية ؟

- اكيد جدية يا بنات لقد تركت المراة ابنها امانة لدى هارون، ولا اعتقد انه سيتخلى عنه، ثم انا اعتدت وجوده ودخل قلبي من اول مرة رايته فيها في العيادة

تبادلت كل من الفتاتين نظرات التعجب حول كلام ريان فهي لا زالت صغيرة في نظرهما على تحملها مسؤولية طفل ولا سيما اذا كان مصاب بالتوحد،، اردفت شذى معها قائلة :

- ريان اسمعيني اعلم انك متحمسة للامومة وعيش التجربة، لكن الامر ليس بتلك السهولة صدقيني لا تنسي انه مريض توحد

- لدى الجميع اعاقة يا شذى البعض جسدي والبعض الاخر ذهني، لهذا لا تقلقي علي انا اعي ما افعل وارجو منكما ان تدعماني في هذا

تنهدت ايلين بياس واجابتها :

- حسنا،، وماذا كان راي عائلتك وعائلة هارون ؟

- امي عارضت في البداية وحتى فادية ايضا لكن تمكنت من اقناعهما بعد عدة محاولات ... اما عمتي سهام فلم توافق حتى الساعة، ويبدو انها لن تتقبله ايضا حسب معرفتي السطحية بها

- ومتى موعد جلسة المحكمة ؟

- حسب راي اخي سليم فان الامر يستغرق شهرا كادنى حد

اخرجت ايلين من كيس الهدايا الذي احضرته معها علبة مغلفة بورق مزركش بالقرمزي وملفوف بشريط احمر على شكل فراشة،، وقدمته لريان التي ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة سعيدة بحركة صديقتها،، اخذته عنها وقامت تفتحه بحماس متلهفة لمعرفتها نوع الهدية، كانت تلك الساعة قد اخذت استحسان ريان على حين غرة عندما كانت تتسوق في المحلات التجارية رفقة وائل ولانها لم تكن تحمل قِدرا كافيا من النقود لشرائها اقتناها لها حبيبها كتذكار منه، اجتاحتها لحظتها موجة حنين ومشاعر جياشة تعود بها الى الماضي السحيق وقد ترقرت عيناها بالدموع وهي تحمل تلك الساعة الرملية بين يديها وقالت بعدها :

- احسنت يا ايلين لقد اعدتني للماضي بهديتك هذه

رفعت الاخيرة حاجبها الايمن في استغراب واجابتها :

- لم افهم قصدك ؟

انها نفس الساعة التي اهداني اياها وائل العام الماضي، والتي قمتُ بتحطيمها الى اشلاء اليوم التي تركني فيه

اردفت شذى نحوها باسى :

- ريان انت الان متزوجة وزوجك ينام بالداخل !!

- اعلم لا داعي لتذكيري

قامت بعدها الاخيرة بتقديم هديتها لها والتي هي عبارة عن حاملة مفاتيح لثائي جميل،، قد جعلت دقات قلب ريان تقفز من الفرح والسرور، اجابتها بخبث..

- لقد فهمت قصدك ايتها المحتالة بهذه الهدية،، على كلٍ ساضعها بدل الصبارة تلك وهكذا لن يكون بحوزتي أي ذكرى تخص الماضي

- هكذا احسن لك

تنحنحت ايلين بخفوت وتذكرت امر ذلك اليوم عندما رات وائل مع حسناء حيث قالت لها باهتمام :

- بالمناسبة يا ريان على سيرة وائل هناك موضوع مهم يجب ان اخبرك به ؟

اجابتها ريان والفضول قد طرق طبول افئدتها :

- خيرا ما هو هذا الموضوع ؟!

- قبل اسبوع او اكثر بينما كنت انا وشذى نتناول الغداء في محل الوجبات السريعة الذي بجانب عيادة زوجك، رايت حسناء تقف مع وائل وقد كان يظهر عليهما انهما يتكلمان حول امر مهم، والصراحة لم نفهم سبب وقوفهما هناك بالتحديد

- الغريب في الامر هو ما علاقة حسناء بوائل، طوال فترة علاقتنا لم اره يتكلم معها ابدا، لكن العادي هو ان حسناء مساعدة هارون منذ ما يقارب الستة اشهر وهو نفسه حبيبها السابق الذي صرعت رؤوسنا بالحديث عنه طوال العام الماضي

فتحت كل منهما عينيها في ذهول لا تصدقان الامر والصدفة الغريبة التي جمعت الثلاثي معا،، تلك اللحظة خاطبتها شذى :

- انظري لحسناء كيف القت بشباكها على طبيب نفساني واستاذ جامعي ايضا، المفيد كذلك ان وائل لم يسافر الى كندا لقد كذب عليك

- اعلم هذا

- تعلمين ! كيف ؟

- لن تصدقا ايضا ان اخبرتكما الان انه خال بلال، وشقيق نسرين من الاب

شهقت كل من ايلين وشذى تضعان ايديهما على شفتيهما وقد كادت ان تتكلم الاخيرة لكن صوت الباب حال دون ذلك حيث ظهر عليهما هارون يلقي تحية السلام ويطلب من ريان ان تلحقه الى المطبخ لامر ما،، استاذنت منهما ولحقت وراءه كي ترى في امره...

- ماذا هناك ؟ هل بلال بخير ؟

امسك بقنينة المياه المعدنية وارتشف منها بضع رشفات ثم اردف نحوها :

- اردت ان اعرف ان كنت تحتاجين الى شيء ؟

- مثل ماذا ؟

- بخصوص الضيافة،، هل اشتري لك بعض المرطبات ؟

- لا... لا داعي لقد حضّرت بعض الاشياء قبل قدومهما كن مطمئنا

- حسنا... بالمناسبة بلال نائم الان واحتمال ان يستيقظ في اي لحظة، انتبهي له يا ريان فقد تصيبه نوبة هستيريا مثل ما حدث امس

- لا تقلق ساكون حريصة

غادر هارون المنزل تاركا مساحة لزوجته كي تشعر بالاريحية مع صديقتيها، حيث طلبت منهما ان يخرطا عليها الى المطبخ لاجل اعداد القهوة، وقد انخرطن معا في الاحاديث الطويلة حول شتى الميادين كما اعتدن ذلك قبل زواجها،، كان الجو مشمسا حينها فارتأت ريان ان تفتح نافدة المطبخ لتستقبل نسائم البحر الابيض الشرقي، تُفرغ ما في جعبتها لرفيقتيها حتى توقفت عند وصولها لاول ليلة من زفافها اذ احمرت وجنتاها وغيّرت الموضوع،،، انتبهت شذى معها وقد قالت لها بفضول :

- اكملي لما توقفت ؟

- لا اريد ان اتكلم حول هذا الموضوع

- على راحتك عزيزتي، لكن اعلمي انك لن تجدي احسن من هارون زوجا لك صدقيني

- وما ادراك انت ؟

قاطعتها ايلين بمرح وقالت وهي ترتشف فنجان القهوة مرفقا بقضمة من البانكيك :

- تعالي لنقوم بتحدي صغير للاختيار بين الاثنين

- كيف هذا ؟

- لنبدأ اولا بالجاذبية ؟ هل برايك وائل اكثر جاذبية ام هارون ؟

اجابت شذى عندها بدلا عن ريان قائلة :

- اكيد هارون وبدون منازع

بقيت ريان برهة زمنية تفكر بينها وبين نفسها من جهة هي تعلم ان زوجها وسيم جدا ومن جهة اخرى لا تريد ان تعترف بالامر، لكن إيلين وضعتها تحت الامر الواقع ولم يعد بامكانها الهروب اكثر،، قالت بعد تردد ..

- حسنا اعتقد ان شذى محقة

- اذا نقطة لهارون.. ننتقل الى السؤال الثاني ؟ من الذي يمتلك شخصية جذابة ومتفهمة ؟ هل هارون ام وائل ؟

وكما حدث مسبقا اجابت شذى بدلا عن ريان ...

- معروف من هو ا ليس كذلك يا ريان ؟

- حسنا اتفق معكما، هو انسان جذاب وذو شخصية قوية، متفهم وخلوق ولا مثيل له وقد رأيت هذه الصفات خلال رحلتي الزوجية معه، لكن هناك حاجز لا استطيع تخطيه حاولا ان تفهماني

وضعت شذى يدها فوق يد ريان وقالت بحنية :

- صدقيني نحن نفهمك جيدا، لكن عليك انت ان تفهمي ان الدلال الزائد يُسأم العاشق،، هارون لن يصبر عليك اكثر، والا ما سياتي يوم ويترك كل شيء وراءه، ولا تنسي ان حسناء تنتظر الفرصة المناسبة على طبق من ذهب فهل ستتركينها لها ؟

بقيت ريان تفكر في كلام شذى التي وجدتها محقة في كل ما قالته فهي بعنادها وعدم تقبلها لمشاعرها تجاه هارون ستتركه لتلك الشقراء تاخده منها وببساطة ايضا،، عليها الان ان تنسى حبها القديم وان تنظر للقادم وحسب فهي ايضا يحق لها عيش السعادة التي لطالما تمنتها.

***

جلست ريان في شرفة البيت المطلة على المنازل القرميدية للحي الذي تقطن فيه ترتشف من كاس الزنجبيل كي تريح اعصابها بعض الشيء، فقد كان اليوم شاقا ومتعبا عليها،، فمسؤولية بلال وحدها قد وجدتها صعبة اكثر مما كانت تتخيلها، كذلك امور المنزل وتصاميمها التي تعمل عليها اكثر من اسبوع لاجل ارسالها الى مدرسة كندا للفنون الاكاديمية قد انهكت قواها العقلية والجسدية، فبعد ان فشلت في المرة الاولى عقدت العزم ان تحاول من جديد ولا تستسلم ابدا حتى تظفر بمرادها،، كانت تعبث بهاتفها الذكي تشاهد مغامرات مارلين (مسلسل تلفزيوني خيالي بريطاني أنتجه وطوره جوليان جونز، ماتشي جيك، وجوليان مورفي كابس، يتحدّث عن قصة الساحر الأبيض ميرلين وهو مخلوق سحري من مخلوقات الدين القديم قُدِّرَ له أن يحافظ على سلامة الأمير آرثر ابن الملك أوثر لأنه سيوحد الخمسة ممالك في أرض واحدة اسمها «ألبيون»، ولا أحد يعلم بأنه ساحر إلا طبيب القصر جايوس).. كانت شاردة الذهن متحمسة لمعرفة من هو الجاسوس في القصر، حتى انتفضت بفزع على صوت هارون من خلفها...

- انت هنا ؟ كنت ابحث عنك ؟

جلس بجانبها على الاريكة يلف نفسه ببطانية رمادية من القطن الناعم، يحمل قدحا من القهوة السادة قد اخدها عادةً لا يمكنه الاستغناء عنها وبادرها مجددا بسؤاله يُلقى بنظره على شاشة هاتفها :

- ماذا تشاهدين ؟

- مغامرات مارلين،، سلسلة بريطانية للبطل كولين مورغان

- اووو جيد، اتعبك بلال اليوم ؟

ابتسمت بلطف واغلقت اتصالها بالانترنت والهاتف ايضا، وراحت تنظر الى النجوم البراقة وهي تحوم حول الكوكب الفضي مُردفة نحوه :

- لا، على العكس وجوده معي قد فادني كثيرا

- كيف ؟

- انه يسليني بحكاياته مع زملائه في الصف، وكذلك بمعلوماته الفذة التي لا اعلم من اين ياتي بها حول الحيوانات والطبيعة والفلك ايضا، ولا اشعر بالوقت ابدا وانا معه

تنهد هارون باسى يسند راسه الى الوراء وقال بعد ان اخد رشفة صغيرة...

- انا بالفعل احسده

- لماذا ؟

- لانك لا تشعرين بالوقت وانت بجانبه

خفق قلبها بصورة رهيبة وشعرت بالحزن ناحيته لقلة حيلتها في اعادة زمام الامور الى مجراها الصحيح،، سكتت هنيهة ثم قالت :

- هل سبق وتأملت النجوم من قبل ؟

تفاجأ الاخر بسؤالها ولم يتوقعه ابدا،، وراح يتأمل السماء بدوره يجيبها قائلا :

- لا لم يسبق لي،، لست احبذ هذه الاشياء

- وماذا تحبذ اذا ؟

- صيد السّمك والتّخييم مثلا

- انا ايضا احب التخييم في احضان الطبيعة

كانت تتكلم بحماس زائد قد لاحظه هارون جيدا، وفي عينيها بريق لامع يُخفي اشياء ليست سرية جدا،، حيث ابتسم معها بعفوية وقال :

- اذا ما رايك لو نقوم بالامر الاسبوع المقبل ؟

- تقول الصدق !!

- اجل، اساسا قد وعدتُ بلال قبل وفاة امه ان افعل هذا معه، وها قد سنحت الفرصة بذلك

لم تشعر ريان بنفسها الا وهي تضع كوب الزنجبيل جانبا وتقفز بفرح الى احضانه تعانقه بقوة كبيرة قد جعلت قلبه يتطاير داخل قفصه الصدري،، وقد حاوطها بدوره بدراعيه يتمنى ان لا تنقضي هذه اللحظة ابدا، انتبهت ريان مع نفسها وانها تسرعت بحركتها فابتعدت عنه

وقد احمرت وجنتاها من شدة التوتر للموقف، قرأ هارون افكارها وادرك ما يخالج نفسها كما انه لم يحاول ان يضغط عليها لانه متاكد انها ستستسلم له في نهاية المطاف،، لقد وعدها ولن يخلف بوعده هذه المرة وسيصبر حتى يفوز بحبها ويكسب ثقتها... بقي معها خمس دقائق اخرى يتجاذبان اطراف الحديث محاولا تلطيف الجو الذي كاد ان يتكهرب،، بعدها وقف مكانه واستاذن منها الانصراف كي يذهب للنوم مع بلال في الغرفة الاخرى، اما هي فقد عادت لتشاهد سلسلتها المفضلة وعقلها لا ينفك التفكير بخصوص كلام شذى معها امس حول الدلال الزائد الذي يُسأم العاشق.

***

اشرقت شمس يوم جديد على ريان التي استقبلتها بكل حيوية ونشاط عاقدة العزم على تجاوز ذلك الحاجز الذي يقف حائلا بين مشاعرها وحب زوجها واهتمامه بها،، التقطت هاتفها الذي كان مرميا بعشوائية تحت وسادتها ونظرت نحو الساعة لتجدها الثامنة وربع دقيقة،، ترّجلت بسرعة عن سريرها تفتح شباك غرفتها لاجل التهوية ثم توجهت الى غرفة بلال لترى ان كان مستيقظا ام ما زال نائما،، كان الصغير ينام بوداعة يعانق ارنبه الابيض ذو الاذنين الطويلتين الذي اهدته اياه والدته في عيد ميلاده السابع كما سبق واخبرها بالامر،، ارادت ريان ان توقظه لكنها شعرت بالاسف عليه ولم تشأ ان تُفسد عليه نومه،، حيث غادرت غرفته ببطئ تتجه ناحية الحمام كي تأخذ لها حماما سريعا تنعش به نفسها،، بعدها قصدت المطبخ لاجل اعداد الفطور،، شغلت الراديو الذي اقتنته قبل يومين من محل القطع القديمة الذي بجانب المسرح الجهوي ووضعته على تردد اذاعة عنابة تستعيد بعض الذكريات الجميلة عندما كانت في ريعان الطفولة، وقبل ان تنتقل مع اسرتها من بيتهم القديم في منطقة البوني الذي كان مثل بيت الاحلام خاصتها،، صغير سقفه من القرميد به حديقة ورود الياسمين والجوري وتتوسطها شجرة الليمون التي قضت طفولتها وهي تلعب حولها مع

شقيقها سليم وشقيقها الكبرى فادية،،، واذا ما شعرت بالعطش تركض الى الداخل عند امها حيث المطبخ تطلب الماء وحبات العرق تتساقط من جبينها مثل حبات اللؤلؤ،، وكلما فعلت ذلك يلفت انتباهها صوت المذياع على اذاعة عنابة مرفقا بعدها باغاني شعبية شرقية واحيانا غربية،، افاقت ريان من شرودها على صوت صراخ قادم من ناحية غرفة بلال وبطريقة مفزعة كما حدث قبل يومين،، بسرعة وضعت كل شيء من يدها وركضت اليه تحاول تهدئته كما علمها هارون مسبقا،،، لم تكن ريان جيدة بما فيه الكفاية لتتعامل مع مريض توحد لكنها عقدت العزم على النجاح وتحمل المسؤولية على اكمل وجه، في البداية رفض الصغير الاصغاء لها وكلما ارادت ان تقترب منه لتحتويه اليها كان يردعها بقوة منبها اياها ان لا تقترب منه، حاولت معه بروية تقوم بتلطيف الجو تطمئنه ان كل شيء سيكون بخير لكن من دون فائدة، حتى فقدت الامل في ذلك،، وقد جلست القرفصاء على الارضية تبكي بشراهة بدورها على الوضع الذي تعيشه، اهتزت ثقتها بنفسها وتذكرت كلام شذى بخصوص صعوبة الامر،، وبينما هي على حالها لفتت وضعيتها انتباه بلال الذي توقف عن الصراخ والهذيان واقترب منها بخطى بطيئة حتى صار قبالتها ثم دنى منها ومسح بيده دموعها التي كانت تنزل على وجنتيها ثم قال لها :

- هل اخفتك يا امي ريان ؟

توقفت الاخيرة عن البكاء وفتحت عينيها في ذهول لسماعه وهو يناديها بامي اذ كانت لتلك الكلمة وقع لا يوصف لديها والتي لم تستوعبها في الثواني الاولى،، بقيت برهة زمنية تنظر ناحيته باستغراب ثم اجابته :

- كلمة امي منك جميلة جدا يا بني

- انا اسف لم يقصد بلال اخافتك

- لا عليك انت ولا يمكن ان تخيفني

ثم اخدته الى حضنها تمسح على فروة راسه بحنان تعده ان كل شيء سيكون بخير وانها بجانبه ولن تتركه ابدا.

بعد ان انهيا تناول الفطور جهزته للذهاب الى المدرسة وجهزت نفسها ايضا كي تأخده كما اعتادت ذلك منذ قدومه للعيش معها... وبعد مسافة طريق دامت عشرون دقيقة ارسلته مع معلمته بعد ان اوضحت لها قليلا بخصوص حالته وما عاشه الفترة الاخيرة وكذلك اخبرتها عن النوبة التي عانى منها قبل قدومه كي تاخد احتياطاتها،، ثم ودعتها بابتسامة خفيفة وغادرت المكان تقصد عيادة زوجها كي تكلمه في موضوع بلال وتعترف له ايضا بحبها الذي لم يعد بامكانها كبحه اكثر من هذا،، كانت السّعادة لا تفارق ملامح وجهها لانه واخيرا

حلق طائر الحظ فوق راسها بعد سلسلة حافلة من الخيبات المتتالية، التي خلت انها لن تنفك عنها ابدا، ولكن كل شيء في هذه الدنيا يرحل ويغيب الا الخير يظل مغروسا في النفوس،، وقانون الحياة ينص على انه لكل بداية نهاية؛ فللحزن نهاية وللمعاناة والصبر عليها نهاية ايضا، وكذلك الفرح والسعادة لهما نهاية،، هي دنيا متقلبة مثل فصل الخريف، تارة تراها مشمسة وتارة عاصفة وممطرة، وقد ادركت ريان هذا كله، وما مر على راسها قد جعل عقلها الصغير ينضج قليلا ويدرك ماهية الاشياء التي تحدث حوله،، في طريقها الى منطقة لاسيتي اوزاس اتصلت على هارون كي ترى ان كان متاحا ام مشغولا اذ اخبرها ان موعده القادم بعد نصف ساعة وقد اغتنمت الفرصة بسرعة وعجلت في خطواتها حتى تكسب الوقت وتبوح له بكل مشاعرها التي لم تعد تصبر اكثر على حبسها داخلها،، لم يسبق لها ان شعرت بهذه الاحساسيس من قبل وكأنها تحب لاول مرة في حياتها، وبالرغم من ان وائل كان اول شخص يدلف الى قلبها الا ان هارون نجح في اخراجه وببراعة ايضا وفي فترة وجيزة،، ربما هذا هو الفرق بين الحب قبل الزواج وبعده، ويبدو ان الحلال من انتصر بالاخير؛ بعد ان عبرت على مسجد العلاوية سارت قرابة عشر دقائق حتى وصلت الى عين المكان، وقد صار قلبها يخفق بصورة رهيبة بسبب التوتر نحو الشيء الذي ستقدم عليه، تلك اللحظة تلبدت السماء بالغيوم واختفت اشعة الشمس من الوسط فقد سبق واعلنت نشرة الاحوال الجوية عن تقلب احوال الطقس هذا الاسبوع،، دلفت ريان الى داخل البناية وصعدت الدرج الى الطابق الثاني تحاول تهدئة نفسها وتقوم بتجهيز كلمات مناسبة لمثل هذا الوضع،، استغربت عدم وجود حسناء في مكتب الاستقبال وقد تسائلت عن اختفائها بينها وبين نفسها، لكنها ايضا لم تعلق كثيرا فبالها مشغول بامور اهم من ذلك بكثير، عدّلت هندامها ما ان صارت قبالة الباب واخدت لها شهيقا وزفيرا بعدها فتحت الباب تُلقي تحية السلام بنوع من المرح والحيوية والتي لم تدم طويلا بسبب المنظر المخزي امامها والذي جمّد الدّماء في عروقها، وجعل الارض تدور من تحتها، فجاة انهار عالمها الوردي وللمرة الثانية دون سابق انذار،، لقد فعلها القدر معها من جديد وخانها بابشع طريقة، بسرعة حملت نفسها وغادرت المكان تُسابق الريح وصورة حسناء تقبل زوجها على شفتيه لا تغادر تفكيرها،، كانت دموعها تنهمر من عينيها مثل زخات المطر، لا تصدق ان هارون فعل هذا بها وهو قد وعدها انه لن يتركها ابدا،، لماذا جميع الرجال هكذا كاذبون وانانيون ؟؟ لا يفكرون الا بانفسهم... كانت تتكلم مع نفسها وتلعن كل شيء ياتي امامها لا تدري اين تاخدها قدماها، تلك اللحظة ضربت خيوط البرق واصوات الرعد الوسط بعدها بدات الامطار تتساقط بغزارة وسارع الناس في الاختباء تحت واجهات المحلات،، وكذلك الباعة الجوالين صاروا يقومون بتوضيب سلعهم وترك المكان بسبب الامطار المتدفقة بكميات كبيرة،، ولم يبقى سوى ريان التي لم تكن تكثرت بازعاج المياه المتساقطة فوق راسها، تسير بلا هوادة نحو اللامكان وقد ذاقت درعا من كل شيء يحدث من حولها،، فكلما قالت ان هذه الاخيرة وسينتهي كل شيء، يفاجئها القدر باشياء تفوق سابقتها اضعاف مضاعفة، لدرجة انها باتت تفقد ثقتها في كل

شيء،، وبينما هي تمشي عن الشارع الفرعي الذي يؤدي الى بيتها في حي الزعفرانية توقفت سيارة سوداء امامها بعنفوانية وترجل هارون منها يركض ناحيتها بهلع، فور ان راته ريان غيرت اتجاهها وباشرت الركض بعيدا عنه لا تريد رؤية وجهه،، لكنه كان اسرع منها وتمكن من امساكها من مرفقها يقوم بايقافها وهو يتوسلها ان تستمع اليه ويشرح لها الموقف الذي راته قبل قليل...

- ريان ارجوك الامر ليس كما تظنين صدقيني

- وما هو اذا ايها السّافل ؟ هل سأُكَذبُ عيناي ؟

كانت تكلمه وصوتها يعلو زيادة عن اللزوم، تحاول ابعاد مرفقها عنه لكنه لم يكن يسمح لها، وقد زاد من حدة صوته ايضا يامرها ان تصعد الى السيارة كي يكملا الحديث في البيت،، في البداية عارضت ريان الامر وقررت الذهاب الى بيت اهلها، لكن توسلات هارون لها جعلتها تغير الفكرة وتقبل،، بعد مسافة طريق دامت خمس دقائق كانا في البيت والمطر قد اخد نصيبه منهما الاثنان حيث صدر اول عطاس من ريان لحساسيتها فور تقلب احوال الطقس، نزعت عنها الحذاء والجوارب ورمت حقيبتها فوق الاريكة في غرفة المعيشة تحاول تهدئة اعصابها قدر المستطاع، اما هارون فقد لحق بها بعد نزع جاكيته المبلل وقال :

- اسمعيني ما رايته في مكتبي لم يكن متبادلا صدقيني يا ريان، انا لا أُكن اي مشاعر لحسناء،، اعترف اننا كنا على علاقة قبل زواجي بك، لكن منذ يوم خطبتنا انهيت كل شيء يخصني بها واغلقت دفتري معها

- لكن هي لم تغلق دفترها، وواضح انها لا زالت تحبك وحد النخاع ايضا

- لا تهمني مشاعرها هي، فانا احبك انت واريدك انت وفقط

شعرت ريان بصدق كلماته وانه بالفعل يقول الحقيقة، كذلك هي تعرف حسناء جيدا وتعلم ما بامكانها ان تفعله للوصول لمبتغاها،، لكنها ايضا لا تستطيع تقبل فكرة ان تلمس امراة اخرى زوجها الذي هو من حقها هي وحسب،، تنهدت بغيض واعطته بظهرها تنظر الى السّماء من خلال زجاج النافدة وقالت بانزعاج :

- وماذا تريد مني ان افعل الان ؟ انه ليس موقفا سهلا علي يا هارون ان ارى امراة غيري تقترب منك

- اعلم هذا وهو من حقك، لكن كل شيء حدث فجاة لم اشعر بها الا وهي تضع شفتاها على شفتي

قاطعته بسرعة تلتفت ناحيته تطلب منه ان يصمت ولا يكمل اكثر وقد ترقرقت عيناها بالدموع لحظتها لم تفلح في كبحهم بسبب شعورها بالاهانة وهي التي كانت ستكسر الحاجز العائق بينها وبين زوجها؛ اما هارون فلم يقوى على رؤية دموعها تلك وقام بتقبيلها من شفتيها مباغتةً كي تصمت قليلا عن الكلام، ثم اخدها اليه بالاحضان يربت على خصلات شعرها الكيرلي المبلل بكل حب وحنان يتوسل لها ان تصدقه ولا تنجرف وراء شكها لحبه لها،، ارادت ريان صدّه والابتعاد عنه لكنه لم يسمح لها بذلك بل حاوط بدراعيه جسدها النحيل وقال لها بهدوء :

- ارجوك فلتكسري عنادك هذه المرة ولتسمحي لي ان احتويك يا عزيزتي

- ولكن ...

- شششش

وضع إصبع سبابته على شفتيها كحركة منه لاسكاتها ثم التهم تلك الكرزتين اسفل انفها من جديد في قبلة شغوفة تحكي عن كل الحب والحنين الذي كان يختبئ داخل قلبه،، كان يظن انها ستبتعد عنه لكنه تفاجأ بالعكس هذه المرة، اذ استجابت له وبادلته نفس المشاعر تضع يداها الصغيرتين حول رقبته مستمتعةً باللحظة التي تعيشها بعدما نجح في اخماد حريق الغضب الذي كان يستحوذ كيانها،، وقد حملها عندها بين دراعيه قاصدا غرفة نومهما، لكنها استوقفته في عجل وهي بين احضانه قائلة :

- لا يمكننا فعل ذلك الآن

اجابها باستغراب :

- ولما !!

تلك اللحظة احمرّت وجنتيها من الخجل واحنت راسها للاسفل تتمتم بخفوت :

- لانني لست في حالة تسمح لي بذلك

بقي هارون يزن كلامها هنيهة حتى استطاع فهم ما ترمي اليه، حيث علت على وجهه ملامح الاحباط والاسى...

- لما تفعلين بي هذا يا ريان ؟؟ ا لن انتهي من انتظارك بعد ؟

ابتسمت بعفوية واجابت :

- لا تقلق هي فقط سبعة ايام او ثمانية !

فتح عينيه في ذهول وقال وهو يضعها ارضا بطريقة همجية :

- ماذا تقولين !! تمزحين ا ليس كذلك ؟

تلك اللحظة ضحكت ريان من اعماق قلبها وكأن لها عقود لم تضحك فيها جعلت قلب هارون يرقص فرحا لاجلها اذ واخيرا اجتازا اول خطوة معا في تحسين علاقتهما الزوجية وتخطيا ذلك الحاجز الذي كان عائقا امامهما.

***

سارت حسناء في شوارع المدينة بلا هوادة لا تدري اين سيدركها المسير بعد الان، فبين عشّية وضحاها امست بدون عمل وبدون عائل تستند عليه وهذا كله جرّاء فعلتها الشنيعة التي قامت بها بحق ريان،، كانت تخال انها بهذا التصرف ستوَلد فجوة بين حبيبها السابق وزوجته لتحاول هي معه من جديد لكنها لم تتوقع هذه النتيجة ابدا؛ فهارون ليس من النوع الذي ينخدع بسهولة وخصوصا انه يعرف طبيعة حسناء جيدا، ولن تنطلي عليه حيلة كتلك... بعدما اجهدها السّير توقفت هينهة على اعتاب مدخل حديقة ايدوغ الشمالية تلتقط انفاسها ثم دلفت الى الداخل بخطى متثاقلة وفي عينيها كم هائل من الدموع تتساقط منهما مثل زخات المطر، جلست على احد الكراسي بمكان منزويٍ عن اعين الناس وراحت تعيد ترتيب الاحداث بشكل متسلسل تحاول العثور على ثغرة للنجاة واصلاح الامور قبل ان يتمكن منها الوقت وينفد بسرعة فتضيع وسط زحام الحياة، فقد وجدت هذه الوظيفة بشق الانفس بعدما كادت ان تنقطع بها السبل قبل ثمانية اشهر، ولا يمكنها ان تفرط فيها وهي تعي جيدا ان وجود عمل في وقت كهدا اصبح ضربا من المحال، تنهدت باسى وحقد في آن واحد على من كانت السبب الرئيسي في كل شيء، فمنذ ان عرفت ان هارون مجبر على الزواج من ابنة خاله شعرت ان الدنيا قد ضاقت من حولها، فهي لم تصدق نفسها انها واخيرا عثرت على

رجل احلامها وفارسها لكن وجود طرف ثالث في الحكاية افسد جميع الموازين، وما زاد الطين بلة اكثر واكثر ان تلك الفتاة هي نفسها قرينتها وزميلتها في الفوج التي دائما ما يتنافسان على المرتبة الاولى... بذلت حسناء جهدا كبيرا في ابعاد تلك الحشرة كما تسميها من طريقها وقامت بايذائها بشتى الطرق لكرهها الشديد لها لكن من دون فائدة كل محاولاتها ذهبت سدى وريان من فازت عليها بالاخير وسرقت لها حب قلبها، مسحت دموعها بروية وبقيت تفكر في حل بينها وبين نفسها فهي لن تستسلم بسهولة ولن تخسر معركتها ضد ريان بهذه البساطة فهي ليست من هذا النوع ابدا، فبالنسبة لها لم يفت الاوان بعد ولا زالت هناك ورقة رابحة في جيبها عليها استغلالاها جيدا؛ حملت هاتفها الخلوي وضغطت على رقم ما تتصل على احدهم وعلى شفتيها ترتسم ابتسامة ماكرة وقذرة.. بعد ثواني معدودة اتاها صوت رجولي من الطرف الاخر وطلبت منه ان يوافيها حيث تجلس الان خلال ساعة لاجل شيء مهم، وقد اصرت عليه كثيرا لحتمية الموضوع ثم اغلقت المكالمة وبقيت جالسةً في انتظاره على احرّ من الجمر لا تصدق متى ينتهي هذا الامر وتفتك منه.

بعد اربعين دقيقة كان في حضرتها ذلك المجهول الذي ستتفق معه على رسم خطة جهنمية لريان تُبعدها بها عن هارون والى الابد، كان ذلك الشخص هو نفسه وائل السبوعي حبيب ريان السابق وحبها الاول الذي دفنته في ذهاليز مظلمة وشددت عليه باحكام، بحيث لن تعود اليه مرة اخرى وقد رات حسناء ان نقطة ضعفها هي هذا الشاب الذي يجلس بجانبها الان، والذي هرع فورا لنجدتها لوجود نقاط مشتركة بينهما، فهو قد ندم ما ان عرف ان حبيبته قد تزوجت وصارت ملك لرجل اخر وسيفعل المستحيل كي يظفر بها ولن يتوقف حتى ينال مراده.. ولان حسناء علمت بحكايتهما مؤخرا اتصلت عليه فورا بعد ان اخدت وقتا لا باس به للوصول اليه وقصت عليه القصص راجية منه المساعدة في هذا كي يسترجع هو حقه وتسترجع هي حقها... تنحنحت ما ان راته يجلس بجانبها وقالت :

- تاخرت !!

- اسف انها عرقلة السير

- حسنا، المهم لقد طلبتك لاجل امر غاية في الاهمية يا وائل وعليك ان تساعدني كما سبق واتفقنا

- ماذا يجب علي ان افعل ؟

- ستعود الى حياة ريان كما في السابق تماما، ولن تبرحها حتى تجعلها تنفصل عن زوجها ويطلقها، لا تنسى انكما احببتما بعضكما حد النخاع خلال الثلاث سنوات،،، ولا اعتقد ان ذلك الحب قد اضمحل ؟

سكت هارون قليلا يفكر في كلمات حسناء وقد تدفقت مشاعر غريبة في عروقه لدرجة انه شعر وكانه يزداد تعطشا وحنينا لريان ثم التفت نحوها واردف :

- معك حق انا لا زلت احبها ولم انسها لحظة واحدة، لا انكر انني مررت بمحطات الخوف والجبن والتهرب من الزواج والمسؤوليات بعدما وجدت نفسي قد وصلت الى اخر النفق في علاقتي بها، لكن حبي لها لم ينثفي ابدا ولا زال قائما حد الساعة

- جيد وهذا هو المطلوب منك، ان تبذل قصارى جهدك لاعادة زمام الامور لان الكرة في ملعبك الان؛ قليل من بقايا الماضي كفيلة على احداث زوبعة داخل عقل ريان ليشتعل قلبها حبا واشتياقا لك وانا اثق بك جدا يا وائل.

***

انتفضت ريان بفزع على صوت الهاتف الموضوع فوق الكومدينة بجانب سريرها، حيث مدت يدها ناحيته بسرعة لترى من المتصل بها،، وقد ردت على المكالمة فورا ما ان رات اسم صديقتها شذى على الشاشة تغادر الغرفة كي لا تضايق هارون الذي حرك حاجبه في انزعاج من الصّوت المُدوي...

- السلام عليكم عزيزتي كيف حالك ؟

- وعليكم السلام انا بخير يا ريان وانت ما اخبارك ؟

- الحمد لله جيدة

- ادامها الله عليك،، لقد اتصلت بك كي نلتقي عند الساحل ما بعد العصر ؟

- لاجل ماذا ؟ ا هناك امر مهم ؟

- تستطيعين قول ذلك.. هل بامكانك القدوم ؟

- لا اعلم يا شذى علي ان اطلب الاذن من هارون اولا،، ان سمح لي سآتي

- حاولي معه ارجوك يجب علي لُقياك

- اعدك بانني ساحاول

- اللقاء

- مع السلامة

اغلقت ريان المكالمة وعلامات الفضول صارت تحلق فوق راسها كالغربان تتسائل حول الامر الضروري الذي تريدها شذى فيه،، سارت بعدها الى غرفتها مترددة بعض الشيء في طلب الاذن من زوجها لعلمها انه يمقت خروجها مع صديقاتها في مثل هذه الاوقات التي يراها هو غير مناسبة لامراة متزوجة،، فتحت الباب ببطئ وسارت نحوه باستحياء لانها ليست معتادة على مثل هذه الاجواء؛ ثم تسللت داخل الغطاء وراحت تفكر بخطة محكمة تقنعه بها؛ وبينما هي على تلك الحالة نسيت نفسها وهي تطالع تفاصيل وجهه الرجولي الجذابة ولم تشعر بنفسها وهي تداعب جفونه بلمسة حنونة من يدها، ترتسم على شفتيها الكرزية ابتسامة عفوية سعيدة جدا انها تخطت ذلك الحاجز واخيرت، ولولا فترة اجازتها لسلمت نفسها له كليا فهو يستحقها بجدارة، افاق هارون من نومه على حركة يدها وقال لها ممازحا اياها :

- لما انت مزعجة لهذه الدرجة، لا تنامين ولا تتركين من ينامون ؟

اجابته بعتب :

- اصبحت مزعجة لانني اشتقت اليك واردت اللعب معك ؟

رفع حاجبه الايمن في استغراب وبادرها قائلا :

- قلت اللعب ؟ وهل نحن اطفال رُضّع ؟

- انت دائما هكذا حتى عندما عرضت عليك اللعب معي قبل عشرة سنوات قلت نفس الشيء !!

- انت تتذكرين اذا كل اللحظات التي جمعتنا ؟ .... قالها هارون وهو يرمقها بنظرات نارية مستفزة

احمر وجهها خجلا وقامت بوضع يداها على وجهها تجيبه بخفوت :

- مثلما تفعل انت؛ ام تراني مخطئة ؟

ضحك الاخير على كلامها وخجها منه وقام بابعاد يديها عن وجهها مجيبا اياها :

- لا لست مخطئة حبيبتي، انت دائما على صواب وانا لهذا السبب اعشقك حد النخاع، ولا يمكنني تخيل حياة بدونك ؟

كانت كلاماته واعترافاته جريئة.. جريئة جدا عليها ولم تستطع التعامل معها ولا ردعها ايضا؛ ارادت ان تتكلم معه لكنه اسكتها بقبلة خفيفة على شفتيها الكرزية جعلت الدماء تفور في راسها، والدخان يتصاعد من اذنيها حلقات حلقات ولم تعد تدري ما تفعل فهي ليست معتادة على هذه الامور بعد ولم يمضي وقت لحبها له وتقبلها لزواجها منه،، ابتعد عنها بعدما شعر بجمودها وانه يضغط عليها دون قصد، وقد اخذها اليه بالاحضان محاولا جعلها تعتاد على حدوث مثل هذه الاشياء بين الفينة والاخرى، اما هي فقد بادلته العناق وشددت عليه ايضا لشعورها بالسعادة وهي بجانبه يقوم باحتوائها بكل حب وحنان... وجدت ريان الفرصة مناسبة لاخباره بخروجها لرؤية صديقتها كونه الان تحت تاثير جاذبيتها، حيث ابتعدت عنه بروية وقالت :

- لقد اتصل بي شذى قبل قليل

- و...

- وتريد ان نلتقي بعد العصر عند الساحل... هل استطيع ؟

كان هارون يرى في كلماتها ونظرة عينيها كل الرجاء والتوسل ولانه يكره هذه الاشياء الا انه استسلم لها بشرط ان تكون الاولى والاخيرة...

- اسمعيني جيدا انت تدركين انني لا امسكك عن رؤية صديقاتك، لكني ايضا لا احبذ خروجك في مثل هذه الاوقات، ولهذا لا تطلبي مني هذا الامر ثانية ستكون هذه المرة الاولى والاخيرة، ووضحي هذا لصديقتك ايضا كي لا تضعك تحت الامر الواقع

- حسنا لقد فهمت عليك وكن مطمئنا، ساعلمها بما اخبرتني اياه

- جيد

- بالمناسبة هل اذهب انا لاحضار بلال ام انت ؟

- لا داعي ساتكفل بالمهمة

- حسنا كما تريد.

***

ظلت ريان تقف مكانها عند شباك غرفتها ترقُب الباب الخارجي في انتظار وصول والدتها، التي هاتفتها قبل ساعة ونصف كي تاتي للاعتناء ببلال ريثما تنتهي من عملها في لقاء صديقتها، كانت كل برهة زمنية تنظر الى ساعة يدها وقد سئمت من الانتظار اذ لم يبقى هناك وقت وقد سبق ووعدت زوجها انها لن تتاخر في العودة؛ في تلك الاثناء دلف عليها بلال الغرفة يحمل في يده اليمنى ورقة بيضاء وفي اليد الاخرى قلم رصاص مخاطبا اياها قائلا :

- هل انت ذاهبة الى مكان ما ؟

انتفضت ريان بفزع على صوته كرد فعل تلقائي منها، ثم تقدمت ناحيته بلطف واجابته وهي تدنو عليه :

- لدي عمل مستعجل عزيزي، فقط ساعة وساعود

- سابقى بمفردي ؟

- كلا ستاتي امي الان وستظل بجانبك حتى اعود انا او ياتي هارون

- بلال ليس معتاد على شخص اخر في البيت

شعرت ريان بالاحباط لردة فعله حول قدوم والدتها، اذ لم تتوقع ان يرفض الامر، وراحت تفكر في طريقةٍ لاقناعه كي لا تتاخر عن موعدها اكثر او تضطر لالغائه،، ابتسمت

ناحيته بعفوية وجرته بلطف الى السرير تطلب منه الجلوس ثم فعلت هي الامر عينه وقالت له :

- اسمعني يا عزيزي انا اعلم انك لست معتاد على امي كما انها هي ايضا ليست معتادة عليك، لكن يجب عليك ان تتاقلم على الوضع الجديد فانت بالنهاية ستعيش بيننا ولابُد من احتكاكك بعائلتي وعائلة هارون ايضا، واعتبر خروجي هو فرصة لكما لاجل التعارف ! ما رايك بهذا ؟؟

سكت بلال قليلا يفكر بينه وبين نفسه محاولا موازنة كلمات ريان في راسه ويتسائل ايضا ان كان يجازف ويقبل ام يتمسك بقراره في الرفض،، نظر الى وجهها فقرأ في عينيها ذلك الكم الهائل من التوسلات كي يقبل بعرضها ولا يعاند، فاستسلم للامر كي لا يحرجها وقرر منح تلك الفرصة لوالدتها،، تنهد بياس وقال بخفوت :

- حسنا لقد قبلت، سيبقى بلال مع امك

تهللت ملامح وجهها بالسرور وراحت تعانقه بفرح تقوم بتقبيله من وجنتيه بشكل عشوائي سعيدة جدا برضوخه للامر، ثم توقفت فجاة ما ان انتبهت لتلك الرسمة التي يحملها بين يديه،، اخدتها عنه وصارت تتفحصها باندهاش كبير لا تصدق ان هذا الصغير يمتلك موهبة كهذه في الرسم اذ شعرت نفسها لا شيء مقارنة به، كانت اللوحة عبارة عن ثنائي لشاب وفتاة غير معروف عن حالتهما الاجتماعية يجلسان القرفصاء بجانب بعضهما البعض في البراري الخضراء تحت ضوء القمر ويلفان انفسهما بغطاء قطني يقيهما برودة الجو، وبجانبهما مصباح زيتي صغير لانارة مِن حولهما؛ ظلت تنظر للصورة باعجاب وفي عينيها بريق خافت يوحي بشيء ما لم يستطع الصغير تفسيره، تنحنحت ريان وقالت تنظر نحوه :

- انت مبدع بالفعل، انك تفاجئني مرة بعد مرة

- شكرا لك امي ريان

- ما رايك لو تشارك في مسابقة الرسم التي ستُقام الشهر المقبل انا متاكدة انك ستفوز بها

- لا اعلم

- حسنا اذا، فكر بالامر واعلمني لاحقا بقرارك لأتكفل انا بالاجراءات

- موافق.

رن الجرس واخيرا فاسرعت ريان لفتح الباب وهي تحمد الله على وصول والدتها اذ تاخرت عليها ربع ساعة كاملة وشذى قد حرقت الهاتف بالاتصال بسبب تماطلها عليها؛ لكنها

تفاجئت بالعكس ما ان ادارت المقبض وبلعت ريقها بصعوبة وهي ترى حبيبها السابق يقف قبالتها بقامته العريضة وملامحه الجامدة ونظراته الحادة التي كانت تعشقها في الماضي، انتابها القلق حول قدومه الى بيتها هكذا ودون أي سابق انذار وقد قالت له والفضول يحوم حولها...

-انت !! .. ماذا تفعل هنا ؟

لطالما احب وائل ريان لدرجة كبيرة فهي اول فتاة سرقت قلبه بعد ان اكّد لنفسه ولمحيطه انه ليس من النوع الذي يبدي اهتماما بالفتيات،، جمعته معها لحظات ولا يمكن له ان ينساها خلال الثلاث السنوات في الجامعة، وبالرغم من انه لم يكن رومنسي ولا حتى عاطفي ناحيتها الا انها كانت دائما اولى اولوياته حتى دراسته لم تكن تشغله عنها،، فقط خطأ واحد ارتكبه بحقها بسبب جبنه وخوفه من المجهول جعله يخسر فتاة احلامه وحب حياته والى الابد،، بقي يتفحص ملامح وجهها التي ازدادت جمالا عن ذي قبل لا يدري ان كان بسبب الزواج ام بسبب شيء اخر هو يجهله...

- انا اسف على الازعاج،، لقد اشتقت لبلال واردت رؤيته ؟

لم تقتنع ريان بكلامه كثيرا لكنها تظاهرت بالعكس، لانه ليس لديها دليل اخر حول عكس ذلك،، اجابته والتوتر بادي على وجهها خوفا ان ياتي هارون في أي لحظة او امها فتقع في ورطة هي في غنى عنها...

- اسمع يا وائل بامكانك رؤية بلال في أي وقت تريده انا لا مانع عندي، لكن يُحبذ ان تُعلم هارون اولا ويُفضل ايضا ان يكون موجودا في البيت كي لا نقع في الشبهات

- اوه تقصدين زوجك ؟

- بالتاكيد اقصد زوجي ومن ساقصد دونه ؟؟؟

لم يحتمل وائل الصمت اكثر من هذا وقال لها بعتب :

- كيف فعلتها وتزوجت ؟؟ على اساس كنت تحبينني ؟ هل بهذه السرعة تمكنت من نسياني ومحوِ من ذاكرتك ؟؟

اجابته بنفاد صبر :

- يبدو انك نسيت ما فعلته بي سيد وائل سبوعي ؟؟ انت من تخلى عنا بسبب احلامك ودراستك وليس انا، ثم انا لم اتزوج بمحض ارادتي...

كادت ان تُكمل كلامها لكن قدوم بلال بعد سماعه لصوت خاله حال دون ذلك، اذ قام بعناقه والفرحة بادية على ملامح وجهه، فقد اعتاد وجوده في حياته عندما كان وائل ياتي لزيارة شقيقته، ودائما كان على اتفاق معه لكن بسبب اخر مرة عندما اخده الى البيت لرؤية جده والد نسرين لم تتقبل امه وجوده وعاملته بقسوة جعلته يكره الذهاب الى هناك مجددا، وبسبب هذا الامر رفض بلال الذهاب مع خاله يوم وفاة والدته فقد تذكر اخر الاحداث التي عاشها هناك..

- بلال اشتاق اليك خالي وائل

عانقه الاخير بحرارة يُزيل الحنين عنه يتذكر المرحومة شقيقته حيث ترقرقت عيناه بالدموع وكادت تنفلت دمعة منهما لولا براعته في كبحها، ثم اردف نحوه :

- انا ايضا اشتقت اليك يا صغيري ولهذا اتيت لرؤيتك ما اخبارك ؟ وكيف هي امور الدراسة ؟

- بخير .. امي ريان وابي هارون يساعداننني كثيرا، وهما يعاملانني بطريقة لطيفة، وبلال يحب التواجد معهما

تفاجا وائل بمناداة الصغير بامي وابي لريان وزوجها، ابتسم بعدها ناحيته بلطف واجابه يربت على خصلات شعره

- جيد،، ان احتجت لاي شيء كلمني وساكون عندك حالا... اتفقنا ؟

- اجل خالي وائل

كاد ان يتكلم معه مجددا لكن صوت فاطمة والدة ريان اوقفه عن ذلك تستفسر عن الامر الذي يحدث هنا، وعن الشاب ايضا وهي توجه نظراتها لابنتها بفضول،، تقدمت ريان منها تلقي التحية وقالت وهي ترمق وائل بنظرات نارية :

- اعرفك امي، هذا وائل السّبوعي شقيق المرحومة نسرين وخال بلال

- هكذا اذا .. هل زوجك موجود هنا ؟

- لا ... لم يعد بعد

قالت فاطمة وهي تنظر لوائل

- اذا لا يجوز لك ان تاتي دون موافقة رب البيت يا بني، هكذا ستجلب الشبهات لابنتي

قال لها الاخر وهو يحني راسه خجلا :

- معك حق يا خالة وانا اسف لن يتكرر الامر.. استاذنكم بالانصراف

غادر الاخير البيت تاركا ريان على اعصابها لا تصدق ان الامر انقضى على خير وزوجها لم يكن هنا، وقد بات وجود وائل في الوسط يشكل تهديدا على حياتها الزوجية التي لم تصدق انها وضعتها في طريقها الصحيح،، انتبهت مع صوت امها وهي تسالها عن حالة وجهها المُصْفّر ...

- لا يوجد شيء، المهم لما تاخرت هكذا امي اين كنت حتى الان ؟

- انه والدك ومطالبه التي لا تنتهي ابدا

- على كلٍ لقد شرحت لبلال كل شيء بخصوص وجودك معه في البيت، وقال انه سيعطيك فرصة للتعارف، كما تعلمين امي هو ليس مثل أي ولد انه متوحد وصعب المِراس كثيرا، واعتقد انه سيتعبك، لكن لا تقلقي هارون على مشارف العودة واذا حدث أي امر طارئ هاتفيني على الفور

كانت ريان تتكلم دون توقف تستعجل في ارتدائها للمعطف بسبب برودة الجو في الخارج خصوصا مع اقتراب موعد غروب الشمس، وفي ارتداء حذائها ايضا وحملت هاتفها ومفاتيحها وغادرت البيت تقصد مقهى الدولفين حيث صديقتها هناك في انتظارها،، بعد ان اجتازت الشارع الفرعي الى الشارع الرئيسي،، عبرت الطريق فور تغير الاشارة الذي دام ثواني معدودة وهناك عند ممر الراجلين شعرت باحد يمسكها من دراعها من الخلف يحاول ايقافها؛ نظرت اليه ودقات قلبها قد عاودت الخفقان من جديد.. يبدو ان ماضيها قد شمر عن سواعده وباشر برشق شباكه على حاضرها وحياتها الجديدة...

- وائل ماذا تريد مني ؟؟ لما تقوم بِتَقصِ اثري اينما ارتحلت ؟

- لان حديثك قبل قليل ما زال يرن في اذني

- أي حديث ؟

- عن زواجك !! ... قلت انك لم تتزوجي بمحض ارادتك ؟ هذا يعني انك كنت مُجبرة ؟

- وماذا سيتغير ان عرفت الحقيقة واخبرتك ؟

- لما لم تحيطيني باي شيء عِلمًا ؟ وانك تتزوجين بالاكراه ؟

ابتسمت بسخرية على كلامه وقالت بنبرة صوت صارخة :

- وماذا كنت ستفعل ؟ اساسا في تلك الفترة تخليت عني وعن حبنا على اساس انك غير مستعد بعد... ثم هل تظني بلا كرامة ؟ حتى الجأ للشخص الذي هجرني واطلب منه المساعدة ؟

- انا اسف.. صدقيني اسف يا ريان لكل ما عشته بسببي، وانا جاهز لاصلاح كل شيء اعدك بهذا

نظرت نحوه باستغراب لا تستطيع هضم ما يجري من حولها وكأن القدر يسخر منها، فبعد ان رمت كل شيء وراءها وفتحت صفحة جديدة مع من كان سندا بالفعل لها اتى ماضيها وطرق عليها الابواب من كل حدب وصوب،، تنهدت بضيق وزفرت بحنق تتذكر تصرفات هارون معها وحبه الشديد لها وخوفه عليها من هبوب نسمة هواء،، هو لا يستحق ان تفعل به هذا... لا يستحق لانه يحبها ويعزها والاجدر من كل هذا هو زوجها وملاذها الامن الذي تطمئن بوجوده بجانبها ولن تتركه لاجل شخص تخلى عنها ومن المحتمل ان يتخلى عنها ثانية... سكتت هنيهة ثم اردفت قائلة :

- اسمعني يا وائل صحيح انه جمعنا ماضي جميل، انت بواقعيتك المملة وانا بمخيلتي الواسعة ولا انكر انني احببتك بصدق وتوقعت منك الاكثر، لكن القدر فعلها بنا وقال كلمته،، انا الان متزوجة واحب زوجي كثيرا ولا يمكن ان اغدر به بغض النظر عن الطريقة التي تزوجنا بها، ثم بالنهاية هو ابن عمتي واي خطا ينجم مني سيكلفني حياتي كلها، لهذا انسى فكرة رجوعنا وازلها من راسك احسن لك ولي

وقعت كلاماتها عليه كالصاعقة وشعر وكأن الارض زلزلت من تحته اذ فاجاته باكبر مما كان يتوقع...

- لن استسلم سابقى احاول حتى تسامحيني وتعودي الي فانا لن احب غيرك ولن اتزوج من اخرى ابدا

غادرها بعدها تاركا اياها وسط متاهة عتماء تبحث لها عن ثغرة للنجاة من هذه الورطة.. اعادت رباطة جاشها وسارعت في خطواتها حيث صديقتها التي ما ان وصلت اليها حتى استقبلتها هي وايلين بالشتائم والعتاب بسبب تاخرها كثيرا،، جلست ريان تعتذر بحرارة منهما تخبرهما بكل شيء حدث معها والذي جعلها تتاخر عليهما، اذ فتحت كل منهما عينيها في ذهول لا تصدقان ان وائل قد فعل هذا حقا، وقد قالت لها ايلين عندها :

- ابصم لك بالعشرة ان حسناء هي وراء كل هذا، لقد سبق وقلت لك انني رايتها تتكلم معه ذلك اليوم

- وماذا سافعل الان ؟؟ ان علم هارون بالقصة حتما سيطلقني فبالنهاية هو رجل شرقي، حتى وان كان طبيب نفساني ومتفهم ويحبني

صارت ايلين تربت على كتفها تجيبها باسى :

- لا تقلقي عزيزتي كل شيء سيكون على ما يرام، واذا اردت رايي عليك اخبار هارون بكل شيء، بالنهاية انت لم تقومي بخيانته هي قصة حدثت في الماضي وتوقفت قبل ارتباطكما حتى

ايدت شذى كلامها لكن ريان لم تقتنع بسبب خوفها من ردة فعله، اشرت على النادل بعدها وطلبت منه ان يحضر لها قطعة من الكريب الشهي بالفراولة مع كاس عصير البرتقال، وراحت تسال شذى عن السبب الذي جعلها تطلب منها اللقاء ريثما ياتي النادل بطلبها، كانت الاخرى مترددة قليلا في الشيء التي ستخبرها به لكنها جابهت خوفها وقالت لها بنبرة حزن :

- لقد طلبتك لاجل توديعك

رفعت ريان حاجبها في استغراب ونظرت نحو ايلين التي كانت على دراية مسبقة بالامر ثم اردفت نحوها :

- ما هو قصدك ؟ الى اين انت ذاهبة ؟

- الى وهران

- ولما ؟ ما هذا القرار المفاجئ يا شذى ؟ .... التفتت بعدها على ايلين وقالت : هل كنت تعلمين انت ؟

- صدقيني انها اخبرتني هذا الصباح فقط وعرضت علي ان اكون معها لحظة اخبارها لك

- ريان انا اسفة عزيزتي لكنني مضطرة على ترك عنابة

- لماذا ؟ هل دق ناقوس الخطر على حياتك ؟

توقفت شذى عن الكلام وانتظرت مغادر النادل الذي اتى بطلب ريان ثم واصلت كلامها :

- لقد سبق واخبرت ايلين به وساخبرك انت ايضا بالقصة،، قبل خمسة سنوات تمت خطبتي من سليم شقيق زوجة خالي عباس دون رغبة مني، وقد رحمني القدر عندما امسكت به الشرطة بعد شهرين بتهمة ترويج المخدرات اذ وجدتها فرصة لارمي الخاتم في وجهه، ومن يومها لم اسمع عنه أي خبر، حتى ذلك اليوم عندما كنت برفقة ايلين نقتني لك هدية الزفاف، ظهر من العدم وهو يتوعد لي ان لم اكن له فلن اكون لغيره

كانت ريان تستمع اليها بكل جوارحها تستغرب احيانا وتاسى على حالها احيانا اخرى وقد قالت لها عندها بعتب :

- ولكن لما لم تخبرينا بالامر من قبل ؟

- وماذا كنتما ستفعلان ؟

- على الاقل نخفف عنك وطأتك

- لقد قلت لها نفس الشيء عندما اخبرتني انا ايضا، ولو لم اكن معها يوم صادفنا خطيبها لربما لم تفكر في اخبارنا ابدا

- لا ليس هكذا صدقاني المسالة فقط لها علاقة بمقتي انا لهذا الشيء لانني لم اكن متقبلة اياه من الاساس ... بالنسبة لي كانت غيمة سوداء ومرت

ارتشفت ريان قليلا من كاس العصير واردفت مجددا :

- ولهذا ستتركين عنابة ؟ وهل برايك الهروب هو الحل ؟

- احيانا يكون الحل يا ريان، لقد وجدت عملا مربحا هناك في اذاعة تلفزونية داتاكوم وانتما تعلمان ان الصحافة اكبر احلامي، ولطالما تمنيت ان اكون مذيعة، وها هي الفرصة قد اتت الى قدمي فهل ارفضها ؟

- بالرغم من انني ساحزن لفراقك لكنني لن اقف عائقا في وجه احلامك وساتمنى لك التوفيق دائما

- شكرا لك

لم تكن هذه الضربة وحسب بالنسبة لريان، فقد فاجاتها ايلين ايضا بذهابها برفقة شذى لوجود مناصب عمل وافرة في مصنع الطاقة الشمسية الذي فُتح الشهر الماضي، وقد كان الاعلان في الصفحة الرسمية لولاية وهران دفع بحشد كبير من خريجي دفعة الهندسة الكيمائية والميكانيكية وشعبة الالكترونيك ايضا بالتسجيل في رابط الموقع فاذا ما تم القبول يلتحقون بالشركة لاتمام باقي الاجراءات،، كانت ريان تشعر بالغبط وهي ترى صديقتيها على مشارف تحقيق احلامهما عداها هي التي تمنت ان تحظى بمثل ما حظينا به هما..

***

انهت ريان اخيرا وضع اخر طبق حول مائدة العشاء وهمت بمناداة هارون وبلال لاجل تناول الطعام، والتعب مسيطر عليها من اعلى راسها وحتى اخمص قدميها، كانت تظن ان مسؤولية الاولاد هيّنة ومسلية من جهة اخرى لكنها تفاجئت بالعكس وبات الوضع الجديد يُتعبها قليلا اذ بدات الان تشعر بمعاناة شقيقتها فادية عندما كانت تشكو لها عن شقاوة اطفالها،، امسكت بالملعقة وراحت تاكل بنهم بسبب الجوع الشديد من طبق الفاصولياء الحمراء مع لحم البقر غير عابئة بانتظار البقية،، حتى اتاها صوت هارون من خلفها معاتبا اياها :

- ا لم تستطيعي الصبر لخمس دقائق ؟

اجابته وهي تُسند الكرسي لبلال تساعده على الجلوس ...

- انتما من تاخرا ، ليس ذنبي انني مِتُّ من شدة الجوع !!

- اذا كيف مر لقائك بصديقتيك ؟

- لا باس به

قالتها ريان بنبرة حزن دفين لم تنجح في كبحه داخلها وقد تمكن هارون من رؤيته جيدا حيث سالها مستفسرا :

- لما تبدين مستاءة ؟

- لا شيء

اجابها عندها بحزم :

- ريان لا تكذبي علي انا متاكد انه بك شيء ما ؟

تنهدت الاخيرة باسى واردفت :

- انهما شذى وايلين سيذهبان الى وهران لاجل العمل وسيستقران هناك ايضا

- اوه حقا ؟؟ ا لم يجدا وظيفة هنا ؟

- لا ادري هما تريدان هذا ... اساسا لقد كنا سابقا نطمح للسفر الى الخارج نحن الثلاثة فهذه كانت اكبر احلامنا

تعجب هارون من كلامها وراى فيه بعض من الندم على ما فات، وقد شعر ان زواجها منه قد قيد لها حريتها وجرفها نحو تيارات لا ترغب بها، سكت قليلا ثم استرسل قائلا :

- الحياة هكذا عزيزتي نحلم بشيء لكن الواقع يفاجئنا بشيء اخر تماما

ابتسمت بعفوية معه واجابت :

- معك حق في هذا، وانا سعيدة بواقعي وبوجودك بجانبي ايضا حبيبي، ولا يخالجنك الشك بكلامي هذا انني نادمة ؟؟ لا على العكس انت اجمل نصيب واجمل قدر ساقه الله سبحانه وتعالى لي

دبت كلاماتها تلك الروح في جسد هارون الذي كان على شفا حفرة من ان يصدق تخمينه بخصوصها،، ثم امسك بيدها وراح يقبلها بحنان، ينظر ناحيتها بحب وهيام سعيد جدا انه واخيرا استطاع ان يملك قلبها الصغير.. لكنه في ذات الوقت كان يشعر بالالم يعتصر في داخله جرّاء المنظر الذي راه وهو عائد الى البيت على طريق الساحل،، ومن لحظتها والاسئلة تنهش تفكيره بخصوص علاقة شقيق المرحومة نسرين بزوجته؛ فهو لم ينسى لثانية نظرات الريبة بينهما في المشفى وما زاد الطين بلة انه فور وصوله الى المنزل هرولت اليه والدته التي يرجح انها كانت تراقب قدومه من شباك غرفتها على احر من الجمر لتزف له خبر قدوم شاب غريب الى منزله لاجل رؤية زوجته،، تلك اللحظة كاد يفقد اعصابه ويدمر كل شيء من حوله بسبب غيرته اللامحدودة على حبيبة قلبه، لكن استفساره من زوجة خاله التي سألها عن الحكاية جعله يرتد قليلا عما كان ينوي الاقدام عليه، كان بامكانه ان يطلب تفسيرا واضحا من ريان ويسالها عن ما اذا كان هناك شيء بينها وبين وائل حتى ولو كان في الماضي لكنه لم يكن متاكد من صدقها في الاجابة على سؤاله وقد غض الطرف عن القصة ريثما يرى ما سيحدث في قادم الايام، فالوقت كفيل بكشف كل الاوراق المطمورة.. اتاه صوتها الانثوي الناعم وايقظه من موجة السرحان تلك قائلة :

- فيما تفكر ؟؟ اراك شارد الذهن ؟ ا هناك ما يشغل تفكيرك عزيزي ؟

اجابها وابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتيه :

- انني افكر في كيفية ايجادي لمساعدة جديدة؛ فكما تعلمين انني طردت حسناء بسبب ما حدث اليوم وقد وجدت صعوبة بين تقييد المواعيد وبين الاهتمام بالمرضى

- اممم معك حق،، لما لا تضع اعلانا على الفيسبوك ؟

- لا اريد

- والسبب ؟

- لانني لا اضع ثقة في أي شخص كان،، ان لم تكن لي معرفة خاصة به مسبقا فلن اجازف واسلمه مفاتيح عيادتي

سكتت ريان عنه ترتشف من كاس الماء ثم اردفت مجددا :

- وكيف عرفت حسناء اذا ووظفتها عندك ؟

ابتسم ناحيتها بلطف وراح يطالعها بخبث على غيرتها البادية على ملامح وجهها بعدها اجابها :

- لهذا السبب اتحاشى مواقع التواصل، كي لا تتكرر الحادثة

- هكذا اذا !!

- اجل حبيبتي

- اتذكر مرة انك اخبرتني عن مريضتك تلك التي تعاني مشاكل مع زوج امها ؟ ... ماذا كان اسمها ؟

- تقصدين اسماء بخليلي ؟

- اجل، هي ... لما لا توظفها عندك ؟ قلت لي انها تبحث عن عمل لاعالة نفسها وامها ؟

لمعت عينا هارون بحماس وقال بفرح :

- صدقتِ كيف لم تخطر على بالي تلك الفتاة،، متاكد انها ستفرح كثيرا بهذا الخبر

- صحيح،، علينا مساعدتها كي لا تبقى تحت رحمة ذلك الرجل القاسي

- احسنت يا زوجتي الذكية.. بالمناسبة هناك خبر سيفرحك انت وصغيري الشقي

اجابت بفضول :

- ما هو ؟

- سنذهب للتخييم في نهاية عطلة الاسبوع

- تقول الصدق !! يعني بعد اربعة ايام ؟

تلك اللحظة برقت عيناها بفرح وحماس زائد وراحت تعانق بلال بسعادة تكرر على مسامعه ما قاله هارون للتو، حيث بادلها الصغير الابتسامة وراح يعانقها بصعوبة يحاول ان يألف على الوضع،، ثم قال مخاطبا هارون :

- واين سنذهب ابي هارون ؟

- الى جبال الإيدوغ يا عزيزي تحديدا قمة بوزيزي

- يا سلام بلال سعيد جدا بهذا الخبر اشكرك ابي هارون.

***

جبال الإيدوغ هي سلسلة جبلية تقع بين ولايتي عنابة وسكيكدة بشمال شرق الجزائر، تصل أعلى قمة بها إلى 1008م وهي قمة بو زيزي، أحيانا تكسوها الثلوج في فصل الشتاء، معظم مساحة السلسلة مغطاه بغابات متوسطية مكونة من مختلف أنواع الأشجار.
تغطي المنطقة الجبلية بأكملها تقريبًا غابات البحر الأبيض المتوسط حيث يتعايش بلوط الفلين ويعني بالاجنبية (Qercus suber) ، وبلوط الزين ومعناه (Quercus canariensis)، وايضا قطلب أونيدو (*Arbutus unedo*) ، والخلنج (Erica arborea)ولا تزال هناك بعض أشجار الكستناء (Castanea) حول قرية سرايدي، خصوصيتها أنها كانت موجودة هناك قبل وصول المستوطنين الفرنسيين في عام 1830 بوقت طويل..

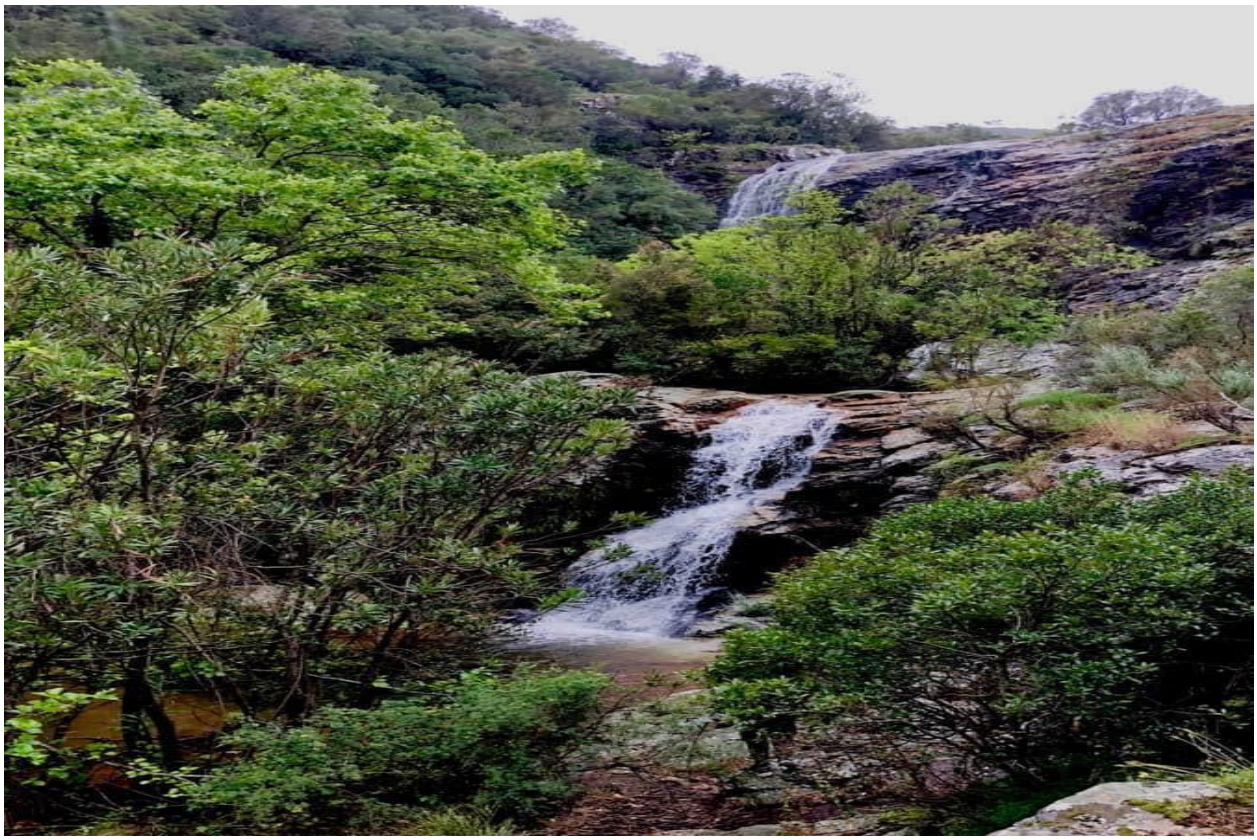

وجبال الايدوغ هو المكان الوحيد في العالم حيث نجد السمندل شمال افريقيا، بالإنجليزية (Pleurodeles poireti) وهو نيوت رمادي صغير مهدد بالانقراض، وكذلك النوع الوحيد من قافزات الديل بدون أسنان معروفة في العالم لهذا اليوم بي (Edoughnura)، وسلمندر الجزائر بالاجنبية معناها (Salamandra algira) وشيهم مبذول (Hystrix cristata).

استمر الحال مع بلال تقريبا ساعة ونصف قبل موعد الانطلاق الى رحلة الاكتشاف والمغامرة،، وهو يطالع مقالات شتى بخصوص جبل ايدوغ على موقع غوغل لاجل التزود بالمعلومات على اكمل وجه، اخدت عقله تلك الصور التي تعود الى الطبيعة الخلابة التي هي الجمال الذي خلقه الله على هذه الأرض، وإحدى التجليات الدّالة على قدرته سبحانه وتعالى في خلقه، ومن شدة روعة تلك الصور التي تعود الى الاشجار المتنوعة وتدفق المياه من الشلالات بطريقة جعلت القشعريرة تسري في انحاء جسده صار متلهفا لزيارة هذه الاماكن التي تعدّ بقاع يُرفه الإنسان فيها عن نفسه، ليبتعد عن ضجيج الحياة، والمدن الصاخبة...
اغلق لوحه الالكتروني ووضعه في حقيبة الظهر الخاصة به قد ابتاعها له هارون يوم امس من المحلات التجارية الكبرى كي يضع فيها اشياءه الضرورية لهذه الرحلة، وقد وضعت له فيها ريان قارورة مياه معدنية وعلبة كارتونية لعصير فراولة بعدها حضرت له علبة غذاء بلاستيكية مستطيلة الشكل مقسمة الى اربعة اقسام، ووضعت له تفاحة حمراء مع عنقود عنب في اول قسم بجانبه قطع الكوكيز المفضلة لديه،، وفي القسم الثالث اضافت له الجبن الابيض الطري البقرة الضاحكة وقطعتين من خبز التوست قد اخدت مكانها بصعوبة في القسم الرابع،، بعدها اغلقتها باحكام وطلبت منه ان يضعها داخل حقيبته وينتظر في غرفة المعيشة ريثما تنتهي هي من تجهيز نفسها وما بقي من لوازم اخرى للرحلة، وقد ارتات ان تشغل له التلفاز على قناة ناشيونال جيوغرافيك ابوظبي ليلتهي بمشاهدة الحيوانات ولا يشعر بالملل فقد باتت تعرفه جيدا الان وتعرف طباعه عندما يسأم من الانتظار ماذا يمكن له ان يفعل.. بعد ان اخد كل واحد مكانه في السيارة دعس هارون على البنزين وادار المقود في انطلاقةٍ قوية نحو جبال الإيدوغ والفرحة بادية على وجوه الجميع خصوصا ريان التي لطالما حلمت بمغامرة كهذه مع شريك العمر وقد كانت في الماضي تتمناها مع وائل، لكن شاءت الاقدار مع غيره، ولو عاد بها الزمن الى الوراء واتى احد ما واخبرها انها ستقوم بها مع ابن عمتها لضحكت على كلامه بسخرية كبيرة ولما اخدت حديثه على محمل الجد ابدا،، لكنها تبقى بالنهاية الحياة الدنيا اليوم نمشي على اقدامنا وغدا لا ندري اين سنكون،،، كانت الطريق طويلة جدا وهارون من عادته ان يلتزم الصمت معظم الوقت كي لا يفقد توازنه في القيادة، ما دفع بريان ان تشعر بالملل، التفتت على بلال لتتسلى معه بالحديث بعدما بدا زوجها بتجاهلها دون قصد منه لكنها فوجئت به نائما حيث علا الاحباط ملامح وجهها وراحت تشغل مذياع السيارة تستمتع بالمناظر الطبيعية على جانبي الطريق وتستمع الى سيمفونيات موزارت التي وجدتها مرمية في درج السيارة في شكل اقراص مضغوطة، حيث تذكرت انه اخبرها سلفا بعشقه لهذا النوع من الموسيقى الكلاسيكية وقد صارت تفكر بينها وبين نفسها في القواسم المشتركة التي تجمعها بزوجها بالرغم من الاختلاف الكبير الواضح وضوح الشمس،، فهو انسان واقعي وهي فتاة حالمة.. هو شخص متفهم وهادئ وهي سريعة الانفعال وعصبية لابعد الحدود.. تهمه ادق التفاصيل الصغيرة والكبيرة على عكسها هي سطحية ولا تهمها التفاصيل،، لم تخطئ عندما آمنت ان الحب لا يجمع المتشابهين بل يجمع المختلفين

دائما وها هي تعيش التجربة على ارض الواقع وبطريقة عجيبة لم تكن لتخطر على بالها ابدا، ابتسمت بعفوية واغمضت عينيها مستسلمة للنوم مسافرة بعقلها الى عالم الاحلام الفتان حيث لا يوجد به اي بشر عداها هي واسرتها الجميلة التي حظيت بها مؤخرا،، كانت تركض بسعادة في حدائق الزنبق تداعب الفراشات الملونة والعصافير وتسرد لهم قصصا وحكايات عن كان يا ما كان سالف العصر والاوان، حكاياتٌ لا تُنسى واساطير من مشرق الشمس عبرت بلدانا عدة،، وفي لحظة غير متوقعة وهي في اقصى سعادتها اختفى كل شيء من امام ناظريها ودق ناقوس الخطر معلنا عن اقتراب مصيبة ما،، انتفضت بفزع على احدهم وهو يضع يده على كتفها ينادي باسمها بطريقةٍ كانت جدُّ مألوفة بالنسبة لها، التفتت ناحية الصوت لترى من هذا الغريب حتى فتحت عينيها على صوت هارون وهو يوقظها وبلال ايضا يخبرهما انهم قد وصلوا واخيرا الى وجهتهم المنشودة،، نفضت ريان الافكار عنها بخصوص ما راته في حلمها للتو، تستعد لقضاء عطلة جميلة مع زوجها ولذكريات جديدة تريد نسخها في ذاكرتها واستبدالها باخرى كانت في ماضي دفين قد آن له الرحيل والاضمحلال نهائيا،، بدأ هارون باخراج المعدات من صندوق السيارة الخلفي، يطلب من ريان ان تساعده في حمل الكراسي القابلة للطي وحقيبة المؤونة اما هو فقد باشر في تفكيك الحبل ونزع ادوات التخييم من فوق السيارة المتمثلة في الخيمة وهي اول عنصر اساسي، والمطرقة لاجل التشييد بالاستعانة طبعا باوتاد لتثبيت الخيمة، وكذلك عدة إصلاحها، سرير هوائي مُعد خصيصا ليستخدم داخل الخيمة قد اصّرت ريان على استعماله بدل الحصيرة او الحقيبة، والوسادة، واخيرا مضخة الهواء لاستخدامها لملىء السرير بالهواء، عقد هارون الهمة في اقامة الماوى قبل ان يداهمهم الوقت وتودعهم الشمس نحو المغيب وقد الّح عليه بلال كثيرا لاجل تقديم يد العون له بسبب حماسه الزائد، اذ عارض الاخر في البداية لكنه رضخ له بعد عدة توسلات منه، اما ريان فقد صارت تقوم باخراج ادوات المطبخ من عبوة غاز لتشغيل الموقد وفحم حجري قد اخدت وقتا وهي تبحث عنه بين اغراض الحمام، بعدها وضعت القدر والمقلاة لاجل الشواء والملاعق فوق طاولة خشبية مربعة الشكل بجانب شجرة البلوط وقد انفلت منها طبق من اطباق الطعام ووقع ارضا مخلفا صوتا مزعجا اثار انتباه هارون الذي هرع اليها باضطراب يسالها ان اصيبت باذى، اذ كانت ردة فعله بالنسبة لها اول شيئ جميل يحدث في هذه السياحة الجبلية...

- انا بخير عزيزي لا تقلق علي وعد لانهاء عملك

قبل اصبع سبابتها يبتسم ناحيتها بلطف، ثم عاد حيث كان ينهي ما تبقى له في بناء الخيمة ليشرع بعدها في تشييد خيمة بلال التي لابد لها ان تكون بجانب خيمتهما، اما ريان فقد واصلت في ترتيب الاواني المتبقية من سكاكين وشوك وأكواب ومناشف قماشية لاجل تنظيف بقايا الطعام العالقة وقطع اسفنجية لغسيل الاطباق، وأكياس للقمامة.

خيّم الليل واسدل بستاره على المكان مخلفا وراءه لحنا ايقاعيا جميلا لاصوات الحيوانات الليلية من البومة، والكلاب وابناء آوى التي دبت قليلا من الرعب في قلب ريان بالرغم من وجود هارون بجانبها وطمانته لها انه لن يحدث شيء سيء...

- انا استغرب برودك هذا يا هارون ونحن في هذه المنطقة النائية المقطوعة ؟ حتى لو اردنا طلب النجدة لا نستطيع لانعدام الشبكة

- لقد اعتدتُ على مثل هذه الجولات السياحية، ولهذا لا اراه امرا يستحق المبالغة

- اعلم انك معتاد

- كيف تعلمين !! .... سالها مستفسرا باستغراب،، اما هي فقد شعرت انها تسرعت في الكلام وما كان يجب عليها قول هذا، سكتت قليلا ثم اردفت :

- في اليوم الذي ارسلت الي فيه طلب صداقة القيت نظرة عابرة على صفحتك

قال لها بابتسامة يضم شفتيه من خلالها :

- قلتِ عابرة اذا ؟؟

- اجل لا يذهب عقلك بعيدا،، المهم مع من كنت تاتي الى هنا ؟

- مع اصدقائي

- جيد

- هيا يكفي ثرثرة ولتساعديني في اعداد شرائح اللحم لاجل الشواء

- حسنا اذهب انت وشغل الفحم وسنتكفل انا وبلال باعداد الباربيكيو

- اعتمد عليكما ايها الثنائي الجميل

شعرت ريان بالسعادة العارمة تجتاحها بقوة كبيرة خصوصا لسماعها كلمة ثنائي من فم زوجها، وقد تناست بدورها تلك الاصوات المرعبة وراحت تشغل نفسها باعداد الطعام بكل فرح وسرور مع من سيكون ابنها مستقبلا،، بعد ان صارت المائدة جاهزة شرع الثلاثة في الاكل بنهم شديد بسبب الجوع من تعب الرحلة، مستمتعين بنسمات الهواء الخريفية لاواخر شهر اوكتوبر التي داعبت جفون ريان وجعلتها تحلق في الفضاء رفقة تلك النجوم المضيئة في السماء الواسعة،، وبعد ان انهوا طعامهم قام الاثنان بتوظيب الطاولة باستعمال وعاء واسفنجية لغسيل الاطباق قد تذكرتهما ريان في اخر لحظة مع غسيل الاواني وهم يهمون بمغادرة المنزل، في تلك الاثناء تسلل النعاس الى عيون بلال وطلب من هارون ان يساعده

في تغيير ثيابه لاجل النوم كما انه الح عليه كي يروي له قصة بينوكيو الدمية الخشبية قد اعتاد على سماعها من امه كل ليلة قبل موعد رحلته الى عالم الاحلام.

انهت ريان عملها وارتمت بعشوائية فوق العشب قرب الخيمة التي ستنام فيها هي وزوجها، تتامل الكوكب الفضي وهو يسبح في الفضاء، صديق الشعراء وذوي الاحساس المُرهف تحوم حوله تلك اللالئ البراقة بطريقة تسر الناظرين اليها،، اخرجت هاتفها من جيب بنطالها وارادت ان تتصفح موقع الفيسبوك الخاص بها فاستغربت بها قوية على غير العادة وخصوصا انهم في منطقة جبلية، وما زاد من استغرابها وضربها على وترها الحساس هو ارسال وائل لطلب صداقة لها عبر حساب جديد مرفوقا برسالة فحواها تحية السلام،، ازدرت ريقها بصعوبة واختطف الهلع لون وجهها من التوتر خوفا ان يعرف هارون الامر فتخسره بعدما جاهدت للحصول عليه،، بسرعة قامت بحذف الرسالة وحظره مجددا من صفحتها تدعو في سرها ان يتركها في حال سبيلها فهي لن تغير قرارها بخصوصه ولن تعود اليه مهما كلفها الامر.. انتفضت بفزع على صوت هارون وهو يجلس القرفصاء بجانبها يلف جسده بغطاء سميك يقيه برودة الجو التي هبّت فجاة وهو يسالها قائلا :

- الى اين سافرتِ بمخيلتك ؟

قامت مكانها واعتدلت في جلستها تلف نفسها ايضا بذلك الغطاء كحركة رومنسية منها جعلت الدماء تفور في جسد هارون وقالت بعفوية :

- افكر في رسمة بلال

- رسمة بلال ! أي رسمة ؟

- اراني اياها منذ عدة ايام ، عبارة عن لوحة فنية لثنائي يجلسان القرفصاء في البراري ويلفان نفسيهما بغطاء قطني وبجانبهما مصباح زيتي

رفع هارون حاجبه في استغراب وقال بدهشة :

- يا الهي وانى له ان يعرف هذه الاحداث ؟

- ا رايت وكانه استوحاها من الغد

- صِدقًا هذا الولد يفاجئني مرة بعد مرة، ارجو ان نكون عند المسؤولية بخصوص تربيته

- باذن الله سنفعل

سكتت ريان قليلا تطالع السنة اللهب من النيران المشتعلة امامهما ثم قالت :

- ا تعلم شيئا ؟

- ماذا ؟

- امر غريبٌ بالفعل

- ما هو هذا الامر الغريب ؟

- بالرغم من ان هذا الكون واسع لاقصى درجة، الا انه احيانا يضغط علينا بشدة دون أي رحمةٍ او شفقة

بقيت كلاماتها تدور في راسه متفاجئ منها تارة ومُعجب بها تارة اخرى، فهي ليست رسامة ماهرة وحسب بل ايضا شاعرة وملهمة لها من الخيال ما يكفي لبناء حضارة شامخة من البساطة والعفوية وحب الخير للناس،، ابتسم بحنية تجاهها وقال لها وهو يعبث بعود صغير كان مرمي بجانبه :

- ا تعلمين انت ايضا شيئا ؟

- ماذا ؟

- انه لم يسبق لي ان صادفتُ فتاة مثلك ؟؟ انت ملاك انيق نادر يا ريان لا يوجد منك نسختين،، يجب عليهم ان يضعوك في متحف ويغلقوا عليك باحكام كي لا يستطيع احد الوصول اليك !!

رمقته بنظرات حيرة سارحة في تلك العينين السماوية التي حل عليهما ظلام الليل وحجب عنها رؤية لونهما، بعدها ابتسمت ببراءة واردفت :

- فقط انت من يستطيع الوصول الي وغير هذا لا اقبل

ضحك هارون على كلامها وقال بحب :

- اساسا انا المتحف حبيبتي وانت هي تحفتي الفنية التي حظيت بها وظفرت بحبها

سكتت قليلا وقد احمرت وجنتاها خجلا تضع راسها داخل حضنه لا تستطيع النظر اكثر في عينيه، بعدها اجابته وهي على تلك الوضعية باستحياء كبير :

- بالمناسبة لقد انتهت اجازتي

اجابها بابتسامة ماكرة :

- اووو حقا !! يال سعادتي اذا

تلك اللحظة حملها بين دراعيه واخدها داخل الخيمة تحت احمرار وجنتيها وخجلها الزائد الذي جعل الدماء تفور في فروة راسها وانحاء جسدها، لتتحد ارواحهما سويا ويكتمل زواجهما بعد معاناة كبيرة عاشوها مؤخرا.

***

ارسلت الشّمسُ الصباحية اشعتها الذهبية لتخترق جدار الخيمة في شكل وميض دافئ يتجه مباشرة نحو جفون ريان التي كانت غارقة في النوم في احضان زوجها، ترتسم على شفتيها الكرزية الممتلئة ابتسامة بريئة وراءها سعادة جمّة لا يضاهيها شيء آخر،، حرّكت دراعها بكسلٍ ومدّت يدها نحو هاتفها الذي كان مرميًا بعشوائية على الارضية ترى الساعة اين صارت الآن، وقد تفاجئت بها وهي على مشارف الثامنة والنصف صباحا، حيث قامت بهلع من مكانها تقوم بايقاظ زوجها، الذي فتح عينيه بصعوبة يتسائل عن سبب هذا الصراخ من عند هذا الصباح الباكر ؟ ... كانت ريان تعلم ان بلال ليس من النوع الذي يحبذ البقاء في سريره عند استيقاظه من النوم ولا يهم المكان المتواجد فيه، وهذا جعل القلق ينتابها لا ارداديا خوفا ان يكون قد حدث ما كانت تخشاه،، بسرعة رفعت السّحاب عن الخيمة وركضت نحو خيمته بعد ان ارتدت ثيابها ووضعت وشاحا على راسها، لكنها توقفت منتصف الطريق وقد تجمّد الدم في عروقها وهي تراها مفتوحة على مصرعيها،، صارت تنده عليه بصوتها وراحت تتفحص المكان لكنها لم تجده ويبدو انه غادر منذ وقت لان ثياب النوم خاصته ملفوفة بطريقة منتظمة وموضوعة فوق سريره الهوائي،، امسكت ريان بقلبها وصارت تصرخ على هارون تخبره بالمصيبة التي هلّت عليهما من العدم ودون أي سابق انذار، كان

الآخر قد استعاد وعيه بالكامل من النوم وسار ناحيتها باستفسار يسالها عن سبب كل هذا العياط ...

- الحقني، ارجوك !!

- ما الامر ؟

- بلال ليس هنا ... ليس في خيمته ولا في أي مكان بالقرب من هنا

تسارعت دقات قلبه لحظة سماعه لتلك الجملة وتعالت وتيرة تنفسه من شدة الخوف على ان يصيبه أي اذى من طرف حيوان بري او حتى ان يتعرض له شخص غريب، ازدر ريقه وحاول تهدئة ريان برويةٍ يفكر له في نفس الوقت عن حل لهذه المشكلة خصوصا ان موعد المحكمة لم يبقى له الكثير من الوقت ويجب عليهما الحرص على الامانة كي لا يقعا في أي مشاكل جانبية،، كان اول شيء قام به انه امسك بعصا غليظة قد لمحها ليلة امس بجانب جذع شجرة البلوط الفلين وامسك باليد الاخرى يد زوجته وسارا سويا بخطوات ثابتة يبحثان عن الصغير في شتى الاماكن،، ابتعدا مسافة 150 متر يصرخان باعلى الاصوات عليه عله يسمع ندائهما ويعود، لكن من دون فائدة وكأن الارض إنشقت وابتلعته.. كانت ريان خائفة جدا من ان يصيبه مكروه ما تتساقط الدموع من عينيها مثل زخات المطر، وقلبها لم يعرف طريقا للتوقف عن الخفقان،، توقف هارون عن المسير بعدما يأس من البحث وقال مسترسلا كلامه الى زوجته ...

- لا اثر له الى اين ذهب هذا الولد ؟؟

- لا اعلم ... لا اعلم علينا ايجاده وبسرعة يا هارون قبل ان يحدث معه شيء ما

- ششش لا تفكري هكذا،، باذن الله لن يصيبه أي اذى

- ارجو هذا

بعد ان اخدا قسطا وافيا من الراحة واصلا المسير في احضان تلك الطبيعة الخلابة يندهان على بلال يمينا تارة وشمالا تارة اخرى،، حتى تناهى الى مسامعهما اصوات خافتة لمجموعة من الشباب تبعد عنهما بضع امتار، تبادلا نظرات الاستغراب مع بعض وسارا صوب المكان في خطى سريعة حتى كانت المفاجئة كبيرة جدا عليهما وخصوصا على ريان التي تسمرت مكانها وهي ترى وائل يداعب صغيرها بمرح وسرور رفقة ثلاثة من اصدقائه، قد كانت تعرف اثنين منهما والاخر درس معها في عامها الاول والثاني قبل التخصص في مرحلة الليسانس... ركض هارون اتجاههم ونادى على بلال بقلق يساله بعتب عن سبب مغادرته المكان دون ان يترك خبرا لهما حيث قال له الاخر ببراءة :

- انا اسف بابا هارون،، من عادة بلال الاستيقاظ باكرا ومن عادته ايضا انه لا يحب البقاء في سريره

- لكنك افزعتنا يا عزيزي على الاقل كنت ايقظتنا معك ؟

- لم اعرف كيف افتح السّحاب من الخارج

اعاد هارون عناقه من جديد تاركا الفسحة بعدها لزوجته التي اخدته اليها بالاحضان تحمد الله على وجوده بالف ما يرام، اما هارون فقد التفت الى وائل واردف نحوه بتساؤل :

- كيف عثرت على بلال ؟

اجابه الاخر بعد ان استرق نظرة نحو ريان بتوتر :

- لقد كنت في جولة استطلاعية استكشف المكان، حتى وجدته صدفة قرب النهر يُروي ظمأه، وقد استغربت رؤيته هناك كثيرا، كما انني سالته عن سبب وجوده هنا فقال لي انكم في سياحة جبلية مثلنا ايضا، ولان بلال ليس طبيعي مثلنا فقد نسي طريق العودة الى خيمتكم

- حسنا فهمت عليك،، الحمدلله على التوقيت المناسب لقد خفنا كثيرا على ان يصيبه مكروه ما

في تلك الاثناء انتبه سامي مع ريان التي كانت تقف خلف زوجها تمسك بيد بلال وقد شعر بالاستغراب لوجودها هنا وهو على حد علمه انها كانت حبيبة وائل خلال الثلاث السنوات الماضية،، تقدم نحوها وسالها بفضول :

- ريان !! ا هذه انت ؟

حدث ما كانت تخشاه ريان منذ رؤيتها لسامي رفقة وائل وصديقيه،، لم تدري لحظتها ماذا تقول خصوصا ان زوجها صار يرمقها بنظرات غريبة وعلامات الاستفهام تحلق فوق راسه كالغربان،، تمنت ان تنشق الارض وتبتلعها من شدة التوتر والخجل وقد دعت في سرها ان لا يُفتضح امرها بشان علاقتها السابقة بوائل، كادت ان تجيبه لكن تدخل هارون حال دون ذلك حيث قال :

- انها زوجتي !! وانت من اين تعرفها ؟

- اوه انا اعتذر لم اسمع عنها انها تزوجت،، لقد كانت زميلتي في الجامعة قبل التخصص

- فهمت ... المهم نترككم على خير سلامة وشكرا لك يا وائل على الاهتمام ببلال

اجابه الاخر وهو يمد يده نحوه لمصافحته ...

- لا داعي للشكر بالنهاية هو ابن شقيقتي رحمها الله وهذا اقل ما افعله بخصوصه

بادله هارون التحية وغادر المكان رفقة زوجته والتوتر هو سيد الموقف،، لا يدري لما يشعر انها تُخفي عنه امرا ما اوجزء من قصة حدثت في الماضي وبقيت نهايتها مفتوحة لحد الساعة. سالها وهما في طريق العودة الى المنزل عن علاقتها بوائل وان كانت تعرفه قبل الزواج ام لا،، اذ قرر مواجهتها هذه المرة بعد ان راى نظراته الغريبة ناحيتها عندما تصادفا في الجبل ...

- لا اعرفه ولما تسال ؟

- لا ادري شعرت انه يتودد اليك او ربما هُيئ الي وحسب !

- ما بالك يا هارون ؟ هل تشك بي ام ماذا ؟ كونك طبيب نفساني لا يعطيك الحق ان تقول عن أي شخص ينظر نحوي انه يتودد لي !!

- لا.. لم اقصد هذا،، لما انفعلتِ هكذا ؟

تداركت ريان موقفها وانها ستكشف امرها دون قصدٍ منها، تريّثت بعض الشيء تحاول ضبط اعصابها ثم اردفت مجددا :

- اسمع انا لا علاقة لي بذلك الشخص لا من بعيد ولا من قريب، لا قبل الزواج ولا بعده، لهذا كف عن تفكيرك ذاك ناحيتي وليطمئن قلبك،، انا احبك انت وحسب ولا ارى غيرك امامي وحتى لو لم احبك لم اكن لافعلها من وراء ظهرك فتربيتي لا تسمح لي يا هارون

كان يرى في كلاماتها الصدق حتى وان كان ما زال يشك بوجود امر ما بنسبة صغيرة،، وقد قرر ان يغض الطرف ثانية كي لا ينجرف وراء احتمالات لا طائل منها،، اما هي فقد شعرت بتانيب الضمير لاخفائها ماضيها عنه بالرغم من انها كانت صادقة في كل كلمة قالتها، عدا عدم معرفتها لوائل قبل الزواج، كانت على شفا حفرة من اخباره كل شيء كما نصحتها ايلين وشذى لكن صوت ما داخلها منعها من ذلك والتجأت للصمت بسبب خوفها من المجهول.

بعد ان وصلا الى البيت في حدود الساعة الثالثة والنصف بعد الزوال هاتف هارون اسماء التي بدات العمل عنده منذ يومين بدلا من حسناء واخبرها ان تباشر العمل من يوم غد وتقوم بتقييد المواعيد مساءا لان الفترة الصباحيه مخصصة لمواعيد محاضراته في الجامعة،، بعدها اخد حماما ساخنا وغادر البيت للقاء اصدقائه والاستمتاع قليلا بعيدا عن ذلك الموضوع الذي بدا ياخد حيّزا صغيرا من تفكيره.

***

مضتْ الايام بسرعة البرق دون سلامٍ او كلام،، تُشرق شمس اليوم حافلةً بالاخبار السّارة لبعض الناس، والضارة للبعض الاخر والمستعصية كذلك على اولئك اللذين لا حول ولا قوة، وتغربُ في صمتٍ مرير مودعة بقايا انسان قد جردته الهموم من اثواب الكرامة والعفة، وقيّدته بسلاسل الخذلان حيث لا امل له للنجاة،، حالاتٌ كثيرة ومختلفة عن بعضها البعض يضطر هارون للتعامل معها برحابة صدر وصبر ايّوب،، محاولا بذكائه الفذ ورجاحة لسانه ان يساعد أي شخص يلجأ اليه بحكم خبرته المديدة في هذا المجال،، كان نهار اليوم بالنسبة اليه صعب المِراس ومن جميع النواحي، لدرجة انه لم يعد الى البيت فترة الغذاء لاجل الاستراحة والقيلولة كما اعتاد على هذا، وقد هاتف زوجته يخبرها بالامر ويطلب منها ان تتكفل هي باحضار بلال من المدرسة لذوي الاحتياجات الخاصة، فالفترة الصباحية عنده كلها محاضرات مع الطلبة والمذاكرين، والوقت المتبقي منها يساعدهم في استدراك ما فاتهم بسبب تغيبهم عن الدروس لظروف عائلية، والفترة ما بعد الظهيرة ممتلئة الى اخرها بالمواعيد،، التي لم تترك له الفُسحة لتناول شيء يسُّد به جوعه... نظر هارون نظرة عابرة الى السّاعة المعلقة على الحائط بجانب صورة فروويد بتعب شديد؛ شارد الذِّهن في حركة عقاربها وهي تُصدِر دقات خفيفة (تيك ... توك، تيك ... توك، تيك ... توك، تيك ... توك)، جعلته يتثائب لا راديا، يطمح بنومٍ هادئ بعيدا عن ضغوطات هذا اليوم المُتعب زيادة عن اللزوم،، وضع راسهُ على المكتب بعد ان ازاح مدونته جانبا مع قلمه الاسود الجاف، واستسلم للنوم بكل اريحية غير عابئ بمكان وجوده، حتى تناهى الى سمعه طرقات خفيفة على الباب، لم يستطع تمييزها جيّدا في بادي الامر وظن لوهلة انه يحلم وحسب، لكن في المرة الثانية عندما تناهى الصوت من جديد الى مسامع اذنيه انتفض مع نفسه وفرك عينيه بقوة يستطرد النعاس عنه ويطلب من الطارق ان يتفضل بالدخول،، تفاجئ هارون جدا من ذلك الشخص او بالاحرى بذلك المريض، الذي لم يكن يتوقع رؤيته في عيادته ابدا،، جلس هو قُبالته يُلقي تحية السّلام عليه وعلامات الحزن بادية جدا على ملامح وجهه...

- كيف حالك حضرة الطبيب ؟

افاق هارون من صدمته تلك التي كانت بمثابة صفعة قوية افاقته من عالم الاحلام الى الواقع الذي هو في صدد مواجهته،، تنحنح بخفوت واجابه باستغراب :

- خيرا يا سيد حمادو !! ما لي اراك هنا ؟

تنهد الاخير تنهيدة عميقة مرفوقةً بزفير طويلٍ ينُم عن الضيق الذي يعيشه والحزن الذي حاوطه من كل جانب،، تذكر اخر الاحداث التي جرت معه وابتسم بسخرية لاذعة ترقرقت جرّائها عيناه البنية بالدموع؛ وكادت ان تنزل من عينيه لولا براعته في كبحها،،، عاد يتنفسُ بعمق ثم استرسل في الحديث قائلا :

- قبل اسبوع تمت ولادة زوجتي على الف خير ما يرام، انجبت فتاة جميلة كالقمر اسمتها نور

سكت قليلا عن الكلام يمسح حبات العرق عن جبينه لا يعرف كي يواصل في ما قد عقد العزم على فعله،، شعر هارون لحظتها ببعض الرّيبة وامكانية حدوث امور تفوق التصور، وقد بقي محافظا على ثباته امامه ورباطة جأشه مستمعا الى السيد امامه الذي حاله تُبكي الحجر،،،

- لكن المفاجاة كانت جد كبيرة بعدها،، اذ اتضح ان الفتاة مصابة بمتلازمة داون

- انها العدالة الالهية سيد حمادو .... قالها هارون وهو ينظر داخل عينيه نظرات حادة ومشفق على حاله كثيرا في آنٍ واحد،، التي صارت يُرثى لها بسبب ما فعله بحق ابنه بلال

- اجل، معك حق،، فقد عاقبني القدر ابشع عقاب بسبب فعلتي الشنيعة بحق ابني وزوجتي رحمها الله،، وانا الان ادفع ثمن اخطائي كلها ودفعة واحدة، وعذاب الضمير يكاد ينهش اضلُعي، وكلما وضعتُ رأسي على وسادتي ارى نفس الكابوس كل ليلة

- انه قانون الكون،، كما تُدين تُدان، انت سبق وهربت من ابنك لانه مصاب بطيف التوحد، فعاقبك القدر بابنة مصابة بمتلازمة داون،،، معادلة حسابية بسيطة معقدة في نفس الوقت

- ولهذا السبب اتيتُ اليك اساسا حضرة الطبيب

- تفضل ؟؟ ماذا يمكنني ان افعل لاجلك ؟

سكت رابح قليلا متردد بعض الشيء من اخباره بالامر لانه على تمام المعرفة انه سيحزنه، لكنه تحلّى ببعض الشّجاعة وعزم على مواصلة الدّرب الذي بدأه عن جديد، بعد ان قرر ان يتغير بصدق ويتعلم من اخطائه السابقة...

- اريد استعادة ابني بلال

نزل الخبر على هارون كالصاعقة وصار قلبه يخفق كثيرا بسبب التوتر والخوف من خسرانه لذلك الصغير الذي اعتاده لدرجة كبيرة،، ثم تناهت الى ذهنه صورة ريان التي بدات تتعلق به ولا يمكن لها الاستغناء عنه في يوم من الايام،، بلع ريقه بصعوبة وقال :

- لما غيّرت رايك فجاة يا سيد حمادو ؟ وقبل يوم من موعد المحكمة ؟؟ لما وافقت من الاساس على تنازلك بحق الوصاية وانت ستسرده بعد اسابيع ؟

- في ذلك اليوم لم اكن اعلم انني ساغير رايي بالفعل سيد زعيم،، لقد كنت حقا اريد لك ان تهتم بابني بما انك تفهم عليه اكثر مني، وتجيد التعامل معه وهو مريض توحد، لكن بعد حادثة ولادة زوجتي فهمت رسالة القدر الي، وادركت انني لن اسلم من المشاكل دام بلال يربى بعيدا عني، بين اناس غرباء وانا لا زلت على قيد الحياة

الانسان ليس معصوم من الخطأ ؟؟ وانت الطبيب بالنهاية وتعرف في هذه الامور اكثر مني ؟

بقي الاخر صامت ولم ينبس ببنت شفة لعلمه التام ان السيد رابح على صواب فيما قاله، فالناس جميعا يُخطئون ولا يوجد احد معصوم عن الخطا، فقط الملائكة خلقهم الله لا يخطئون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون،، لكن نحن نبقى بشر في داخل كل منا ملاك وشيطان،، تنهد بعمق كبير يُغمض عينيه يحاول استيعاب ما يجري حوله، فبعد ان سار كل شيء على منحى جيد اتت هذه المشكلة وقلبت جميع الموازين،، نظر بعدها هارون الى ساعة يده رولاكس وقال :

- ولما انت واثق ان بلال سياتي معك ؟؟

- هو ابني ولن اكف عن محاولاتي معه كي يسامحني ويعود الي

- وزوجتك ؟ ماذا بشانها ؟؟

- لا تقلق هي استاذة مُشرفة في احد المدارس الخاصة بذوي الاحتياجات الخاصة، وليس لديها مانع في احضار ابني للعيش معنا

- حسنا سيد حمادو،، ما دامت الامور هكذا لا يمكنني فعل او قول أي شيء،، انت والده البيولوجي ومن احقُ بتربيته دون الغير،، لقد اعتدت انا وزوجتي على وجود بلال في حياتنا كثيرا، لكن لا احد يستطيع مجاراة القدر مع الاسف

- وانت قلتها بنفسك

قام هارون من مكانه يغادر مكتبه برفقة السيد رابح، يطلبُ من اسماء ان تلغي اخر موعد له وتؤجله الى يوم الاربعاء القادم وتُغلق بعدها العيادة،، وفي طريقه الى البيت اتصل على ريان واخبرها ان تجهز الصّغير وتُعلمه ان والده قادم لرؤيته.

استغربت الاخيرة كثيرا سبب الزيارة وخفق قلبها بسرعة، لا تدري لما خالجها احساس غريب حول حدوث ما كانت تخشاه،، نظرت نحو الصغير الذي كان يجلس بجانبها على الاريكة يشاهد شريطا وثائقيا حول حيوانات افريقيا المفترسة الذي بدأ عرضهُ للتو،، وراحت تربتُ على فروة رأسه بكل حبٍ وحنان وكأنها المرة الاخيرة التي ستراه فيها،، لم يُبالي الصغير معها في بداية الامر وظل شارد الذهن في ذلك الاسد وهو يستبق دغفلا صغيرا (صغير الفيل) في براري الكونغو الاستوائية التي هي ثاني اكبر غابة في افريقيا،، بهدها التفت على ريان وقد قرأ في ملامح وجهها التي شحُبت فجاة حزنا عميقا يكاد لا يُرى لوهلة من الزّمن، انتابه القلق لا اراديا وشعر بوجود شيئا ما،، حيث قال مردفا نحةها :

- ماذا يريد ابي هارون ؟

بقيت صامتة ولم تتفوه بحرفٍ واحد، تفكر بينها وبين نفسها عن طريقة مناسبة تزف بها خبر قدوم والده اليه،، وهو قد سبق وتخلى عنه بكامل قواه العقلية، انتفضت من جديد على صوته وهو يعيد عليها نفس السؤال دون كلل او ملل،، حيث لم تجد بدا آنذاك غير ان تخبره بالامر كي يتهيأ نفسيا له...

- لقد قال لي انه سيصحبُ ضيفا معه الى هنا

رفع الصغير حاجبه الايمن في استغراب واجابها قائلا :

- ومن يكون هذا الضيف ؟ ... بلال يكره الضيوف الغرباء ولا يستلطفهم

ابتسمت ريان ناحيته بلطف واردفت :

- لكن هذا الضيف غريبا بالنسبة اليك عزيزي بلال

ازدادت وتيرة استغرابه اضعاف مضاعفة وتسلل الخوف ذاخل قلبه، فهو بالرغم من صِغر سنه الا انه ذكي جدا بصورة لا تُصف ويستطيع فهم الامور التي تجري من حوله بطريقة سهلة...

- انه ابي ا ليس كذلك ؟!

تفاجئت ريان من سرعة بديهيته والتي ذكرتها بوائل لحظة تعارفهما مع بعض قبل ثلاثة سنوات،، وقد عرفت سر التشابه بين الصغير وذاك؛ اذ اتضح معها انه يشبه خاله في كل شيء عدا طيف التوحد...

- وكيف عرفت انت ان والدك هو الضيف ؟

- من خلال تعابير وجهك التي تغيرت جدا بعد اتصال ابي هارون،، ولن يكون غير والد بلال الضيف الذي سيحزنك قدومه

- ولما تقول هذا ؟

- انت تخافين ان يغير رايه وياخدني معه ؟؟!

لمعت عيناها بالدموع وكادت ان تنفجر لحظتها بالبكاء بسبب ما يحدث معها،، فهي لحد الان لا تعرف سبب قدوم ذلك السيد اليهم، لكنها فورا اعطت احتمالا واحدا قد فاجاها بلال به،، لقد امضت اياما رائعة معه واعتادت وجوده كثيرا في البيت بذكائه الفذ ومهاراته في قراءة افكارها اكثر من زوجها حتى والترفيه عنها،، كان يُشاركها ادق التفاصيل والمرح، فهارون لا يقضي معها ساعات اطول جُل اوقاته إما العمل او في الجامعة، وحتى اذا اتى الى المنزل يكون مُتعبا احيانا فينام مباشرةً بعد صلاة العشاء او يبقى في مكتبه يعمل على بحثه العلمي لاجل الاعداد للدوكتوراه، وقلائل هم اللحظات التي يتجاذبان فيها اطراف الحديث في شرفة البيت او مشاهدة فيلم رعب في عطلة نهاية الاسبوع، وطبعا رحلة السياحة الجبلية التي قاموا بها،، وقد كان بلال هو من يؤنسها عندما تشعر يكسو الملل وُجدانها،، واذا غادرها هو ايضا فانها لن تتحمل غيابه عنها،، افاقت مع نفسها على ضوضاء قادمة من الدّرج الخارجي للمنزل، فاسرعت لتلك الإسدال المرمية بعشوائية فوق مرفق الكرسي تقوم بارتدائها في عجلة من امرها قبل دخول زوجها ووالد بلال،، وما هي الا دقائق حتى سمعت صرير الباب فامسكت بقلبها الذي ازدادت نبضاته اضعاف مضاعفة وراحت تنادي على بلال كي يستقبل الضيف القادم لاجل رؤيته. دلف هارون الاول الى الداخل فصادف زوجته تقف على اعتاب مدخل غرفة المعيشة وفي عينيها كميات هائلة من الفضول والحيرة حول ما يحدث، قد رآهما بسهولة،، تنحنح بخفوت وطلب من السيد حمادو ان يتفضل بالدخول يجره وراءه بلطف حيث تقف ريان التي من ان التقت عينيها الزمردية بعيونه البنية حتى زادت وتيرة تنفسها،، القت عليه التحية بنوع من الفتور والرهبة، دون رغبةٍ منها، بادلها الاخر التحية وخطى بعدها يتجه ناحية الاريكة بخطى مترددة حتى حدث ذلك اللقاء الذي كان بالنسبة له ضرب من الخيال،،، ولم يتوقع حدوثه على مر السنين والزمان، ابتسم رابح ناحية ابنه الذي تحاشى رؤيته عندما سمع صوت وقع خطواته امام المدخل وعاد ليشاهد شريطه الوثاقي يحاول تجاهله قدر المستطاع،، وبقي على حاله تلك حتى بعدما ساله عن حاله وعن اخباره اليومية،، كان الاخير يعرف ردة فعل بلال من الاول وانه لن يتقبله من اول مرة لكنه صمم انه لن يبرح هذا البيت الا وابنه الصغير معه يدا بيد،، انتبه على صوت هارون وهو يطلب من ريان التي كانت تقف على احر من الجمر لتعرف سبب هذه الزيارة المفاجئة وقبل يوم من موعد المحكمة، ان تُعد لهما القهوة، ثم جلس هو بجانب بلال يساله بحنان :

- اذا ايها الصغير،، كيف مر يومك في المدرسة ؟؟

اجابه الاخر بعد دقائق معدودة كالعادة عندما يكون تركيزه كله مع شيءٍ ما...

- مثل كل يوم،، دروس وهوايات

- اممم جيد وما الهواية التي قمتم بها اليوم ؟

- انهينا رسم الفنان بيكاسو

- اوو قلت لي بيكاسو اذا ؟؟ ومن يكون هذا الشخص ؟

كان هارون يعرف الفنان بابلو رويز بيكاسو جيدا لكنه تظاهر بالعكس ليُري السيد رابح الذي كان ينصت اليهما باهتمام قمة غباءه في خسارة جوهرةٍ غالية الثمن كهذه...

- هو ليس شخص وإنما رسام ونحات وفنان تشكيلي إسباني، وأحد أشهر الفنانين في القرن العشرين ويُنسب إليه الفضل في تأسيس الحركة التكعيبية في الفن، وُلد
عام 1881 بمدينة مالقة في جنوب إسبانيا لأسرة متوسطة الحال، أظهر شغفه ومهارته في الرسم منذ سن مبكرة، وكانت أمه تقول أن من أولى الكلمات التي نطقها بابلو كانت تعني «قلم رصاص». في السابعة من عمره تلقى على يد والده تدريبا رسميا في الرسم والتصوير الزيتي، وكان فنانا تقليديا وأستاذا أكاديميا مما جعله يعتقد أن التدريب المثالي يعتمد على النسخ المنضبط، ورسم أجساد بشرية من نماذج حية. وهكذا أصبح بابلو منشغلا بالرسم على حساب دراسته.. وبحلول عام 1905 كان بيكاسو قد أصبح من الفنانين المفضلين لدى اثنين من جامعى اللوحات الأمريكيين وهما الناقد الفني ليو شتاين وأخته الكاتبة جيرترود شتاين، ومن بعدهما أصبح الأخ الأكبر مايكل شتاين وزوجته سارة أيضًا من جامعى لوحات بيكاسو. وقد قام بيكاسو برسم بورتريه للكاتبة جيرترود وابن أخيها ألان شتاين، ومن بعدها أصبحت جيرترود هي الراعى الرسمى لأعمال بيكاسو حيث كانت تحصل على رسوماته ولوحاته وتقوم بعرضهم في صالون منزلها بباريس.

- واااو لقد اذهلتني بهذا الكم من المعلومات التي لديك يا صغيري

- بلال يحب المطالعة ومعرفة كل الاشياء التي تجري من حوله

ابتسم هارون ناحيته بعفوية ثم التفت ناحية رابح الذي كان يقف عند قدم الاريكة في انتظار الاذن من ابنه كي يشاركهم الحديث، وقال له بعتب مخفي :

- ا رايت ؟؟ هذه هي الالماسة التي استغنيت عنها وفرطت فيها بغبائك ؟

بلع الاخر ريقه وقد علا التوتر ملامح وجهه،، بقي صامت هنيهة يستطرد عنه الهواجس المتعلقة بردة فعل بلال التي صارت تلتف حوله كما يلتف حبل مشنقة الاعدام حول رقبة المجرم، ثم جلس قبالة الصغير وقال بكلمات استطاع موازنتها بصعوبة :

- عزيزي انا اعلم انني اخطأتُ بحقك كثيرا منذ اربعة سنوات،، لم اسأل عنك ولم اهتم بك كما يجب،، تركتك وامك رحمها الله تواجهان انياب المجتمع الذي لا يرحم دون أي سندٍ او عائل،، لكن صدقني انني نادم الان كثيرا ويا ليته كان باستطاعتي العودة بالزمن للوراء، لما كنت تركتك حينها ولما كنت تخليت عنك

- بلال يحب والده هارون كثيرا وامه ريان ولا يريد ان يبتعد عنهما،، فلا تحاول عبثا معي

كانت كلماته تلك بالنسبة لابيه الحقيقي كالسّهام، اخترقت صدره ومزقته الى اشلاء، كل جزء مرمي في مكان، وقد صادف توقيتها دخول ريان تحمل الصينية بين يديها لتمر على مسامعها تلك الجملة التي جعلت قلبها يتطاير من شدة السعادة،، فرفْضُ بلال للذهاب معه كفيلٌ باخراجها من حفرة الظلام تلك الى النور،، وضعت الصينية فوق طاولة مستطيلة الشكل تتربع الصالون، عليها قطعة اثرية في شكل حيوان النمر، وجلست بجانب بلال من اليمين تمسك بيده بحبٍ وحنان قائلة :

- لقد سمعت باذنيك ما قاله لك بلال يا سيدي !! هو لا يريد الذهاب معك الى أي مكان ويفضل البقاء هنا معنا نحن،، كما ان والدته رحمها الله اوصت هارون بالاعتناء به

- هو يبقى ابني ولو انكر الكون كله هذه الحقيقة يا سيدتي

كادت ان تتكلم من جديد لكن صوت هارون حال دون ذلك،، اذ قال موجها كلامه لها :

- عزيزتي، نحن لا نستطيع فعل شيء حيال هذا الامر،، الرجل معه حق حتى امام القانون ولو رفض بلال الذهاب معه، فان الشرطة بامكانها اعادته الى بيت ابيه ورغما عن انفه؟

- ولكن هو لا يريد الذهاب معه،، لقد تخلى عنه من قبل، واحتمال ان يفعلها مجددا،، فالذي يخون الامانة مرة يخونها الف مرة، ولا تتوقع منه تغييرا جِذريا في هذا ؟

- هذا يكفي يا سيدتي !! انا لا استطيع سماع هذه الاهانات بحقي وامام ابني ايضا،،، لقد سبق واخبرت زوجك انني اخطات بحق بلال وانني مستعد لفعل أي شيء لاجله كي يسامحني، ولن ابرح المكان الا ويدي بيده

تدخل هارون محاولا تهدئة زوجته كي لا تنفعل اكثر من اللازم فتضطر رابح ان يلجا للشرطة لحل الامر وعندها يسوء وضع بلال وحسب ولن يستفيدوا أي شيء،، قال بهدوء :

- ريان انني ارجوك ان تهدئي قليلا، هو محق من اعلى راسه وحتى اخمص قدميه، فدعينا لا نتدخل بين الاب وابنه

- ولكن يا ها...

- شششش لا اريد سماع أي كلمة اخرى

انسحب الاثنان من الموضوع بصعوبة وخصوصا ريان التي باتت تلعن زوجها في سرها لوقوفه بجانب ذلك الرجل وتركها هي بمفردها بالرغم من علمه المطلق حبها الشديد لبلال وتعلقها به.

استغرق رابح وقتا لا باس به وهو يُلح على بلال ان يعطيه فرصةً جديدة ويسامحه على اخطائه، اعتذر منه مرارا وتكرارا باعين دامعة؛ وصار يرجوه بشتى الطرق ان يقبل عرضه، كما انه اخبره بخصوص شقيقته الرضيعة، وان زوجته تفهم في حالته بحكم انها درست الارطوفونيا في الجامعة وتعمل استاذة في مدرسة الامل لذوي الاحتياجات الخاصة،، اخبره انه سيحظى بعائلة كبيرة وحقيقية من لحمه ودمه ووعده انه سيفعل كل شيء يحبه؛ وان الامور ستسير على خير ما يرام فقط اذا ما وافق واعطاه فرصة ليريه ذلك،، كانت ريان تلك اللحظة على اعصابها وهارون قد سلّم امره لله ولقضائه وشعر ان بلال سيختار عائلته الحقيقية بدلا عنه هو وزوجته،، واساسا أي طفل اخر مكانه كبيرا كان او صغيرا فانه لن يفضل العيش عند الغريب ويترك اقرب الناس اليه خصوصا اذا كان والده،،، ثم بلال قد سبق وخسر امه نبع الحنان خاصته ولا يريد تجربة الامر مرة اخرى ولا سيما ان والده عاد معتذرا له، وقد حدث ما كانت تخبره امه به في الايام الفارطة،،، ان والده سيعود اليه يوما ما ليطلب السماح منه وسياخده اليه بالاحضان ويعترف بابوته له،، وقد حصل الامر بالفعل،، وهو سعيد للغاية وان كان حزينا في ذات الوقت لمفارقته كنف العائلة التي تقبلته كما هو ورضيت به وبمرضه الذي لا علاج له... قراره قد ادخل السرور الى ابيه الذي عانقه بحرارة لا يصدق انه اقنع صغيره واخيرا، واحزن الثنائي الجميل لدرجة ان ريان غادرت المكان الى غرفتها تجر خيبها باومتها لذلك الملاك الذي اضفى بلسما على حياتها،، قام هارون بتوضيب جميع اغراضه واخبر والده بكل شيء يتعلق بابنه منذ اول حصة للعلاج وحتى وفاة امه وكذلك قال له عن هوايته بالرسم وانه شارك بمسابقة ولائية اقامتها دار الثقافة قبل ثلاثة ايام، وسيتم الاعلان عن النتائج بعد عشرة ايام في نفس المكان في قاعدة الرقص والمسرحيات،، بعدها قبل بلال يتمنى له الخير في حياته كلها.

اغلق الباب باسى واتجه الى الغرفة حيث تجلس ريان على الارض منكمشة على نفسها، تنساب العبرات من عينيها مثل سيْلِ واد لا تُعرفُ له نهاية،، رق قلب هارون لحالها كثيرا وسار ناحيتها يربت على خصلات شعرها ويقوم بمواساتها،، اما هي فقد دفشته بعيدا عنها بغضب وقالت تصارخ عليه باعلى صوتها :

- لما تركته يذهب ؟؟ انت تعلم مدى حبي له وتعلقي به يا هارون

امسك الاخير بيداها اللاتي كانت تضربان صدره بعنفوانية، وقال محاولا تهدئتها عن موجة الانفعال التي استحوذت كيانها :

- ما كان بامكاني فعل أي شيء حيال الامر،، هو والده بالنهاية ام تُراك نسيتِ ؟

- أي والد هذا ؟؟ قل ؟ ... أي والد هذا الذي لم يسال عن ابنه اكثر من اربعة سنوات ؟ فقط لانه مريض توحد

- لكنه تدارك خطأه ويريد التّكفير عنه، وتعويض ابنه كل ما عاشه فترة غيابه

ابتسمت ريان بسخرية لاذعة على كلامه واجابته :

- أي تعويض هذا ؟ واي تكفير ؟؟ هو لن يتغير لما لا تفهم ؟ لن يتغير ؟

كان صبر هارون قد بدأ ينفد شيئا فشيئا حول عنادها هذا الذي لم يجد له حلا لحد الآن،، زفر بحنق واردف مجددا بهدوء :

- اسمعي عزيزتي اعلم ان فراقه صعب جدا عليك كما هو صعبٌ علي صدقيني، لكن حدث ما حدث الان ولن نستطيع تغيير القدر فهو بيد الله، وربما كان هذا افضل لبلال، اما خير ان يربى بكنف عائلته الحقيقية في احضان ابيه ام بين اناس غرباء لا تربطهم به أي صلة قرابة ؟؟

- القرابة ليست بالدم وحسب سيد هارون... فانتم بالرغم من صلة قرابتكم بنا الا انكم كنتم غرباء عنا وبعيدين كبعد السّماء عن الارض

تفاجأ جدا من كلامها ولم يدري لحظتها ماذا يجيبها، فقد باتت تربط المواضيع ببعضها البعض وتقول اشياء جارحة دون دراية منها،، حاول تفهمها لحظتها وتنهد بيأس يستطرد عنه الافكار السلبية محاولا ضبط اعصابه عليها قدر الامكان،، ثم قال لها بحزم :

- اتفهم جدا ما تمرين به يا ريان، ولكن اياك ان تربطي المواضيع ببعضها البعض كي لا ننجرف وراء اشياء اخرى نحن في غنى عنها، بلال لم يذهب مع عدوه انه والده الحقيقي،، ولن نكون نحن احن عليه مثل ابيه مهما اغدقنا عليه من الحب والحنان جرعاتٍ جرعاتٍ، ومثلما لا ترضين ان يربى ابنك بعيدا عنك؛ فرابح ايضا هكذا تدارك خطأه وقرّر العُدول عنه، ونحن بالنهاية بشر والانسان ليس معصوم عن الخطأ

كانت تستمع له دون ان تنصت اليه تماما ماذا يقول، فهي تعلم انه على حق، لكنها مثل العادة لا تريد الاعتراف بذلك لان الحقيقة تؤلمها جدا،، ابتسمتْ بسخرية لاذعة جدا ثم اردفت :

- واضح انك سعيد بذهابه ولست حزين كما يظهر عليك

فتح عينيه في ذهول متفاجئ من تحولها هذا فقط لان بلال عاد الى كنف والده، وقد اجابها باستغراب قائلا :

- ماذا تقولين انت هل جُننتِ ؟؟ ولما عساه اكون سعيدا بذهابه لقد احببته مثلك ايضا

قالت بصراخ تُفلت يداها عنه :

- غير صحيح انت لم تحبه،، لانك كنت تغار منه بسبب قربه الشديد مني، ولاننا دائما نقضي معظم اوقاتنا سويا من دونك، وقد سبق وقلت لي هذا بفمك ام تراك نسيت ؟

صفعةٌ قوية ارتدت اثرها خطوتين للوراء وسقطت بعدها ارضا تُمسك بخدها الايسر لا تصدق ما فعله زوجها الان بحقها،، وانه بالفعل رفع يده نحوها وضربها ايضا...

- ان كانت الحقيقة تؤلمك، فلا يحق لك برميها على اكتاف غيرك باعذار اقبح من ذنوب،، لقد حاولتُ ان اتفهمك واتفهم شعور فقدانك لبلال لانني اعيشه مثلك،، لكن يبدو انك عنيدة اكثر مما توقعت، ولم يعد يُجدي الكلام معك بشيء

كانت ريان تستمع اليه والدموع تنهمر من عينيها مثل زخات المطر،، يؤنبها ضميرها على كلاماتها الاخيرة التي قالتها بحقه،، ادار هارون جسده وهمّ بالخروج كي يهدأ قليلا ويستوعب ما حدث،، فهو اساسا متعب من احداث هذا اليوم ولم تبقى له طاقة لتحمل المزيد،، ادار المقبض وفتح الباب يكاد يخطو اولى خطواته، لكن صوتها الانثوي الرقيق يطلب منه ان يبقى بجانبها ولايتركها هو ايضا منعه من ذلك، تنفس بعمق وعاد اليها يجثو على ركبتيه ناحيتها ياخدها اليه بالاحضان،، يخفف عنها وطأتها، وقد بادلته هي ايضا العناق وبقوة متشبثة بياقته وتردد بهستيريا :

- ارجوك لا تتركني يا هارون لا تتخلى عني انت ايضا،، انا اسفة لم اقصد ما قلته صدقني

اجابها وهو يربت على خصلات شعرها المجعد المنسدل خلف ظهرها :

- ولما قد اتركك وانا حاربتُ كثيرا كي اظفر بك ايتها المجنونة ؟؟

ثم حملها بين دراعيه كي تتحد ارواحهما سويا ويسافرا معا الى عالمهما الخاص بعيدا عن كل شيء محزن عاشاه قبل قليل.

***

استيقظت ريان بفزع تصرخ باسم هارون، تتصببُ عرقا ودقات قلبها تكادُ تخترقُ جداريات قفصها الصّدري،، مدّت يدها نحو الهاتف الموضوع فوق الكومدينة لترى السّاعة اين صارت الآن، فوجدتها العاشرة الا رُبع صباحا،، قامت من فراشها بخطى متثاقلة تستغربُ نومها لهذه الساعة، وهي اعتادت الاستيقاظ باكرا منذ زواجها، وقد تكرّر الامر للمرة الرابعة على التوالي منذ رحيل بلال عنها، وحتى هارون كان يستيقظ الى عمله باكرا بهدوء كبير ويتسلل خلسة خارج الغرفة كي لا يزعجها تاركا اياها نائمة تحتضن وسادتها بدلا عنه، توجهتْ نحو المطبخ تفتح النافذة وتستقبل نسمات فصل الخريف براحةٍ كبيرة،، تتذكر ايامها الجميلة التي قضتها رفقة ذلك الصغير، جلست على الكرسي بعدها وحملت قنينة المياه المعدنية ترتشفُ منها عدة مرات من شدة العطش، ثم قامت الى الثلاجة تُخرج علبة الشوكلاطة الطرية وتاخد لها ملعقة من درج دولاب المطبخ الخاص بالاواني، وجلست القرفصاء في الشرفة فوق كرسي هارون الهزاز تغترف ملعقةً تلوى الاخرى بنهمٍ شديد لا تدري كينونته، فهي هكذا كلما دخلت في نوبة اكتئابٍ حاد، تنتقم من خلال الاكل دون توقف ولا تحدُ عنه حتى تشفي غليلها من القدر، هي تعتقد هكذا ولا تدري انها مخطئة جدا في اعتقادها ذاك، بالرغم من كميات الدروس التي صفعتها الدنيا في وجهها، رفعت راسها تاخد لها استراحة قليلة عن الاكل نحو السماء العالية التي تتخللها بعض السُّحب البيضاء كالقطن العابرة، تتحرك ببطء تحجب عنها اشعة الشمس تارة وتكشف الغطاء لها تارةً اخرى، انتبهت تلك اللحظة مع سرب طيور النورس يحلق بعيدا في هجرة طويلة الى المناطق الدافئة بسبب اقتراب حلول فصل الشتاء،، وسافرت هي معه بمخيلتها تحلق بروحها في الافق البعيد المدى، مُطلقة العنان لايديها وارجلها باريحيةٍ في الفضاء الواسع.. انتبهت مع هاتفها يرن والذي افاقها من موجة الالهام الذي اجتاحها فجأة واجابت على الخط بعدما رات اسم ملاذي الآمن على الشاشة :

- نعم !!

- استيقظتِ ؟

- قبل نصف ساعة

- كيف الحال الآن ؟ هل تجاوزت تلك الحكاية ؟

- ليس تماما،، لكنني احاول بما اقدر

- حسنا حبيبتي، لا تُجهدي نفسك كثيرا وانا معك سأُساعدك في تخطيها لتعودي كالسابق تماما

- اعلم عزيزي.. بالمناسبة لقد فكرت ان اذهب الى بيت اهلي بعد قليل ؟؟

- حسنا كما تريدين، بالتاكيد لن امنعك، لكن اعلميني عند وصولك هناك

- حاضر

- رافقتك السلامة

- اللقاء

القت هاتفها بعشوائية فوق صندوق خشبي كان موجود امامها يعود الى هارون يضع فيه اشياءه الغير مستعملة مثل الملفات الخاصة بالمحاضرات وبعضها الاخر خاص بالمرضى القُدامي،، وعادت تغترف من تلك العلبة، تستمتع بمذاق الشكولاطة اللذيذ حتى شعرت فجاة بالغثيان،، ركضت بسرعة الى الحمام تُفرغ ما في جعبتها مرةً واثنتان وثلاثة حتى احسّت ببعض الاريحية، غسلت وجهها تُزيل عنها اثار القيئ، وتوجهت الى غرفتها بتعب تستعد للذهاب الى بيت امها كي تُرفه عن نفسها قليلا، فجُرْحها بخسارةِ بلال لم يندمل بعد،، ارتدت بنطال جينز من نوع boy freind الخاص بالمحجبات، وقميص ابيض قطني عليه العلامة التجارية zara وفوقه كنزة الكارديجان قزحية اللون، مع حجاب قِرميدي،، اعتلت بعدها حذاءا رياضيا من ماركة ريبوك، قد اقتناه هارون لها تعبيرا عن حبه الشديد لزوجته والاهتمام بأدق تفاصيلها، وحملت حقيبتها الجلدية من نفس لون الكنزة وغادرت البيت تستعجل في خطواتها كي لا تقع في اسر الامطار الخريفية لشهر نوفمبر الشهر المميز في أجوائه الشتوية الرائعة الهادئة، والذي يدخُل فيه العالم العربي بشكل رسمي في فصل الشتاء،، بعد ان عبرت الشارع الفرعي الى الرئيسي اوقفت لها سيارة اجرة بعد انتظار دام دقائق معدودة وطلبت من السائق الاربعيني الذي يكتسي لون بشرة داكنة توحي بعرقه الصحراوي ان يُقلها الى شارع النصر اين توجد اذاعة عنابة،، استغرق الامر ربْعُ ساعةٍ فقط حتى صارت على اعتاب الحي الذي امضت فترة مراهقتها فيه مرورا الى شبابها حيث هي الان قبل زواجها بشهر ونصف، وترجلت من السيارة بعد ان حاسبت الصحراوي كما سمته في مخيلتها تتجه بخطى بطيئة الى منزلها القابع خلف ذلك القصر المهجور كما هو معروفٌ عنه قبل خمسة عشرة سنة،، بسبب هجران اصحابه له لاسباب لا احد يعلم عنها أي شيء، فمنهم من يقول ان مالكه قد تعرض للتهديد من قِبل جماعة المافيا، ومنهم من يقول انه متورط في جريمة قتل وفر هاربا عن القانون، وهناك ايضا من قال انه وجد عملا مربحا في اسبانيا فقرر عدم العودة الى تراب الوطن ورفض بيع بيته اوحتى عرضه للايجار،،، لكنها جميعا مجرد شائعات يستمتع البشر بنثر بذورها بين الناس فقط للاستمتاع والتسلية لا تهمهم النتيجة بعدها كيف ستكون ؟؟... توقفت ريان لوهلة من الزمن وبقيت شاردة الذهن في جدران ذلك القصر التي نال منها الدهر وصارت تتخلها بعض النتوءات والاعشاب العطرية

بسبب الاحوال الجوية القاسية والآخذة في التردي،، كانت تستشعر همساته على مسامع اذنيها تشكو هجران اصحابه عنه وانينه الذي بات حبرا على الورق الان يُلهم اصحاب المشاعر الجياشة وذوي الاحساس المُرهف لتاليف حكاية مرعبة عنه او قصيدة فراق حزينة وربما قصة للاطفال قبل النوم،، هي هكذا حال البشر ايضا،، يقتحمون حياتك دون استئذان ويغادرونها بنفس الطريقة وكأن شيئا لم يكن غير عابئين بما بين القوسين. تنهدت باسى ومسحت تلك الدمعة التي كادت ان توشك على النزول من عينها الزمردية وواصلت مسيرها حيث المنزل، تجر وراءها خيباتها التي تنفك عنها ابدا، فتحت الباب بحركة من يديها ودلفت الى الداخل حيث صادفت بلال وعائشة يمرحان في الحديقة الامامية للبيت عند شجرة البرتقال،، تلك اللحظة قفز قلبها يتطاير في الهواء من شدة الفرح وراحت تركض باتجاههما وفي عينيها بريق لامع يخفي فائض من الاحاسيس التي كانت دفينة في الماضي السحيق،، اما الصغيران فما ان راوها تتجه نحوهما حتى ركضا اليها بسرعة يسابقان الريح فرحين جدا برؤيتهم لخالتهما الصغيرة التي منذ ان تزوجت قلَّت لقاءاتهم بها والمرح معها كالسابق تماما...

- متى اتيتما الى البيت ؟

اجابتها عائشة مندفعة كعادتها :

- قبل ساعة من الان، اوصلنا ابي وغادر الى عمله

- جيد، انه من حسن حظي ان اصادفكما عند قدومي فقد اشتقت كثيرا اليكما يا اعزائي

- ونحن ايضا اشتقنا اليك يا ريان،، لما تزوجتِ وتركتنا ؟ ... قالها بلال وهو يقبل وجنتي خالته معبرا عن حنينه لها

- انا ايضا لا تدري اردت رؤيتكما واللعب برفقتكما تحت شجرة البرتقال،، صدقني انني احن كثيرا الى تلك الايام يا ليتها تعود ولا تغادرنا ابدا

المهم يا هل فادية وامي في المنزل ؟

- نعم انهما هنا وكذلك الخالة منال قد اتت للزيارة،، احضرها خالي سليم قبل قليلٍ فقط، رآها بلال وهي تصعد الدرج الى الاعلى

- اوه، حقا !! هذا رائع

كان الجو العائلي هو ما تريد ريان اللجوء اليه كي تنسى قليلا روتينها اليومي الذي يقتلها ببطئ يوما بعد يوم،، فزوجها مشغول بعمله ومحاضراته في الجامعة ومن قبل كان بلال من يؤنسها في وحدتها، اما الان فلم يعد معها وقد امست وحيدة لا احد بجانبها،، تركت عائشة

وبلال منخرطان في لعبة الرُّديا ودلفت هي الى الداخل تُلقي التحية على امها التي صادفتها عند مدخل المطبخ ذا الطراز المغربي، كي تنظر في امر فطورها الذي على النار،، سلمت عليها بحرارة وبادلتها العناق وكأن لها عقودا لم ترها فيها، وعلى اثر تلك الضوضاء اقبلت كل من فادية ومنال تفعلان الامر عينه، تبادلان ريان التحية والسلام بالدور، تسالانها عن احوالها كيف صارت الان،، فقد سبق وعلموا ان بلال قد عاد الى احضان اسرته الحقيقية وانها تاثرت كثيرا بفراقه،، كما انهم لم يضغطوا عليها كثيرا بشان الموضوع، بل انخرطوا في المواضيع الاخرى يتجاذبن اطراف الحديث في جلسة نسائية طويلة حول مائدة الغذاء، قد جعلت تلك الاجواء الحميمة حيوية ريان تعود رويدا رويدا اليها.

***

طرقت اسماء الباب عدة طرقات متتالية في انتظار الاذن من الطبيب ان يسمح لها بالدخول،، حيث ما هي الا ثواني حتى اتاها رده، فدلفت الى الداخل تحمل بين يديها ملف المريض الآتي وقدمته له بلطافة مُبالغ فيها قد لاحظها هارون جيدا،، ابتسم ناحيتها هو الآخر بلطف وقال لها وهو يؤشر عليها بيده كي تجلس على الكرسي....

- ما سر هذه السعادة عزيزتي اسماء ؟

لبت الاخرى طلبه برحابة وقالت بنبرة صوت تُشع بنور الامل والتفاؤل..

- اخيرا صِرت فتاة مُستقلة حضرة الطبيب، والفضل كله يعود اليك في هذا،، لولا وقوفك بجانبي كاخ حنون قبل ان تكون طبيبي لما استطعت ان اصل الى هذه النقطة

- حقا سُررت لاجلك يا اسماء،، ثم انت من اراد ان يغير حياته والبدء من الصفر،، انا فقط قمت بدعمك ومساندتك معنويا قبل ان يكون ماديا

- اعلم هذا صدقني،، لكن لو كان احدا اخر غيرك لما اكثرت بتوظيفي عنده وانا لم احصل على شهادة البكالوريا بعد،، ناهيك عن ادارة الاعمال والمحاسبة،، انت بالفعل ملاك من البشر،، محظوظة ريان لان لديها زوجا مثلك، وبلال ايضا لانه ظفر بأبٍ مثلك

تلك اللحظة اختفت ملامح الفرح من على وجه هارون حلّ مكانها الحزن والاسى، خصوصا بعدما تذكر الاحداث،، انتبهت اسماء مع تغييره السريع هذا وقالت بنبرة يعتريها الفضول :

- خيرا حضرة الطبيب !! ا هناك ما يُقلقك ؟؟

- بصراحة بلال يا اسماء لم يعد يعيش معنا

- حقا !! واين ذهب ؟

- ا تذكرين عندما اتى السيد رابح جمادو ذلك اليوم ؟ وطلبت منك تاجيل الموعد الى الاربعاء وغلق العيادة ؟

- اجل

- لقد كان بسبب ابنه بلال،، فجأة صحى ضميره الابوي وصار اسيرا مجكوما عليه بالاعدام من طرف جلد الذات جرّاء ندمه الشديد، وبعدها قرر استعادة ابنه وتعويضه عن كل الحب والحنان الذي حرمهما منه قبل اربعة سنوات

بقيت اسماء تفكر بينها وبين نفسها حول كلامه ولم تشأ ان تخبره بردها خوفا من حدوث سوء تفاهم،وقد شعر هارون جيدا بهذا من خلال نظرات عينيها التي يكسوها التوتر...

- لا تترددي من قول ما في داخلك ولا تخشي من شيء فانا لن أُسيىء فهمك

قالت له باستغراب :

- انك تفاجئني بحداقتك يوما بعد يوم حضرة الطبيب !!

لقد كنت اريد ان اخبرك انه بالرغم من قساوة ما مررتما به انت والسيدة ريان بخصوص بلال، الا ان ما حدث هو القرار الصائب لكلا الطرفين

ابتسم ناحيتها بعفوية واردف ناحيتها قائلا :

- اشعر انك ستمشين على خُطاي يا عزيزتي اسماء

تلك لمعت عيناها بحماس زائد واجابته باندفاع :

- اقسم لك ان هذا ما اطمح به منذ عدتُ لمقاعد الدراسة،، ان انال الشهادة واتخصص في الطب بعدها الطب النفسي

- جيد فرحت لهذا... اذا انت ترين ان عودة بلال لوالده قرارا صائبا ؟

- اجل، بالتاكيد... فشعور الانتماء للاصل لا يعرف قيمته الا من ذاق من كأس الفقدان لذاك الشيء

- اتفق معك في هذا،، لكن ريان لا تريد تقبل الفكرة لحد الساعة،، ومن يومها وهي في حالة انعزال عن العالم، لا رغبة لها في فعل أي شيء

- شيء طبيعي فانتما متزوجين جديدا والفراغ والوحدة التي بدات تتسلل الى حياتها قاتلة جدا بالنسبة لها،، انت مشغول عنها طوال اليوم ولا يمكنها ان تذهب الى بيت اهلها يوميا ايضا،، هي الان تشعر بالوحدة بعدما غادرها الصغير الذي كان انيسا لها بدلا عنك

- معك حق ولكن ماذا بامكاني ان افعل لها ؟؟ لا يمكنني ترك عملي ولا محاضراتي وطلابي،، ولا يمكنني ايضا البقاء معها اليوم بطوله ؟!!

- اتفهم شعورك، كما تتفهمه هي لكن ايضا لا يمكنك ان تلومها بشيء فهي بالنهاية انثى وضعيفة بطبعها وتحتاج الى شيء يعيد اليها رغبتها في الحياة

- قلتِ شيء ؟ ...مثل ماذا هذا الشيء ؟

ابتسمت اسماء بخبث مصطنع وقالت فكرتها للطبيب ترد له قليلا من الجميل الذي فعله بحقها، بعدها غادرت المكان بطلب منه كي تبدء في العمل على تلك الخطة التي وجدها هارون صائبة جدا وغاية في الرومنسية.

بعد مرور ساعتين ونصف اوشك على انهاء اخر موعد له مع تلك الشابة التي تعاني من اضطراب ثنائي القطب...

- آنسة هيفاء، ان هذه الحصة هي الخامسة لك، وعلى ما اعتقد ان العلاج النفساني لم يُجدي معك نفعا، ولهذا سابدا في وصف بعض الادوية المهدئة لك تستعملينها عندما تاتيكِ الحالة فقط، وبجرعات ساشرف على تحديدها لك شخصيا وبدقة

- حسنا حضرة الطبيب كما تريد، لكن اريد ان اسالك سؤالا ؟

- تفضلي !

- الا يوجد علاج لهذا المرض ؟

- والله لا اكذب عليك،، قد يستفيد بعض الأشخاص الذين يعانون اضطراب ثنائي القطب من وضع نظام روتيني يومي للنوم والنظام الصحي وممارسة التمرينات ومختلف الانشطة التي تساعد على تنشيط الدورة الدموية للجسم ومعدل نشاط الهرمونات، لكن اغلبية الاشخاص اللذين يعانون هذا المرض ينتهي بهم المطاف لاستعمال الادوية، او الإقامة في المستشفى إذا كانت حالة الاضطراب تؤثر بشكل كبير في أدائهم أو سلامتهم

- فهمت،، شكرا لك حضرة الطبيب، اراك الموعد القادم

- اللقاء

ما ان غادرت هيفاء غرفة الطبيب حتى تنفس الاخير الصعداء لانتهاء مواعيده باكرا لهذا اليوم،، حمل هاتفه الخلوي واتصل على زوجته يخبرها ان تجهز نفسها لقدومه اليها الان،، اغلق المكالمة التي دامت ثواني معدودة وحمل مفاتيحه وبعض من الاوراق المهمة يهُمُ بالمغادرة مودعا اسماء بلطافة خصوصا على فكرتها تلك.. ادار المقود في عجلة نجمت عنها اصوات احتكاك العجلة الخلفية مع الارض وسار بسرعة نحو حي النصر يستمع لاحدى سيمفونيات العبقري موزارت السيمفونية رقم 40 ،، متلهف لرد فعل زوجته بخصوص المفاجاة التي اعدّها لها، فور وصوله وجدها قادمة اليه تمسك بيدي ابنة شقيقتها عائشة التي والته ذكرى جميلة بخصوصها في يوم خطبته من ابنة خاله،، وقد ابتم لحظتها بعفوية يتذكر تلك الايام الخوالي،، فقبل شهرين كانت تكرهه وتكره الارض التي يمشي عليها، لكن الان لم تعد ترى غيره،، احبته حبا صادقا بالرغم من كل العوائق التي كانت بينهما، وبالرغم من فارق السن وانه ابن عمتها التي تكرههم منذ ان كانوا صغارا بسبب كرهها لوالدتهم،، لكن القدر اصّر على ذلك وجمعهما سويا ليكتبا قصة حبهما بحبر الصبر والانتظار،،، كان مستمتعا للغاية وهو يراها تقبل عائشة وتعانقها بحرارة مودعة اياها بعيون دامعة وكانها لن تراها مرة اخرى،، فهو يعرفها جيدا حساسة لابعد درجة وعاطفية،، لا ينقصها شيء سوى طفل رضيع يلهو ويضحك في حضنها يُنسيها كل الالام والخيبات التي عاشتها..

- السلام عليكم حبيبي !!

انتبه مع صوتها الرقيق وهي تجلس بجانبه تُغلق باب السيارة، وتضع حزام الامان في مرح شبه معدوم،، اجابها قائلا :

- وعليكم السلام،،، اراكِ بدات تستعيدين نشاطك

- قليلا،، رؤية عائشة وبلال اليوم قد رفّهت عن نفسي بعض الشيء

- لم اكن اعلم انك تعشقين الاطفال لهذا الحد عزيزتي

- صحيح.... احساس الامومة الذي في داخلي قد زاد عن ذي قبل اضعاف مضاعفة

- ارجو لنا هذا في القريب العاجل

تلك اللحظة احمّرت وجنتاها خجلا وقالت بتمني :

- امين،، ان شاءالله

بقيت ريان شاردة الذهن مع الطريق منسجمة في احد سيمفونيات بيت هوفن التي قام هارون بتغييرها بعد حين،، تفكر في الايام القادمة وما الذي يخبئه لها القدر بعد كل هذا،، انتبهت ان الطريق الذي سلكه زوجها ليس نفسه الذي يؤدي الى البيت وقد استغربت الامر فالتفتت ناحيته تستفسر عنه، لكنه لم ينبس ببنت شفة تاركا اياها على اعصابها حول المكان الذي يقصدانه الآن دون درايةً منها،، بعد نصف ساعة ركن هارون سيارته بجانب شاطئ عين عشير حيث يوجد تمثال الدلافين عند المنعطف،، وفك حزام الآمان خاصته يطلب من زوجته فعل الامر عينه كي يترجلا من السيارة،، كانت علامات الاستفهام تحلق فوق راسها كطيور النورس خاصتها،، سارت معه ناحية الشاطئ تتأبط دراعه وهي تُلِح عليه ان يخبرها بالسر وراء قدومهما الى هنا، لكن من دون فائدة حتى رفعت راية الاستسلام ولم تتكلم من جديد حول الامر.. كان المنظر امامها جميلا ومُفاجئا في نفس الوقت،، وهي ترى رداء ابيض مفروش على طوله فوق الرمال الذهبية، عليه مختلف انواع الاطعمة والحلويات من الدّونات بالكريمة البيضاء والملونة، والمُهلبية بالقرفة لعشق ريان اللامحدود لها،، تشيز كيك قد حرصت اسماء على اقتنائه من اجود محل لبيع الحلويات والمرطبات، وقطع الكوكيز مرصوصة الى جانب بعضها البعض في شكل منتظم على صحن فضي مزين بشريط ذهبي على الجانب العُلوي،، علبتين من القشدة الشهية، وبعض من المقبلات اللذيذة التي تفتح الشهية للاكل، بجانبها زيتون اسود واخضر وابيض،،، وضعت ريان يداها على فمها من هول الصدمة لا تكاد تصدق ان ما تراه الان هو واقع وليس حلم من احدى احلامها التي لا تنتهي ابدا، التفتت على هارون الذي كان يقف خلفها ينظر اليها بسعادة وقالت والدهشة لا تفارق ملامح وجهها :

- هل انت من حضّر كل هذا ؟؟

- اجل عزيزتي،، لكن الفكرة ليست فكرتي

- فكرة من اذا ؟

- فكرة اسماء مساعدتي، لطرد شبح الوحدة الذي تلبسك بعد مغادرة بلال المنزل

دمعت عيناها بالدّموع وشعرت بالخجل تجاه القدر الذي لطالما ألقت اللوم عليه لإنه وضع هارون في طريقها لتتزوج به،، تلك اللحظة ارتمت في حضنه بكل قوة كحركة منها تعبيرا عن فرحها وامتنانها له لهذه المفاجاة التي ادخلت السرور الى قلبها،،، بعدئذٍ جلسا سويا يتناولان من ما لذّ وطاب وخصوصا ريان التي صارت تاكل الاخضر واليابس بسبب شهيتها المفتوحة على الاكل ولاسباب مجهولة.

كان منظر البحر جميلا جدا يبعث الهدوء والطمانينة على النّفس،، تتلاطمُ امواجه تارة وتتوقف في صمتٍ تارةً أُخرى،، كانت الشّمس آنذاك على وشك الغروب ولا يوجد احد خلافهما في المكان،، عدا اولئك الصّيادين اللذين اقبلوا لتوهم من البحر يحملون شِباكهم واشيائهم، يتجاذبون اطراف الحديث مُغادرين المكان والتّعب قد نال منهم جميعا، رفع هارون رأسه ناحية السماء فلمح طيور النورس تحلق في فضائها الفسيح مُصدرةً اصوات نعيق صاخبة ومزعجة جدا...

- انظري الى هناك،، انه طائر الحظ خاصتك !

رفعت الاخرى راسها بعدما كانت تضعه على كتفه، تنظر الى الافق المائل عند غروب الشمس حيث تحلق تلك الطيور بعيدا، وقالت بعدم اهتمام :

- بل قل طائر النّحس خاصتي

ضحك هارون من اعماق قلبه على كلامها واجابها باستغراب :

- هل اصبح طائر النّحس الان ؟ ا لم يكن طائر الحظ خاصتك وكلما رايته حدثت معك اشياء جميلة

- والله كان هذا قبلا، او ربما كنت اتوهم وحسب، لكن في الواقع كلما رايت هذا الطائر حدثت اشياء سيئة للغاية

- الحقيقة لا هذه ولا تلك يا ريان،، هذا الطّائر لا علاقة له بما يحدث معك ابدا لا من بعيد ولا من قريب،، فقط تؤمنين بهذه الامور كي تُشبعي غريزتك املا وتفاؤل ان غدا سيكون جميلا، لكن هذا خطأ لان الايمان الحقيقي هو الايمان بالله وحسب

بقيت صامتة تُعيد كلاماته في راسها والتي تراها صحيحة دون شوائب وقد اجابته بعد برهة زمنية :

- كيف تستطيع ان تكون هكذا ؟

- اكون كيف !

- لا تتاثر بالخيبات التي تحدث من حولك،، ام انك لم تعش خيبة امل من قبل ؟

ابتسم ناحيتها بسخرية على طفوليتها وقال بهدوء :

- ولما لم اعش ؟ هل تريننني ملاكا ام وليا صالحا ؟ انا ايضا مثلك اعاني تقلبات الزمن كل ثانية وكل دقيقة، لكن راضٍ بما يمليه علي القدر لانني اثق ثقة عمياء بالله وبقدراتي

خفق قلبها لسماع تلك الجملة التي سبق وسمعتها من قبل وقد ادركت عندها ما كان يرمي اليه وائل بخصوص هذا الامر، ولو استطاعت وقتها ان تتمعن في الامر لربما ما حدث معها كل هذا...

- انا لستُ مثلك، اذا ما فقدت شيئا احبه ادخل في نوبة اكتئاب حاد

- اعلم، انت تخشين فقدان الاشياء التي تُوَلينَها كامل اهتماماتك وهذا لا يجوز، فالله دائما ما يبتلينا باحب الاشياء لدينا كي نعلم انها زائلة وهو وحده من يدوم لنا

- وماذا يجب علي ان افعل ؟

- عليك ان تُخفضي سقف توقعاتك بخصوص علاقتك باي شيء كان، يجب ان تتوقعي الاسوا مثل الاحسن على حدٍ سواء،، وعليك ان تتحلي بالقوة فهذا المجتمع شرقيٌ بطبعه لا يقبل بوجود الضعفاء على ارض المعركة، البقاء للاقوى عزيزتي، ضعي هذا حلقةً في اذنك

عادت الى الصّمت من جديد؛ سارحةً في مياه البحر الشرقي وهي تتحرك بدلال زائد، في شكل انسيابي مع اتجاه الرياح التي هبّت فجأة تُداعب الاثنان بلطف...

- اتعلم شيئا ؟؟ .. إنّ المراةَ تُشبه البحر كثيرا

جميل في منظره... هادئ في اعماقه... حجيم في غضبه

- وانت ايّهن ؟؟ ام انك الثلاثة ؟؟ ... اذا كان هكذا فهو كثير علي

ابتسمت بعفوية وقالت بمرح مصطنع :

- انا شخصيا لا ادري،، احيانا ارى نفسي هادئة ومرات فوضوية وصاخبة، انت الوحيد الذي تمكن من التّغلغل داخل اعماقي والتفسح بطلاقة في عالمي الوردي،، لم اسمح لاي احدٍ كان قبلك ان يتجاوز منطقة الرّاحة خاصتي،،، وفعلت انت

شعر هارون بالفخر لكلاماتها تلك بخصوصه،، وقد قام لحظتها بنزع حذائها من قدميْها بغتةً؛ وحتى بعد رفضها التام للامر، ثم فعل مع نفسه ذات الشيء وسارا سويا فوق الرمال الذهبية التي كانت باردة بعض الشيء على ريان نحو الشاطئ ليتمتعا قليلا بمياه البحر، لحظتها

اطلقت دراعيها في الهواء تستقبل نسمات البحر الدافئة وكأنها تقوم بِفرد جناحيها لاجل انطلاقة قوية نحو السماء العالية،، ثم قام هارون بفعل نفس الشيء من خلفها مثل الحركة التي سبق وشاهداها في فيلم التايتنيك للثنائي روز وجاك...

- اطلقي العنان لنفسك وحلقي في عالمك الوردي بكل حرية،، فهذه الحياة نعيشها مرة واحدة، فلا تجعلي الاحباط عنوانها حبيبتي

ابتعدت عنه بعد برهة زمنية، تنظر ناحيته بحب واعجاب كبير لحكمته وفصاحة لسانه بالرغم من صغر سنه، وقد صدق من مدح اسلوبه في العلاج، فهو بالفعل لا مثيل له...

- ا تعلم،، معها حق حسناء عندما كانت تمدح في شخصيتك ايام الجامعة

- هل كانت تفعل حقا ؟

- يوميا،، كلما اجتمعنا في النادي تبدا هي اولا بالحديث عنك وعن شخصيتك،، حينها كنت استغرب من كلامها حول مبالغتها الزائدة بخصوص الطبيب الذي تعمل مساعدة عنده،، لكن الان ادركت انها كانت محقة بالفعل

- هي كانت تفعل هذا لاغاظتك يا مجنونة ؟

- اغاظتي انا ؟

- اجل

- ولما ؟

- لانها كانت تعلم بامرك وانني كنت مجبرا على الزواج بك

رفعت حاجبها الايمن في استغراب وقالت بفضول :

- وانى لها ان تعلم بذلك ؟ هل اخبرتها انت ؟

- اجل، في تلك الفترة كنا قد بدأنا نتواعد منذ ما يقارب عشرة ايام، وقد صارحتها بالامر كي لا تتوقع مني الكثير، لكنها اصرّت على الغوص في التجربة تتامل ان تحدث معجزة واتزوجها هي بدلا عنك

شعرت ريان بخلل في دماغها وبقيت تُعيد احداث الماضي في شريط متسلسل،، فقد كانت دائما تتسائلُ حول كره حسناء لها وهي لم تتعرض لها بأي شيء يمكن ان يُؤذيها،، وقد كانت تظن في تلك الفترة انه بسبب تفوقها عليها في الدّراسة فقد سبق وسمعت من بعض طالبات الصف ان حسناء كانت الاولى في دفعتها قبل التخصص،، لكن منذ ان صارت هي وريان

في نفس المجموعة اصبحت تحتل المكانة الثالثة،، تذكرت بعدها يوم استيلام شهادتها وما اخبراها به جاسم وسمية انها تحتاجها في امر ضروري،، ازدرت ريقها وعلا التوتر ملامح وجهها ثم التفتت نحو هارون الذي كان مستغرب من سرحانها هذا :

- هل يُعقل ان لها علاقة في عدم استيلام شهادتي ؟؟

اجابها الاخر باستفسار :

- كيف هذا ؟

- سنعلم هذا الان،، هل تعرف منزلها اين يقع ؟

- لما تسألين ؟ ما الذي يدور في راسك يا ريان ؟

- اجبني اولا وساخبرك بكل شيء في الطريق

- اجل اعلم، انها تعيش مع طالبتين اخرتين في حي menadia

- هيا سنذهب الى هناك وحالا

امسكها هارون من مرفقها يحاول ايقافها وفهم آليات الذي يحدث حوله ...

- اخبريني بالاول ماذا تريدين ان تفعلي ؟؟

اجابته باندفاع زائد :

- هارون ليس وقت شرح الاسئلة الان وان لم تاخدني انت ساذهبُ بمفردي

كان يعلم انها عنيدة وبامكانها فعل أي شيء يخطر على بالها،، لهذا استسلم لها ورضخ للامر الذي هي بصدد القيام به. كانت طوال الطريق صامتة ولم تنبس ببنت شفة،، تفكر مرارا وتكرارا بالموضوع وتخاف ان يكون تخمينها صحيحا بخصوص تلك الشيطانة كما تُسميها، بعد خمس دقائق وصلا اخيرا الى عين المكان وترجلا سويا من السيارة قاصدين الطابق الثاني من العمارة الثالثة التي تُطل على الملعب لكرة القدم.

في تلك الاثناء انهت حسناء مكالمتها مع وائل تطلب منه ان يباشرا في المرحلة الاخيرة من الخطة التي ستقلب حياة ريان راسا على عقب،، وقد انتبهت لرنين الجرس الذي احدث صوتا مُدويًا في العمارة، جعلها تتسائل بفضول عن الضّيف الذي اتى في هذا الوقت مع آذان المغرب، فرفيقتيها في السكن قد غادرتا الى بيوتهما اليوم الماضي وما زال وقت على عودتهما،، ادارت المقبض وفتحت الباب لتتفاجئ بهارون وريان يقفان قبالتها وعينا الاخيرة ترمقانها بنظرات نارية تقدح شرارة،، لم تتحمل ريان اكثر وانقضت عليها بصراخ تنهالُ

عليها بالسباب والالفاظ السوقية؛ تُمسكها من شعرها الاملس الاشقر بقوة كي تُشفي غليلها منها،، وقد فصلها هارون بصعوبة عنها يحاول معها ان تتوقف وتهدأ قليلا كي لا يُحدِثا غلبة في البناية،، ظلت حسناء تلتقط انفاسها تحاول هضم الموقف الذي تعرضت له الان من طرف زوجة حبيبها السابق وقد صاحت فيها بعنفوانية قائلة :

- هل انت مجنونة ؟ ما هذا الذي فعلته الان وفي منزلي ايضا ؟؟

اجابتها الاخرى بنفس نبرة الصوت :

- اخرسي ايتها الشيطانة ولا تُسمعيني صوتك، هل انت وراء تعذُري لاستيلام شهادتي ؟

فتحت الاخرى عينيها في ذهول مستغربة من معرفتها للامر وهي لم تترك ورائها دليلا...

- ماذا تقولين ؟ ومن اخبرك بالامر ؟؟

- اذا هو صحيح !!

- اجل صحيح انا وراء ذلك ولو كان باستطاعتي فعل المزيد لفعلت دون ان يرف لي جفن

كان جوابها صدمة لهارون الذي لم يتوقع منها تصرفا وضيعا كهذا وقد قال لها عندها :

- لا اصدق هذا،،، هل كنت هكذا بالفعل يا حسناء !!

نظرت نحوه الاخرى وابتسمت بسخرية قائلة :

- هل فاجئتك ؟؟ وماذا كنت تتوقع ؟ ... هذه الوضيعة سرقتك مني وانا التي استحقك بالفعل

كاد ان يجيبها لكن صوت ريان حال دون ذلك...

- لهذا كنت تكرهيني دون سبب ؟؟ وانا الغبية اعتقدت انه بسبب توفقي عليك،، ما هو ذنبي انا بالحكاية ؟ لقد كنت ضحية ايضا ولم ارغب بزواجي من حبيبك ابدا

- قلت تفوق ؟؟ وهل تظنين انني لم اكن قادرة على ردعك حينها واخذِ منك مرتبتك ؟؟ ... لا عزيزتي انت مخطئة ليس لهذا السبب،، بل بسبب حبيبي الذي تركني لانه كان مجبر بالزواج منك،، وقد كان كل مرة يحدثني فيها عن الموضوع ويذكرني ان علاقتنا لن تدوم ومعرضة للفراق في أي لحظة كفيلة بجعلي احقد عليك اكثر واكثر واقوم بتدميرك كلما سنحت لي الفرصة بذلك،، لقد اتصلت بي يومها الاستاذة سليمة المسؤولة عن دفعتنا واخبرتني ان أُعْلِمك بجلب كشف نقاطك للسنة الدراسية الماضية كي لا يحدث خطأ في استيلام شهادتك، لكنني لم افعل ذلك عمدا وتركتها لاخر يوم كي لا يظهر الامر وكانه عن

قصد لكن انت بتاخرك افسدت كل شيء وجعلتني اتعرض للتوبيخ من طرف الاستاذة... آه، وليس هذا وحسب حتى تصاميمك التي تم رفضها من مدرسة الفنون في كندا كنت سببا فيها

فتحت الاخيرة عينيها في ذهول وقالت :

- لا اصدق !! وكيف علمت انني ارسلت تصاميمي ؟؟

- سمعتك تُحدثين إيلين وسمية عن الامر فاغتمنت الفرصة وقمت بحركتي

- ولكن كيف استطعتِ فعلها ؟

ابتسمت حسناء بسخرية لاذعة ناحيتها واجابتها بخبث :

- طلبت من صديق لي يدرس اعلام آلي ان يقوم باختراق بريدك الالكتروني الذي لطالما ارسلت اليك فيه المحاضرات والدروس النظرية، واعدتُ ارسال تصاميم بالية مرفقة برسالة نصية للمدرسة انني اخطات في التصاميم والاولى لا تعود لي

كان الخبر بالنسبة لريان مثل الحلم تريد ان تستيقظ منه في أي لحظة،، نظرت نحو هارون باستغراب وقالت له :

- سأقتُلها وسأذهب للجحيم بعدها

تقدمت منها والغضب قد اعمى بصيرتها وقامت بصفعها بقوة مرة ومرتين غير عابئة بصرخات الاخرى وتوسلاتها لهارون ان يُبعد زوجته عنها،، وقد حاول الاخير معها لكن دون فائدة، لم تكن ريان تنصاع لاي شيء تلك اللحظة غير حقدها على حسناء التي حطمت لها احلامها وجعلتها تعيش ايام سوداء على ما حصل لها، بقيت تلطمها على وجهها وتشد لها شعرها تنهال عليها بالشتائم دون توقف،، حتى دفعتها فجاة ارضا ليرتطم راسها بحافة الطاولة لغرفة المعيشة لتلقى حتفها هناك تحت صدمة ريان وهارون وهما يراقبان دمائها تسيل على الارضية بغزارة.

***

استيقظت ريان بفزع على اصوات دقات الساعة لمنتصف الليل،، من كابوس مرعب جعل اطرافها ترتعش من شدة الخوف، اخدت تلتقط انفاسها برويةٍ ببعض المياه المعدنية التي كانت موجودة في ابريق زجاجي صغير على شكل قلب موضوع فوق الكومدينة بجانب سريرها،، بعدها قامت من مكانها تقصد الحمام كي تغسل وجهها بعد ان ذهب النعاس عنها. بقيت تنظر الى صورة انعكاسها في المرآة تعيد تلك الاحداث المؤلمة التي جرت في بيت حسناء،، لقد كانت بالفعل على وشك ان تقتلها بسبب تلك الاعترافات التي كانت خنجر غُرز في صدرها، ولولا وجود هارون الذي افلتها بصعوبة واخدها خارجا الى سيارته بعنفوانية لربما صارت مجرمة وسيضيع مستقبلها هباءا منثورا،، تنفست بعمق تحاول قدر المستطاع نسيان ما حدث؛ تُقنع نفسها ان القدر شاء هكذا والماضي لا يمكن تغييره الان، وعليها التركيز على الحاضر والمستقبل وحسب،، قصدت المطبخ وفتحت الثلاجة تنظر اليها ببلاهة محتارة هل تاكل المالح ام الحلو ؟؟ وبعد تفكير دام ثواني اخرجت التيراميسو وعصير المشمش،، ثم توجهت الى الشرفة وصارت تاكل بنهم شديد وكأن لها اياما دون طعام،، وقد باتت تتسائل بفضول حول شهيتها في الاكل التي تجهل سببها حتى الآن... بقيت على حالها تنظر الى السماء الحالكة ظلمة يتربع على عرشها الكوكب الفضي يُشع بنور خافت رفقة تلك اللالئ البراقة، حتى انتفضت بفزع على صوت هارون يقف عند الباب يسالها عن سبب وجودها هنا في هذه الساعة المتاخرة من الليل ...

- لقد رايت كابوسا مرعبا قد ابعد النعاس عني !!

جلس بجانبها يلفها بغطاء قطني،، يشاركها جلستها وقال باهتمام :

- من جديد ؟؟

- اجل،، لكن يختلف عن الاخرين

- كيف ؟

- رايت نفسي اتشاجر مع حسناء بعدها دفعتها بقوة ليرتطم راسها بقدم الاريكة وتغرق في دمها

- اذا انهيت عملك في الحلم بعدما لم تفلحي به في الواقع !!

شعرت بالازدراء من كلامه وقالت بضيق :

- لقد سمعت باذنيك ما فعلته بي، فلا يحق لك ان تلومني ابدا على ما اعتقد

- لستُ الومك على شيء،، ولكن ازعجني كلامك معها بخصوص زواجنا

تذكرت ريان ما قالته لحسناء وفي حالة لا يُحسد عليها بسبب غضبها الشديد، وقد ادركت انها جرحت مشاعره مجددا بدون قصد،، تنحنحت بخفوت واجابته تحاول تلطيف الجو بينهما...

- انت تعلم انني لم اقصد قول ذلك !! لكنها اجبرتني

- ادري ولست مستاء جدا،، لكن انا احبك ولا اريد ان اجبرك على شيء

- عن أي اجبار تتحدث ؟ هل ما زلت هناك ؟؟ لقد اصبحت ملكك والى الابد باذن الله،،، منذ ان ارتديت خاتم خطوبتنا صرت ريان عبدالله زعيم،، انا ايضا احبك ولا استطيع تخيل حياة بدونك يا هارون فانت ملاذي الآمن ونصفي الاخر وفارس احلامي ايضا،، ولن اسمح لتلك الشيطانة ان تفرقنا ابدا

ابتسم نايحتها بلطف يداعب جفونها التي نال البرد منهما، وطبع قبلة خفيفة على وجنتيها يضمها بعدها الى دراعيه سعيد جدا باعترافاتها التي طال انتظارها كثيرا.

***

- مبروك سيدتي، انت حامل في الشهر الاول !!

امسكت ريان ببطنها متفاجئة من الخبر وسعيدة ايضا في نفس الوقت،، فقد كانت تنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر، وها هي قد امست واقعا جميلا جعلها تنسى كل ما مرت به خلال رحلة زواجها من ابن عمتها، نظرت نحو الطبيبة التي ستكون المشرفة عليها من الآن وصاعدا، وقالت بعدم تصديق :

- هل انت متاكدة من الامر حضرة الطبيبة ؟

بادلتها الاخرى ابتسامة غاية في اللطف وقالت لها :

- اجل عزيزتي، واثقة وقد سُررت لاجلك يا ريان فلطالما اردتِ ان تصبحي أُما !

- شكرا لك يا نرجس هذا كله بفضل نصائحك لي،، بالمناسبة لا تخبري منال بالامر لانني اعلم انها ستنشر الخبر في اقل من ثانية، وانا صراحة اريد ان افاجئ الجميع واولهم هارون

- كم يبدو هذا رومنسي !! لا تقلقي عزيزتي، لن اخبرها بأي شيء

- تعدينني ؟؟

- اجل اعدك، ولو يا ريان،، هذه احدى اسرار مريضتي ولا يحق لي بِفشها !

- اشكرك بالفعل يا نرجس وطاب يومك

- مع السلامة.

غادرت ريان العيادة النسائية للتوليد بفرحة عارمة لا تصدق انها بالفعل ستصبح أُما بعد تسعة اشهر باذن الله،، كانت تجوب شوارع المدينة وكأنها تتطاير في الهواء لا تسعها الارض من شدة السعادة،، واخيرا سيكون لديها ملاك صغير يؤنسها في وحدتها ويسيلها بحركاته البريئة التي تعشقها كثيرا،، قررت ان تهاتف زوجها وتزف له الخبر كي يشاركها هو ايضا سعادتها، لكنها تراجعت عن الامر وقررت ان تفاجئه على طريقتها وبرومنسية مبالغ فيها،، اوقفت لها سيارة اجرة وطلبت من السائق ان يوصلها الى البيت وفي عينيها لمعة ساحرة لا تكاد ترى لوهلة من الزمن، بعد ربع ساعة وصلت اخيرا وترجلت في حبور بعد ان حاسبت السائق تركض بارجل مقوسة الى الداخل وقلبها يقفز معها ويكاد يخترق جداريات قفصها الصدري،، في طريقها عند الحديقة الامامية للمنزل صادفت الاء شقيقة زوجها تقوم بري الزهور وبطنها يصل الى اعلى حلقها، توقفت والقت عليها التحية بنوع من المرح، قد لاحظته الاخرى جيدا حيث وضعت الصنبور جانبا وتقدمت ناحيتها ببطء تسالها عن سر هذه السعادة...

- عزيزتي الاء متى اتيت ؟

- امس عند المساء

- جيد اهلا بك

- شكرا،، هل انت متفرغة الان ؟

- اجل ولما ؟

- ساخرط عليك بعد قليل كي اعلم سر هذه السّعادة التي تبدو واضحة جدا على محياك

ابتسمت الاخرى بعذوبة وقالت لها وهي تطالع بطنها بحنان :

- هل بامكانك صعود ذلك الكم من الدرج ؟

- لا تقلقي علي استطيع ان اتدبر امري

- حسنا اذا انني في انتظارك

ودعتها ريان وغادرت الى البيت في عجل تفكر بينها وبين نفسها في طريقة رومنسية لمفاجاة زوجها بخبر حملها، نزعت عنها ثيابها وارتدت بيجاما بيتية رمادية عليها تويتي احد الرسوم المتحركة، ثم رفعت شعرها الغرابي المجعد في شكل كعكة كي لا يزعجها عند اعداد الفطور،، بعدها شغلت الراديو وراحت تستمتع باحد الاغاني الشعبية للفرقة الوهرانية التي تعشقها منذ ان كانت صغيرة،، كان كل شيء بالنسبة لها مثل الحلم؛ لا تصدق ان الحياة قد اهدتها كل هذه العطايا وضحكت لها الدنيا بالاخير،، في ظل تلك السعادة التي تغمرها سمعت رنين الجرس فادركت ان الاء قد اتت اليها، وقد فتحت الباب دون ان تضع غطاءا على راسها لعلمها المطلق من يكون الطارق،، حتى تسمرت مكانها وتجمد الدم في عروقها وهي ترى وائل يقف قبالتها ويرمقها بنظرات غريبة،، ازدرت ريقها بخوف وشعرت بوتيرة تنفسها تزداد اضعاف مضاعفة،، وقد شُل لسانها عن الحركة لا تستطيع الكلمات ان تخرج منها...

- صباح الخير ريان !

افاقت من شرودها على صوته الذي اثبت لها انها في الواقع وليست في عالم الاحلام، ثم اجابته بانزعاج قائلة :

- هل جُننت انت ! ما الذي اتى بك الى باب بيتي ؟؟

- اتيت اتوسل اليك لاخر مرة يا ريان كي تمنحي علاقتنا فرصة ونعود كما كنا في السابق ؟

تنهدت بعمق وقد بلغ السيل الزبى معها،، فقد سبق واخبرته انها تحب زوجها كثيرا ولن تتخلى عنه تحت أي ظرف كان، لكنه لا ينوي ان يدعها في حال سبيلها،، قالت له بنفاد صبر وهي ترفع اصبع سبابتها ناحية وجهه

- وائل لقد وصل الغضب معي الى ذروته ان لم تترك ياقتي وشاني صدقني ساكلم زوجي هارون عن الامر ليتصرف معك هو

تلك اللحظة امسك بيديها بغتة ودون رغبة منها وصار يتوسل اليها ويتودد لها بكل الطرق كي تغفر له وتسامحه عن كل ما بدر منه تجاهها،، وقد شعرت بالدماء تفور في راسها لوقاحته معها وهي امراة متزوجة،، ارادت ان تصفعه بقوة او تحذره للمرة الاخيرة لكن صوت هارون وهو يرى الموقف بعين كاذبة حال دون ذلك...

- يُخيل الي ان امورا تحدث ها هنا ويجب علي معرفتها وحالا ؟؟

شعرت ريان بالارض تزلزل من تحتها وصار قلبها يخفق بصورة رهيبة خوفا من حدوث ما كانت تخشاه مسبقا،، ارادت ان تتكلم وتشرح الوضع لهارون لكنه اوقفها بحركة يده القاتلة والتي تعرفها جيدا،، ثم كوّر قبضة يده اليمنى ولكم وائل على انفه بكل عنفوانية جعلته يسقط ارضا والدماء تتطاير منه...

- كيف تجرؤ على لمس زوجتي ايها الحقير ؟؟ كيف تجرؤ على القدوم الى هنا اساسا ؟

لم يكتفي هارون بلكمة واحدة وقد انهال عليه بعدة ضربات اخرى وفي شتى انحاء جسده تحت صرخات ريان الموجعة وهي تامره ان يتوقف،، وعلى اثر تلك الاصوات خرجت سهام والاء وجدتها يستفسرون عن الامر وعلامات الاستفهام تحلق فوق رؤوسهم مثل الغربان التي تحلق فوق اجساد ميتة لا روح فيها،، وقد صادفوا هارون وهو يقوم بجر وائل خارج البيت بطريقة قاسية وهو في حالة يرثى لها والدماء تغطي وجهه وبقايا من ثيابه، اما ريان فقد ارادت اللحاق به وتوضيح الامر لكن عمتها استوقفتها تسالها عن السبب ...

- ما الذي فعلته يا فتاة ؟ ولما تشاجر ابني مع ذلك الشاب ؟

- لا اعلم انا لا علاقة لي بالامر

- كيف لا علاقة لك بالامر،، انا متاكدة انك السبب وراء كل ما يحدث فلا استبعد منك الخيانة وانت ابنة تلك المراة

لم تكن ريان في حالة تسمح لها بالاجابة او بالدفاع عن نفسها امام عائلة زوجها اللذين هم بالاساس عائلتها، لهذا اكتفت بالصمت ولم تنبس بحرف واحد تنتظر عودة هارون كي تشرح له الوضع،،، وفي تلك اللحظة اقبل الاخير نحوها وملامح وجهه تقدح شرارة، امسكها من دراعها بقوة واخدها الى البيت تحت انظار الجميع التي علا عليها الاستغراب والدهشة... اغلق الباب بعنفوانية وقال لها بصراخ :

- قد سبق وسالتك ان كان هناك شيء بينك وبين خال بلال ؟ لكنك انكرت واصررت انك لا تعرفينه

كانت ريان ترتجف من الخوف وعينيها لا تتوقفان عن اذراف الدموع، لا تقوى على الكلام ولا على التبرير، لكنها الان مضطرة وملزمة بقول الحقيقة حتى ولو كانت ستدفعها لخسارة الانسان الذي عشقته حد النخاع، جلست على الكرسي لطاولة غرفة الطعام وقالت بنبرة متقطعة تشوبها الحان الحزن والخدلان...

- لقد كنا سويا لمدة ثلاثة سنوات منذ ان ارتدت الجامعة، جمعتنا علاقة بريئة مع انه من الغباء قول هذا وهي ليست رسمية، ولكن مثلي مثل أي فتاة احببت شابا وتواعدت معه وانا كلي ثقة انه سيكون زوجي مستقبلا، بعدئذٍ شاءت الاقدار عكس ذلك وانفصل عني في ذلك اليوم المشؤوم يخبرني انه ليس مستعد للارتباط بعد وانه سيسافر الى كندا لاجل الدوكتوراه،، وانا من يومها لم اتكلم معه وقمت بحظره من جميع صفحات التواصل الاجتماعي،، ثم ظهرت مسالة زواجي منك والباقي انت تعرفه

كان هارون يستمع اليها بغير تصديق، يعتقد انها تلفق اعذارا وحسب كي لا تكون خائنة بنظره، اجابها بصراخ يضرب بقبضة يده سطح الطاولة...

- ولما لم تخبريني عندما ظهر في حياتك من جديد ؟

- لم استطع خفت ان اخسرك وانا قد فزت بحبك بصعوبة،، صدقني يا هارون انا لم اخنك مع وائل ابدا

- وهل تنتظرين مني تصديقك ؟ انا اسف يا ريان لقد بات كل شيء واضح الان، انت لم تحبيني لقد كنت تكذبين على نفسك وحسب، وكنت تخدعيني طوال الوقت

- لا صدقني انا لم اخدعك

- اخرسي لا اريد سماع صوتك،، وانا الاحمق الذي ظننت انني ظلمتك بالفعل وانك كنت ضحية سعيت جاهدا لاخراجها من سجن الاحزان الذي رُميتْ فيه،، كل هذا كان كذبا، انت كرهتني بسبب ذلك الحقير، لم تتقبلي زواجنا لانك كنت تحبين شابا اخر

- اخبرتك انه كان قبل معرفتي بامر حتمية زواجنا لما لا تصدقني ؟

صاح فيها بغضب اقوى عن سابقه :

- وكيف اصدقك ؟؟ وانت كذبت علي بخصوص عدم معرفتك به ؟ كيف اصدقك ؟ يبدو ان حسناء محقة هذه المرة في كلامها،، انت لست كما يبدو عليك من البراءة والنقاء، لقد كنتُ مخدوعا فيك

- قلت حسناء !!

قبل ساعة....

استند هارون على كرسيه خلف مكتبه، يشعر ببعض الإعياء جرّاء مقابلته مع مريضٍ كانت اول مرة له يرتاد العيادة،، يعاني من متلازمة المحتال، وهي متلازمة غريبة من نوعها لم يسبق له ان صادفها على ارض الواقع، وهي شعور الشخص أنه غير مؤهل للقيام بعمل ما، أو أن يرى نفسه ذا كفاءة أقل مما يرى الآخرين في الواقع، وعليه فالمصاب بهذه المتلازمة يعتقد أن يستحق أقل مما يملك، ويخاف من أن يصفه الآخرين بأنه محتال على الرغم من كفاءته ومهارته،، كان المريض بها لا يتجاوز عمره العشرين، قد توقف عن الدراسة بسببها وهو الان يعمل عند محل للمؤكولات السريعة في وسط المدينة قرب المراكز التجارية،، وعلى اثر ذلك الموضوع طلب هارون من اسماء ان تعد له فنجان من القهوة كي يستعيد بها نشاطه الذي استنزفه مع ذلك المريض قبل قدوم الموعد الاخر الذي يخص السيد الاربعيني قدور شلبي،، كان هارون يعلم ان مهنة الطب النفسي ليست هيّنة ابدا وسيعاني منها متاعب جمّة خصوصا وانه صار استاذ جامعي اضافة على ذلك، لكنه في نفس الوقت يحبها جدا ولا يستطيع النجاح في شيء اخر سواها، فتقديم يد العون لاولئك اللذين حاربهم المجتمع وتخلى عنهم السند، ورمت بهم الحياة في القاع يعطيه متعة لا توصف،، وتجعله يشعر بالفرحة الشديدة، لانه يعلم ان الحياة ليست عادلة مع الجميع. وبينما هو شارد الذهن في افكاره سمع طرقات خفيفة على الباب، فادرك انها اسماء قد احضرت له القهوة كما طلب منها، عدّل هندامه وامرها بالدخول بلطف، لكنه تفاجئ بعكس ذلك،، هي ليست مساعدته الجديدة، بل القديمة دلفت عليه الغرفة تتمايل بعكبها العالي، وتبتسم ناحيته بخبث كبير وكأن لديها قنبلة ستقوم بتفجيرها في الوسط، جلست على الكرسي قبالته وقالت بمكر :

- هارون ! لما انت متفاجئ بقدومي بهذه الدرجة ؟

- ما الذي اتى بك ؟

اطلقت ضحكة صفراء عالية، تضع قدما فوق الاخرى ثم اردفت :

- لقد اتيتك بانباء متاكدة انها ستصدمك يا عزيزي !

اغمض عينيه بنفاد صبر لمقته تواجدها هنا،، خصوصا بعد الشيء الذي عرفه مؤخرا عنها..

- لا يوجد وقت لي لألاعيبك يا حسناء،، غادري الان قبل ان يستشيط غضبي عليك

- على رسلك اساسا لست مولعة بالقدوم اليك،، لكن هناك موضوع مهم علمته مؤخرا ويجب ان اخبرك به

- أي موضوع ؟؟ قولي ما عندك بسرعة وغادري المكان

- زوجتك ريان وحبيبة قلبك التي فضلتها علي،، على علاقة بشاب اخر

- حسناء !! اياك ان تتطاولي على شرف ريان صدقيني لن ارحمك !!

- اهدأ... اهدأ،، انا لا اتطاول على شرف احد، اقول لك الحقيقة التي كنت تجهلها قبل الزواج

- أي حقيقة هذه التي تتكلمين عنها ؟

- انا ايضا لم اكن اعلم عنها أي شيء بالرغم من اننا كنا ندرس في نفس المجموعة،، لكن قبل شهرين بلغني عن طريق الصدفة ان ريان كانت على علاقة بشاب يدعى وائل السّبوعي، وقد كان يكبرها بعامين، وريان سلكت اختصاص الهندسة الكيميائية لاجله هو،، وقد استمرت علاقتهما لمدة ثلاثة سنوات، حتى علمت انها مجبرة بالزواج منك،، فاضطرت ان تعيش علاقتها بحبيبها في السر على امل ان يعودا كاسابق في يوم من الايام.

لم يشعر هارون بنفسه الا وهو يحمل مفاتيح سيارته وهاتفه الخلوي ويغادر سريعا يسابق رياح نوفمبر كي يتاكد من الامر،، اعاد الاحداث الماضية طوال الطريق وتذكر يوم راهما معا عند الساحل وما اخبرته به والدته بخصوص الشاب الغريب الذي اتى لرؤية زوجته،، وكذلك نظراته الغريبة تجاهها عندما كانوا في المستشفى وفي السياحة الجبلية،، كل هذا وذاك جعل الشك يتسلل الى داخل قلب هارون بخصوص طهارة زوجته،، وقد بدا الحقد يعمي بصيرته شيئا فشيئا لا يصدق ان ريان من الممكن ان تفعل به هذا وهو قد احبها بصدق وحارب امه والعالم اجمع لاجلها هي وحسب،، بعد ان وصل الى البيت ركن سيارته بكل عنفوانية وترجل منها في عجل يقصد الطابق الاول، وهناك كانت المفاجاة كبيرة جدا، لدرجة انها كانت تقضي عليه.

***

وقفت ريان مكانها وتقدمت منه بتردد تتوسله ان لا ينصاع لغضبه ويصدق ما تقوله هي، لكن عبث هارون تلك اللحظة شعر بأن كرامته صارت تحت الارض، لا يستطيع هضم ذلك المشهد المُخزي الذي رآه بأُم عينيه،، ادار جسده مغادرا المكان لكنها امسكت به من يده تبكي بشراهة وتطلب منه ان لا يتركها....

- هارون صدقني لا يوجد أي شيء من الذي في ذهنك،، حسناء تكذب عليك؛ لفقت كل هذا لتفرق بيننا، لا انكر ان وائل كان جزء من ماضي يخصني؛ لكن قبل معرفتي بامر خطبتنا قطعت علاقتي به، وحتى لو لم يحدث ذلك وتزوجنا بالفعل لما قمت بخيانتك،، انت كنت سندا لي بالفعل، ولم يسبق لي ان شعرت بالآمان مع رجل غيرك حتى وائل حبي له لم يكن عفويا مثل حبي لك

ابعد يده عنها والتفت نحوها يرمقها بنظرات عتب :

- لقد خيبتِ املي يا ريان ولم اتوقع منك شيئا كهذا... حتى عندما فتحت الباب له لم تضعي غطاءا على راسك، ا لهذه الدرجة انت وضيعة !!

- ليس الامر كما تظن،، لقد خِلتها الاء شقيقتك فقد اخبرتني انها ستاتي لزيارتي

- هذا يكفي،، لديك مبررات لكل شيء، وانا قد سئمت سماعها صراحة

- هارون ارجوك لا تتخلى عني انت ايضا !! انا احبك ولا يمكنني العيش بدونك لحظة واحدة

كان يريد لحظتها ان يصدق انها بريئة بالفعل وكل ما راه مجرد كذب لا علاقة لها به، لكن لم يتمكن من ذلك فبالنهاية هو رجل شرقي غيرته لا حدود لها،، اغمض عينيه باسى وقلبه يعتصر من شدة الالم لا يصدق ان زوجته قد قامت بطعنه من الخلف وهو قد سلمها جميع ممتلكاته لتجوب فيها كما تشاء...

- كان عليك التفكير بهذا قبل ان تقومي بخيانتي،، ريان !! انت طالق... طالق... طالق.

***

ادار مقود سيارته لانطلاقة قوية وعنيفة الى ابعد نقطة من المدى يهرب من نفسه ومن الواقع المرير الذي سلبه احب الاشياء الى قلبه، كان الطقس آنذاك غائم جزئيا تتخلله بعض خيوط اشعة الشمس لتضفي دفئا وحنانا الى قلبه البارد كبرودة القطب الجنوبي،، لم يسبق لعيونه ان ترقرقت بالدموع من قبل، فقد كان يواجه المحن والمصاعب برحابة صدر وشجاعة اسد، وحتى يوم وفاة والده لم يذرف قطرة واحدة، لكن يبدو ان تلك العيون السماوية التي احبتها ريان حد النخاع قد خانته ايضا مثلها وصارت تتساقط مثل زخات المطر،، يشعر بالاسف على كل شيء،، صار يضرب على مقود سيارته بكل غضب ويصرخ باعلى صوته ...

- لماذا فعلت بي هذا ؟؟ لمااااااذا ؟؟؟ لقد احببتك بصدق ولم احب غيرك لتلك الدرجة ؟ لماذا فعلت بي هذا وغدرت بي يا رياااان لمااااااااااذا ؟؟؟

وكما قال نزار قباني في قصيدته (قصص الهوى كلها غيبوبة وخرافة وخيال،، الحب ليس رواية بختامها يتزوج الابطال)،، لقد اعتقد هارون ان الحظ ضحك لاجله واخيرا ومع انه لم يكن يؤمن بطائر الحظ وتلك الخزعبلات الا انه صدق قليلا بوجود هذه الاشياء، لاول مرة في حياته يشعر بخيبة امل حقيقية ويتجرع مرارة الفقدان في لحظة غير متوقعة،، اساسا الحياة تفاجئنا بغتة بمثل هذه التوقعات ولا تترك لنا المجال حتى لنستعد لها نفسيا،، وهو الطبيب النفسي وهو من يعرف بمثل هذه الامور اكثر من الكل،، توقف بسيارته عند المنارة، المكان الذي يهرب اليه عندما يشعر بالاحباط والخذلان، وترجل عنها يلتقط علبة السجائر والقداحة يسير بخطى متثاقلة نحو تلك الصخور كي ينفرد بنفسه قليلا ويهرب من واقعه ولاول مرة، تنهد بعمق ثم اخد شهيقا طويلا وكأنه يريد استنشاق هواء الكون برمته، بعدها اشعل سيجارة وراح يصب غضبه فيها ياخد له شهيقا وزفيرا،، ليتصاعد الدخان فوق راسه حلقات حلقات،، لمح لحظتها طيور النورس تحلق فوق مياه الابيض الشرقي التي كانت تتلاطم امواجها بطريقة همجية وكأنها تعبر عن غضبها من افعال البشر، وابتسم بسخرية وهو يتذكر ذلك اليوم عندما قالت له ريان ان هذا الطائر لم يعد طائر الحظ خاصتها بل صار طائر النحس،، وقد شعر لحظتها انها على حق فلا يمكن لهذا الحيوان ان يكون غير هكذا،، افاق من موجة الغضب التي استحوذت كيانه على صوت رنين هاتفه على سيمفونية بيت هوفن يتذكر من جديد حب ريان لهذا النوع من الموسيقى الكلاسيكية،، وقد اجاب على الخط فور ان لمح اسم مساعدته اسماء على الشاشة...

- آلو !!

- حضرة الطبيب اين انت ؟ لقد سئم السيد قدور شلبي من ملل الانتظار، وكذلك لديك موعد اخر مع الآنسة هيفاء براهيمي

- انا قادم.

اغلق المكالمة وغادر المكان الى عمله ملجأه الوحيد من مرارة ما عاشه اليوم، بالرغم من انه لا قدرة له على مساعدة أي شخص كان او الاستماع لمشاكل الخلق؛ فيكفيه مشاكله هو التي حلقت فوق راسه كطيور النورس النحس تلك في لحظة غير متوقعة.. ادار المقود وتحرك بسرعة يقصد العيادة يحاول قدر المستطاع طرد الافكار عنه،، لكن لم يفلح في عدم التفكير بالامر الذي كلفه حياته كلها،، حيث لم ينتبه مع تلك الشاحنة المحملة بالبضائع القادمة من الجهة الاخرى، ولانه اراد تفادي الاصطدام بها انحرف هو عن المسار واصطدم بالشجرة.

كانت الاصابة خفيفة والحادث لم يكن خطيرا بسبب براعته في القيادة، وقد اصيب بارتجاج خفيف في مقدمة راسه وكسر طفيف في دراعه اليمنى فقط كما اخبره الطبيب المسؤول عن حالته،، كانت الممرضة تقوم بلف الجبس على مرفقه بكل سلاسة ودقة في الحذر كي لا تجعله يتالم، اما هو فقد كان في عالم اخر لا يشعر باي شيء يحدث حوله، لا باصوات المرضى اللذين يندهون على الممرضات بصخب تشوبه الحان الالم، ولا باصوات الصياح في الممرات من طرف الاقارب اللذين يفتعلون المشاكل كالعادة،، جل ما يهمه الان ان يترك كل شيء وراءه ويذهب بعيدا عن هذا المكان بحيث لا وجود لوائل وريان،، تلك اللحظة اقبلت الطبيبة ناحيته تسال الممرضة عن حالة المريض التي تقوم بالاهتمام به وان كان تعرض لمضاعفات داخلية ام لا،، كان هارون يعرف هذا الصوت جيدا وبدا مألوفا جدا بالنسبة له، حيث التفت ناحية اليمين ليلمح منال تقف عند راسه وتبتسم ناحيته بلطف ...

- حمدا لله على سلامتك حضرة الطبيب !!

اجابها الاخر بفتور

- شكرا لك يا منال

امرت بعدها من الممرضة ان تذهب الى عملها وهي ستتكفل بالباقي لان المريض يقربها،، بعدها جلست على حافة السرير وواصلت في تضميد دراعه قائلة :

- اذا ما سر هذا الحادث المؤلم ؟

- حادث فقط لا يوجد وراءه سر

- حقا !! تريد القول ان ريان لا علاقة لها بالامر ؟

استغرب هارون طريقتها في الكلام وشعر ببعض الريبة بخصوص معرفتها بعض الاشياء ...

- الا ما تلمحين يا منال ؟

- ايها الاحمق هل فعلا تعتقد ان ريان قد خانتك مع وائل ؟

- ما هذا الكلام الان !! هل اتت اليك واخبرتك بما حدث ؟

تنهدت الاخيرة بعمق وقامت بفك خيط الضماد بعدما انهت عملها مردفة نحوه :

- لا، ليست هي من اخبرني اخي وائل هو من قال لي كل شيء

- اخيك وائل قلتِ !!!

***

انهت منال عملية تلك المراة البالغة الواحدة والستين من العمر والتي استغرقت فيها ساعتين ونصف بعد ان قامت باستئصال مرارتها بنجاح كما هو متوقع منها كافضل طبيبة في مشفى الخروبة،، غادرت غرفة العمليات تنزع كمامتها بتعب تقصد الحمام لاجل غسل يديها من رائحة المخدر التي باتت تعتادها كثيرا بسبب طول مدة مزاولتها في مهنتها،، ثم توجهت الى الاسفل حيث توجد الة صنع القهوة واخدت لها واحدة براوني مع علبة عصير راني الغنية بالحبيبات تستعيد نشاطها المهدور اثناء العملية،، سارت ببطئ مع زميلتها في العمل تتذكر بدورها ايامها مع اعز صديقة لها في هذا المستشفى الذي شهد على مغامراتهما سويا فترة التدريب والعمل،، وقد كانت منال تختار نسرين دائما ممرضتها في أي عملية تدلف اليها كي تدعمها معنويا وتشعرها انها بجانبها وليست بمفردها، كما كانت المرحومة تفعل بالمثل، لا تحبذ العمل مع ذاك الطبيب المسن الذي يقوم بتوبيخها على الدوام،، جلست على احد الكراسي في الحديقة تاخد لها استراحة تتناول البراوني مع عصير الاناناس، حتى انتفضت بفزع على رؤية وائل يقف قبالتها وهو في حالة يُرثى لها،، بسرعة وضعت اشيائها فوق الكرسي وركضت ناحيته بخوف تساله عن سبب هذه الحالة التي هو فيها،، وقد صرخت تطلب المساعدة من احد الممرضين كي ياخدوه الى جناح الاسعفات... صارت منال تعقم له الجرح تنهال عليه بالاسئلة من شتى الاتجاهات والفضول قد انهش تفكيرها بخصوص ما جرى معه،، اما الاخر فقد كان في عالم ثاني تماما لا يستطيع تقبل ما حدث ولا هضمه حتى،، ترقرقت عيناه الكستنائية الفاقع لونها بالدموع، وقال بنبرة اسى :

- لقد خسرتها يا منال ! خسرتها كليا هذه المرة

تفاجئت الاخرى من كلامه وخفق قلبها بسرعة لا تفهم عليه أي شيء، وقد توقفت عن عملها لبرهة تجيبه قائلة :

- من التي خسرتها ؟ ا هي حبيبتك السرية التي رفضت الافصاح لنا عنها انا وشقيقتك رحمها الله ؟

منال كانت مقربة جدا من عائلة نسرين حتى قبل زواج الاخيرة، فقد فقدت والديها وهي في سن العاشرة وكفنها خالها ابراهيم وزوجته حورية اللذين لم يرزقا باطفال،، احباها وكانها ابنتهما الحقيقية ولم يعاملامها معاملة اليتيمة ابدا،، وقد كان خالها صديق والد نسرين المقرب وتجمعهما علاقة قوية،، وبسبب هذا نشبت صداقة بين نسرين ومنال وكذلك وائل الذي راى فيها مواصفات اخته وصار يلجأ اليها عندما لا يستطيع مواجهة شقيقته في امر ما...

- وائل لما انت صامت ؟ لقد نفد صبري هيا قل من هي التي خسرتها ؟

نظر لها بتوتر وقال بعد تردد كبير...

- ريان !

انصدمت الاخرى كثيرا فور سماعها لذلك الاسم وتمنت في سرها ان لا يكون هو نفسه ما خطر على بالها...

- انت لا تقصد بكلامك شقيقة سليم يا وائل وزوجة هارون زعيم ؟؟

- انها هي التي احبتتها طوال ثلاثة سنوات ولم احب غيرها

- ولكن كيف هذا ؟ ريان متزوجة ولها ما يقارب الثلاثة اشهر ؟؟

- لقد كنا على علاقة معا لمدة ثلاثة سنوات وتتذكرين تلك الفترة كم رغبت انت ونسرين رحمها الله بمعرفة سعيدة الحظ، لكن بعد تخرجي انا من الماستار وتخرجها هي من الليسانس، انفصلت عنها بسبب خوفي من الزواج والمسؤوليات وبعدها تم قبولي في جامعة كندا لاجل اكمال دوكتوراه وانت تعلمين بهذا الامر

كانت منال تستمع لكلاماته غير مصدقة ان تلك الفتاة المجهولة هي نفسها شقيقة خطيبها سليم...

- وبعد ؟

- عندما اخبرتني بمسالة زواجها لم اصدق انها نزعتني من قلبها بهذه السرعة وهي لم تحب غيري؛ وقد شعرت بالدماء تفور في راسي من شدة غيرتي، وقبل موعد سفري بيومين اتصلت بي حسناء حبيبة زوجها السابق وزميلتها في الدراسة ايضا واخبرتني ان ريان تزوجت من ابن عمتها بالاجبار بسبب وعد بين والدها ووالده هو منذ ان كانا صغارا، وقالت لي ايضا ان ريان

تعيش جحيما معه ولا تطيق رؤيته في حياتها، وتلك الحظة عقدت العزم على مساعدتها لاجل خلاصها من ذلك السجن الذي وجدت نفسي مسؤولا عن ذهابها مكرهة اليه،، خططت مع حسناء كي نفرق ريان عن هارون ولكن ما حدث اليوم كان صدمة بالنسبة لي يا منال

- لهذا السبب الغيت سفرك فجاة ؟

- اجل

- المهم ماذا حدث اليوم ؟؟

اخبر وائل منال بكل شيء جرى قبل ساعة من الان وكيف تشاجر معه هارون عندما راه يمسك بيدي زوجته وفي بيته ايضا،، وقد تفاجئت الاخرى كثيرا من تصرفه هذا وهي تعرفه جيدا لا يمكن له ان يلوث شرف فتاة ويشوه سمعتها...

- انا بالفعل متفاجئة منك يا وائل !! كيف استطعت فعل هذا بالفتاة التي احببتها ؟

- لقد قلتها بفمك احببتها !

- وليكن، هذا ليس عذرا ابدا ؟؟ حتى لو لم تتخلى عنها انت ذلك اليوم وطلبتها من ابيها ما كان ليعطيها لك ايها الابله،، لانه كما قلت الان لقد تم اتخاد القرار بخصوص زواجها منذ ان كانت صغيرة

- ولكن هذا ليس عدلا يا منال،، الزواج لا يجوز بالاكراه ؟

- ذلك الاكراه التي تتكلم عنه صار حبا عظيما جمع بينهما في الحلال،، ثم انظر للامر من زاوية اخرى،،، ا ما كان خير ان تتركها انت وتجعلها تحقد عليك كي تعطي فرصة لنفسها وتجرب الحب من جديد ؟؟ ام ان تكونا على علاقة ويرغمها والدها بعدها بالزواج من ابن عمتها، فتصبح حياتها بالفعل جحيما، ضائعة بين مشاعر تكنها لحبيبها وبين زوج تكره الارض التي يمشي عليها ؟ ... لقد رحمكما القدر انتما الاثنان بتركك لها انت ذلك اليوم والا صدقني ما كانت ريان لتستطيع استعادة نفسها المتلاشية

- وماذا يجب علي ان افعل ؟ انا بالفعل احبها يا منال

صارت تربت على كتفه باسى لا تصدق ان شقيقها الذي ولدته الحياة لها قد احب فتاة لهذه الدرجة وهو الذي اقسم على حدوث عكس ذلك دائما...

- اسمعني يا وائل،، ريان لقد رمت حبك في البحر وحياتها صارت ملكا لزوجها وحسب تحبه ولا ترى غيره، وانت ايضا عليك ان تفعل نفس الشيء وصدقني ستعثر على شريكة عمرك

- لكن هارون طلقها بسبب ما حدث،، يظنها خانته معي ولم يصدقها.

***

لم يصدق هارون ما مر على مسامعه الان من طرف منال التي صدمته هي الاخرى بحقيقة غير التي اخبرته عنها حسناء الكاذبة،، ازدر ريقه بتوتر وقال وهو ينظر نحوها بعدم استيعاب :

- هل تقولين الصدق يا منال ؟

- اجل،، ريان لم تخنك ايها الاحمق لقد تسرعت في تطليقك لها،، كما انها تشاجرت مع وائل بعدها وهددته ان لم يترك ياقتها فستقدم شكوى بحقه وتخبر شقيقها بكل الحكاية،، لدرجة انه وعدها وعدا حرا انه لن يقترب منها مجددا

لقد ظن ان حسناء تقول الحقيقة عندما اخبرته انك تزوجت ريان بالاجبار وتقوم بفرض نفسك عليها في كل شيء،،، ولانه شاب يافع لم ينضج بعد القى اللوم على نفسه وحاول تصحيح خطأه

امسك هارون براسه بيده اليسرى وقال :

- يا الهي ماذا فعلت !! لقد ارتكبت خطئا فادحا بحقها،، ولا اظن انها ستسامحني عليه هذه المرة

- عليك اذا بالاسراع في تداركه قبل ان يفوتك الوقت.

***

ادار هارون المفتاح ثلاثة مرات متجاهلا حديث والدته التي استوقفته عند الباب تساله عن الحالة التي هو فيها، وتحاول الاطمئنان عليه والاستفسار عن الشيء الذي اودى به الى هذه النقطة،، لكن هو اغلق على نفسه يبحث عن تلك الملاك التي اتضح انه هو من غدر بها وتخلى عنها بعدما توسلته بالعكس مرات عديدة وليست هي من طعنته خلف ظهره،، صار يبحث عنها بلهفة ولوعة يرجو من صميم قلبه ان تكون هنا ولم تترك المنزل بعدما قام برمي يمين الطلاق عليها، قصد غرفة النوم تحديدا الخزانة ليرى ثيابها ان كانت ما تزال موجودة ام لا،، فوجدها فارغة وحتى حقيبتها القرمزية الكبيرة مختفية من مكانها المعتاد،، لقد اخدت اغراضها جميعا هذه المرة وتركته هو بدلا ان تتخلى عن حياتها، ولم تترك له أي شيء يتذكره بها عدا تلك المذكرة التي كانت مرمية في الرف العلوي من الخزانة،، والتي اثارت انتباهه لانه لم يسبق له ان راها تكتب من قبل فترة وجودها هنا،، حملها بين يديه يشم عبير زوجته من خلالها وذهب الى السرير يجلس القرفاصاء يفتحها على الصفحة الاولى التي وجد بها صورة لانمي ذات شعر طويل بنفسجي ترتدي ثياب الدراسة وتجلس في الصف الثاني من المقعد قبل الاخير تحمل بين يديها قلم رصاص وتحاول فك شيفرة معادلة الرياضيات كما يظهر عليها،، وفي الصفحة التي بجابنها هناك صورة اخرى لمجموعة من الاطفال اليافعين يقومون بالمطالعة بين احضان الطبيعة في ابتهاج مرح يشعرك وكأنك تحلق في عالم اخر،، انه نفس العالم الوردي الذي لم تسمح لاحد غيره بان يتغلغل داخل اعماقه، وقد كانت هناك عبارة مكتوبة بخط يدها فوق تلك الصورة (المطالعة هي غذاء الروح ... وبدونها تبقى روحنا جافة لا حياة فيها) لم يكن يعلم هارون بحب ريان للمطالعة فعلى حد علمه هي تميل للرسم وحسب وتطمح لان تكون فنانة ماهرة وناجحة مثل بيكاسو،، تنهد بعمق وقلب الصفحة الموالية والتي كانت بها عبارة مكتوبة بالبند العريض في الوسط (هل انت مستعد يا عزيزي القارئ للولوج في عالمي الخاص ؟ ان كنت مستعد بالفعل اغلق عينيك ولكن ابقي ذهنك مفتوح معي !!) مرفوقة بصورة اخرى تعود لفيلم الانمي FROZEN ملكة الثلج الذي سبق وشاهده مع بلال من قبل،، ادرك لحظتها انها حالمة لدرجة انها صنعت عالمها بايديها لتعود اليه متى تشاء.. اغمض عينيه يتذكر طيفها الذي كان يتحرك بطلاقة في البيت مخلفا في كل مكان يمر عليه رونقا ياخد الانفاس،، بعدها قلب الصفحة الموالية والتي كانت بتاريخ 30 جانفي 2017 (لقد اتى الالهام يدفعني للمضي نحو الامام ويحثني بقوة لنحت لوحة جديدة للسنابل الشامخة التي ارغب بشدة زيارتها يوما،، والقفز بارجل مقوسة في احضان الطبيعة الساحرة فانسى قليلا هذا الواقع القاسي الذي لا يرحم بدا)،، انتابه الفضول لحظتها حول الشيء الذي حدث معها لدرجة ان تفضل المغادرة وترك كل شيء خلفها،، لكنه تذكر علاقتها بابيها وشعر ان له يد في الموضوع ففتاة حالمة مثلها وحساسة لن تستطيع العيش مع شخص كخاله الذي يعرف طبيعته النرجسية كثيرا،،، بعد ان انهى قراءة الصفحة الاولى انتقل الى التي تليها والتي كانت بتاريخ 20 نوفمبر 2017 (اخيرا انهيتُ فترة الامتحانات الثلاثي الاول لعامي الباكالوريا،، لكنها لم تمر ابدا على خير ما يرام ولا اعتقد انني سانال الشهادة ان واصلت على هذا النحو،، انا اطمح للدراسة في

الخارج ويجب علي ان أُبلي حسنا من الآن وصاعدا والا لن احقق شيء وسيتنهي بي المطاف ربة منزل مثل شقيقتي فادية... اوه ان التفكير بالامر يجعل جسدي يقشعر تلقائيا) ابتسم بعفوية على طفوليتها البريئة والتي جعلته يحن اليها كثيرا ويود لو بامكانه اخدها اليه بالاحضان ولا يتركها ابدا،، ثم واصل قرائته لمذكرتها يغوص بذاته في عالمها الوردي حتى توقف عند تاريخ 14 فيفري 2018 (يا لها من اصوات جميلة تمر على مسامع اذني وكأنها اصوات ناي او سيمفونية قديمة تعود لموزارت الطفل الاعجوبة آية في الروعة الجمال، لا ادري ما هي تحديدا ؟ ربما لمجموعة من العصافير او طيور النورس طائر الحظ خاصتي وربما ايضا اصوات حركة السيارت التي تمر من الساحل الشرقي ذهابا وايابا،،، لا ادري بالضبط كينونتها فقد تكون لمجموعة اطفال يلعبون كرة القدم في الحي او الغميضة يعيدونني بذلك الى سنوات عديدة نحو الماضي السحيق الذي كنت فيه طفلة صغيرة لا تفقه اي شيء، اركض هنا وهناك كفراشة يائسة تحاول الطيران في الحي القديم قبل ان ننتقل الى النصر) لم يتمكن هارون من التوقف عن القراءة وكانه بهذا يحاول العثور على بقايا زوجته من خلال كتاباتها التي تركت اثرا طيبا وجد فيه بلسما لجراحه،، قلب الصفحة الموالية التي كانت بتاريخ 14 مارس 2018 وقد ادرك انها ليست مهتمة كثيرا بذكر تفاصيل حياتها فقط بين الفينة والاخرى تترك تذكارا جميلا تعود اليه بعدما تكبر (لقد اقترب فصل الربيع فصل بداية كل شيء جميل ونهاية كل شيء حزين قد خيم على قلوبنا فترة لا باس بها من الزمن، فيه تتبدد المشاعر وتفيض الاحاسيس وياتي الالهام مستبشرا انه لم يفت الاوان بعد !) بقي يردد الجملة الاخيرة بين نفسه كثيرا : لم يفت الاوان بعد ! ... هل يُعقل انه لم يفت بعد ؟ وبامكانه اصلاح ما كسره بعصبيته وتسرعه في الحكم عليها ،،، واصل القراءة يقلب ورقات مذكرتها الوردية مع قلبه صفحة صفحة تاخده الذكريات الى تلك اللحظات الجميلة التي عاشاها معا ولا سيما عندما كان بلال معهم،، حتى توقف عند المنتصف بها عبارة قد جعلت فؤاده يعتصر شوقا ويقطر حنينا (الحب غاية يسعى الجميع اليها،، وسبيل تحقيقها يختلف من شخص لاخر حسب اختلاف اهدافهم) مرفوقة بصورة رمزية تعود لاحدهم يقوم باشعال شمعة رومنسية في وعاء صغير جدا من الزجاج،، وفي الصفحة التي تليها صورا عديدة لامهات يحملن اولادهن الرُّضع بكل حب وحنان وبعض العبارات مكتوبة تحت كل صورة بعشوائية على كلتا الصفحتين (شعور الامومة هو اجمل شعور يمكن ان تعيشه الفتاة،، انه بالفعل شعور لا يوصف !! .... كم اتوق لرؤية ابني او ابنتي واحلم باللحظة التي ساحمله فيها الى حضني واقبله على جبينه... ولا زلت احلم باليوم الذي سنتقابل فيه يا طفلتي ويا ملاكي بإذن الله تعالى) خفق قلبه تلك اللحظة وتذكر شعورها يوم مغادرة بلال البيت كيف كان ؟؟ لكنه لم يعد مستغرب فقد بات يعرف تفاصيل زوجته وحبيبة قلبه الصغيرة والكبيرة والان،، اراد ان يغلق المذكرة لكنه توقف عند الصفحة الاخيرة والتي كانت بتاريخ 21 جوان 2018 (ساكتب هذه الليلة عن انسان لم يحصل بعد شرف لقائي به ! او حتى معرفته، ولا ادري ان كان موجود فعلا على هذا الكوكب الكبير ام لا،، اجل ساكتب عن ذاك المجهول الذي طال انتظاري له وانا اقف على اعتاب هذا الواقع لاجل رؤيته، دائما ما كان

يعتريني فضول شديد ناحيتك يا عزيزي ؟ عن شخصيتك ؟ عن عقليتك وعن الاشياء الاحب الى قلبك والعكس ! دائما ما افكر بك بالرغم من انني لا اعرفك ؟ ترى ماذا تفعل انت في هذه الساعة بالتحديد واي الهوايات تفضل ؟ انا بصراحة افضل الرسم ولا ادري ان كان هذا الامر سيسعدك ام سيزعجك ؟؟ احب التامل في السماء ومشاهدة النجوم البراقة التي تحوم بتسلسل منتظم حول الكوكب الفضي،،، اعشق السفر والمغامرة واحب الاجواء الرومنسية خصوصا المشي تحت المطر،، ا تعلم شيئا ؟ ذات مرة عندما كنت في سن العاشرة من العمر اشاهد كرتون جزيرة الكنز اعتراني شغف شديد لفعل هذا الامر وعيش التجربة، اعلم انك ستضحك على تفكيري هذا وربما ستراها تفاهة ! لكن انا لا استطيع ان اكون غير هكذا يا عزيزي،، انت الوحيد الذي اريده ان يفهمني ويفهم ما يخالج تفكيري،، انا لا اعلم عنك اي شيء الان لكن صدقا ارجو ان تكون لي سندا وان تدعمني على مواجهة مصاعب الدنيا ولا تقف ضدي في محابهتي لهذا الواقع الاليم،، وفي الختام يا زوجي المستقبلي ارجو ان تكون حقيقة تعيش على هذا الكوكب وارجو ان يلم الله شملنا ولكن بعد ان انال شهادتي البكالوريا والليسانس وليس الان لانني ما زلت صغيرة على الزواج،، فقط اعتراني فضول ناحيتك فاردت ان اخلق حوارا بيني وبينك لربما اتى يوم وقرات خزعبلاتي هذه وضحكت من اعماق قلبك) اغلق هارون المذكرة وهو يبكي بمرارة يتمنى ان يكون ما عاشه لحد الساعة مجرد كابوس وحسب وسيستيقظ منه، لكن لا هو واقع مع الاسف ولا يدري ان كان سيتخطاه ويصلح ما قام بكسره ام لا، حمل هاتفه واراد الاتصال بها كأمل اخير منه لكن هاتفها مغلق او بالاحرى الرقم الذي يتصل به خاطئ، لقد قامت برمي شريحتها بعيدا وبالغاء تنشيط جميع حساباتها من على منصة التواصل الاجتماعي حتى بريدها الالكتروني لم يفلح في الوصول اليه،، لقد كان عقابها قاسيا جدا هذه المرة عليه جعله يلعن كل شيء بدر منه. اغلق مذكرتها السحرية كما سماها واسند رأسه على الوسادة الحائلة بينه وبين الحائط يستعيذ لحظاته الجميلة مع من ملكت فؤاده،، لقد كان يعلم انها فتاة ذات مخيلة واسعة تعيش في عالم افتراضي هربا من واقعٍ ما قد سلب منها اعز شيء على قلبها،، وقد ادرك هذا جيدا في اليوم الذي عاد فيه الى البيت ما بعد الظهيرة ووجدها على تلك الحالة المثيرة والمضحكة في نفس الوقت...

اغلقتُ المكالمة مع احد الطلاب المسؤول عن الدفعة التي أُدَرس فيها مادة علم النفس، ثم وضعتُ الهاتف جانبا على النحو الصامت واتصلت على مساعدتي حسناء كي تأتيني بملف المريض التالي وتطلبُ منه الدخول الى غرفتي بعدما أُلقي نظرة سريعة على معلوماته الشخصية او حالته...

- تبدو مهموما يا هارون ؟ ا هناك مشكلة تخص زواجك ؟

سألتني حسناء بفضول وهي تقدم لي ملف المريض ترمقني بنظرات تابثة ذات مغزى كبير استطعت قرائتها في عينيها العسلية جيدا، اخدت منها مرادي ثم اجبتها بفتور اتحاشى الجدال معها :

- اولا تقولين حضرة الطبيب زعيم ! وثانيا والاهم من هذا يا حسناء اننا لم نعد كالسابق، ولم تعد تربطنا علاقة خارج عن نطاق العمل، لهذا مشاكلي الشخصية لا تهمكِ ابدا على ما اعتقد !

- حسنا، كما تشاء حضرة الطبيب زعيم،، لقد اردتُ ان اكون لطيفة وحسب !

- ليس علي هذه الحركات

- هل اطلب من المريض الدخول ؟

- اذا لم يكن لديكِ مانعٌ طبعا !

غادرت الغرفة تستشيط غضبا على معاملتي الباردة ناحيتها بعدما كنت اراها اعز انسانة على قلبي،، لكن كما يقولون دوام الحال من المحال؛ والخطأ مني انني خطوت معها في طريق كنت على دراية تامة بنهايته كيف ستكون،، تنهدت بضيق على ما سببته لها من الآم هي في غنى عنها، ثم استعدت رباطة جأشي سريعا لاجل لقاء مريضي، الذي دلف الغرفة بعد ثواني معدودة بعيون مترددة تشهد حالة هيجان من مد وجزر بامكانهما اغراق قارة افريقيا باكملها،، جلس الشاب العشريني قبالتي يتفحص المكان بعيون جاحظة يمينا ويسارا ثم ما لبث كثيرا حتى قال بنبرة هادئة :

- هل أُعتبر مجنون لانني لجأتُ اليك حضرة الطبيب ؟

صراحة استغربت سؤاله كثيرا ولم يسبق لمريض ان سألني مثل هكذا سؤال من قبل، ابتسمت بعفوية بيني وبين نفسي واجبته وانا احمل مدونتي وقلمي الجاف :

- اسمك عبدالعالي سلّومي ؟ تناهز من العمر 22 سنة ؟

- اجل، ولكن ما علاقة هذا بسؤالي حضرة الطبيب ؟

- اسمعني يا عبدالعالي !! ان تلجأ لطبيب نفسي ليس معناه انك مجنون

- اذا ماذا ؟

- اولا قل لي هل اتيت للعلاج بمحض ارادتك ام هناك من اجبرك ؟

سكت المريض قليلا يفكر بينه وبين نفسه برهة زمنية لا بأس بها ثم رفع راسه من جديد ناحيتي وقال :

- بصراحة امي من دفعتني لهذا ؟

- والسبب ؟

- لانني منعزل عن الجميع وتستهويني افكار غريبة يقولون عنها افراد عائلتي انها مجنونة مثلي تماما

- العزلة ليست شيء سيء؛ لكن كما تعلم اذا زاد الشيء عن حده انقلب الى ضده،، ثم ما هي هذه الافكار التي تستهويك ؟

- مثلا ذات مرة بينما كنا نتناول العشاء اخبرت امي انني ارغب في القيام برحلة الى الصحراء تحديدا الطاسيلي لاجل الاكتشاف والمعرفة، فلم اشعر الا بالجميع يسخر مني وقال لي والدي عندها انني غريب الاطوار بالفعل مثل عمي ميلود رحمه الله

نفس الداء ونفس الاعراض تنتشر من فرد لاخر مخلفة مجتمعا منغلق لا يفقه اي شيء،، تنحنحت بخفوت ووضعت مذكرتي جانبا ثم قلت له :

- هذا ليس شيئا جديدا يا عبد العالي،، فهناك الالوف مثلك من تستحوذهم مثل هذه الافكار التي يراها معظم الناس مجنونة لانها تخالف عرفنا ولا تتماشى مع عاداتنا وتقاليدنا،، انت لست مجنون على العكس اراك طبيعي، لكن اهلك يرونك غريب الاطوار لانهم يختلفون عنك في التفكير، وبطبيعة الحال اذا وضعت حبة طماطم في صندوق مليئ بحبات البطاطا فسيرونها غريبة الاطوار عنهم، هي ليست مجنونة لكن البيئة من فرضت عليها ان تُرى بتلك النظرة

- اجل، صدقت... والله معك حق، وكيف لي ان اقنعهم بانني انسان طبيعي ؟

- لن تستطيع اقناعهم فارضاء الناس غاية لا تُدرك،، اذا ما وجدت افعالك وتصرفاتك لا تضرهم بشيء فافعل ما تراه انت مناسبا ودون ان تاخذ باذن احد، اما اذا كان العكس فعليك اعادة النظر في تصرفاتك فالبنهاية هم اهلك يا سيد عبد العالي

- تريد القول ان احتفظ بافكاري لنفسي طالما لن استفيد شيئا من بوحها لهم ؟

- بالضبط،، على ما اعتقد اصبحت تعلم طبيعة اهلك وتفكيرهم كيف يكون ؟ ناقشهم في الاشياء التي يفقهون فيها ويبادلونك فيها نفس وجهات النظر والباقي احتفظ به لنفسك وحسب

- شكرا لك لقد بدات الامور تتوضح لي،، هل استطيع تقييد موعد الى اشعار آخر ؟

- بالطبع مساعدتي حسناء ستتكفل بالامر

- اراك الموعد القادم اذا

- مع السلامة.

غادر المريض الغرفة، وعدتُ انا الى سرحاني في تلك التي تجلس في البيت وحيدة ومنعزلة عن العالم والناس،، كانت حصة اليوم هي الحصة الثالثة لها في العلاج النفسي وقد بداتُ ارى انها تستجيب للعلاج رويدا رويدا، لكن مع ذلك لا يجب علي تركها بمفردها ابدا فقد تاتيها افكار شيطانية من جديد وتفكر في الانتحار مرة ثانية،، رفعت راسي ناحية الساعة المعلقة في الجدار فوجدتها الواحدة والنصف زوالا،، حملت هاتفي واتصلت عليها اطمئن عن حالتها فلم استطع الوصول اليها، لا اعلم ان كان هاتفها مغلقا ام خارج نطاق التغطية، لا ادري لما لحظتها شعرت بالخوف واعتراني احساس غريب اجهل كينونته،، بسرعة قمت من مكاني وطلبت من حسناء ان تلغي الموعد الاخير الى اشعار لاحق وتغلق العيادة لانه طرأ لدي امر ضروري، ثم ادرت مقود السيارة وانطلقت بسرعة الى المنزل تاخدني الافكار السلبية تارة وتعود بي تارة اخرى، بعد ربع ساعة من الطريق وصلت اخيرا، ودقات قلبي تكاد تخترق جداريات قفصي الصدري، ترجلت من السيارة بعدما ركنتها قرب الرصيف واستعجلت في خطواتي متجاهلا نداء امي التي صادفتها في الحديقة الامامية للمنزل تقوم بري نبات الصبار، اقصد الدرج للاعلى، ادرت المفتاح ثلاثة مرات ودلفت الى الداخل انادي على ريان باصوات مضطربة ألتفتُ يمينا ويسارا ناحية غرفتي التي كان بابها مفتوحا على مصرعيه والمطبخ الذي كان خياليا من اي حركة،، بعدها تقدمت بخطى ثابتة ناحية غرفة المعيشة لاتفاجئ بذلك المنظر الذي اوقف مجرى الدم في شراييني،، كانت تجلس على الكرسي لطاولة غرفة الطعام تُحيط بها اوراق بيضاء مرمية بعشوائية بعضها عليه رسومات فساتين نسائية واخرى بدلات رجالية، والبعض الاخر لوحات فنية لحدائق الزهور ان لم يخب ظني فهي زهور التوليب القرمزية والارجوانية،، كانت تضع راسها على احد الرسومات التي يظهر منها شعر فتاة يتطاير في الهواء، تنام بوداعة لدرجة انها لم تشعر بوجودي وانا اطالعها بشوق وولع،، كان هذا المنظر بالنسبة لي اجمل من منظر غروب الشمس، لدرجة انني تمنيت لواحظى بعناق طويل معها انسى به كل مشاكل الدنيا، ابتسمت بيني وبين نفسي على بساطتها وعفويتها ودنوتُ منها احاول معها ان تستيقظ وتذهب الى فراشها كي لا تتشنج رقبتها، لكنها لم تستجب لي ابدا غارقة في دنيا الاحلام خاصتها بطريقة تسر الناظرين اليها، كانت تصدر همهمات وكلمات غريبة غير مفهومة لم اعقلها، تلك اللحظة لم تترك لي خيارا اخر سوى ان احملها الى غرفتي كي ترتاح في النوم اكثر، فيبدو ان اعمال البيت انهكتها لدرجة انها لم تشعر بنفسها وهي تنام على الكرسي فوق الطاولة،، شعرت بقشعريرة سرت في انحاء جسدي لحظة امساكها لمرفقي تطلب مني مشاركتها النوم والسفر الى عالمها الوردي، ولكَمْ اردت ذلك عندها وبشدةٍ ايضا، لكن عندما اتذكر ما فعلته بها تلك الليلة وانها لا تقول هذا من ادراكها بل من للاوعيها، تراجعت عن رغبتي في تلبية طلبها وابتعدتُ عنها بهدوء اطالع تفاصيل وجهها البريئة، التي جعلتني احبها رغما عني واعشقها حد النخاع.

استفاق هارون من موجة حنينه لها وقام مكانه بصعوبة واثار الحادث مسيطرة على جسده، يقصد الحمام كي ينعش نفسه بماءه الساخن ويحاول التفكير في طريقة تُمكنه من استرجاع ما فقده بسبب حمكه المتسرع.

***

بعد مرور اسبوع...

دلف هارون الى العيادة خلال الواحدة زوالا؛ بعدما انهى محاضراته في الجامعة وقصد مطعم داوود باشا لاجل تناول الغذاء مع احد اصدقائه وزملائه في العمل بعد الحاح شديد منه،، وجد اسماء تجلس مكانها تتكلم على الهاتف مع احد المرضى لاجل تقييد موعد، فلم يقاطعها وانتظرها حتى تنهي حديثها الذي دام دقائق معدودة، بعدها وضعت الهاتف التابث جانبا وقامت مكانها تلقي التحية عليه مرفوقة بملف المريضة الاولى التي تجلس في قاعة الانتظار قبالتهما تطالع احد المجلات، تخبره عن باقي التفاصيل بخصوصها،، كانت المريضة غاية في الجمال تبدو في عقدها الثالث من العمر، ترتدي تنورة سوداء من القطيفة تصل حتى كعبي قدميها مع قميص من الصوف رمادي باكمام طويلة عليه احرف باللاتينية لم يميز ما معناها جيدا، وحذاء شتوي بكعب متوسط به سحاب على الجانب الايمن، ترفع شعرها البني الممزوج في شكل قصة ذيل الحصان تاركة بعض الخصلات تتدلى على جانبي وجهها من الامام،، تقدم هارون ناحيتها وامرها ان تتفضل بلطف الى الداخل كي يرى في امرها، حيث لبت الاخيرة طلبه بابتسامة شبه معدومة ارتسمت على شفتيها الكرزية وسارت بخطى بطيئة ومترددة نحو الداخل يعتريها احساس غريب لا تدري كينونته،، اثار انتباهها ديكور الغرفة كثيرا وصارت تلتفت يمينا ويسارا تتفحصه باعين جاحظة،، بعدها جلست على كرسي خشبي من الجلد قبالة الطبيب وقالت باهتمام :

- ديكور غرفتك مثير، لقد اثار استحساني على حين غرة حضرة الطبيب !

ابتسم الاخير ناحيتها يتذكر بدوره شيئا مشابها مر على مسامع اذنيه ثم اجابها وهو يحمل مدونته الجلدية وقلمه الجاف :

- اذا يا انسة ؟ اسمك وكنيتك لو سمحتِ ؟

- ريان سعدي 25 سنة

شعر هارون بدقات قلبه تخترق جداريات قفصه الصدري وكاد ان يفقد توازنه لوهلة من الزمن، لكنه تدارك ذلك بصعوبة محاولا الابتعاد عن تلك النقطة قدر المستطاع ...

- ما سبب لجوئك الى طبيب نفسي ؟

سكتت الفتاة قليلا وقد بدا الحزن على ملامح وجهها اعتاد هارون رؤية مثله في وجوه مرضاه، ولم يعد هذا جديدا عليه...

- انت تعلمين ان الصمت لن يفيدك بشيء !

- لا اصمت بسبب حزني حضرة الطبيب، بل لانني لا اعلم كيف ابدا بسرد تفاصيل مشكلتي العويصة ؟

- من البداية لو سمحتِ

- لقد كان كل شيء بخير، اعيش في كنف عائلة ثرية وانا الابنة الوحيدة لاربعة شبان، مدللة ابي واي شيء ارغب به ياتيني على طبق من الماس،، لدي سيارة وهاتف وثياب على اخر موضة، اسافر كثيرا وكل عطلة اسبوع اقضيها في ولاية ما او بلد ما، حتى اتى ذلك اليوم المشؤوم

توقفت الفتاة عن الكلام وترقرقت عيناها العسلية بالدموع التي انسابت منهما لا راديا، بعدها واصلت حديثها بعد ان اخدت شهيقا وزفيرا :

- اتى يوم واعلن ابي عن افلاسه وخسرنا كل شيء نملكه في لحظة غير متوقعة، بعدما تم اتهامه بتبييض الاموال وبالتعامل التجاري الغير قانوني قد دخل جرّاءهما السجن، وهو في انتظار جلسة المحكمة التي ستحدد مصيره، اخي الاكبر حاتم كان دراعه الايمن في العمل تمكن من اثبات برائته بصعوبة من كل تلك التهم وقد اصدرت المحكمة عفوا بحقه مع غرامة مالية كبيرة تتراوح بين 20.0000 دينار، بين عشية وضحاها انهار عالمنا الوردي وصار اسودا قاتما،، شقيقي التوام اللذين يصغرانني بسنيتن غادرا البلد الى كندا لاجل انهاء الدراسة وقد وجداها فرصة للهرب، اما اخي رامي الذي يكبرني باربعة اعوام فقد ذهب الى ورقلة الى صديق له هناك يعمل في مجال الطاقة الشمسية؛ وقد قرر ان يبدأ حياته من جديد تاركا كل شيء خلفه،،، بقينا انا واخي حاتم وامي فقط التي صارت طريحة فراش بسبب ارتفاع الضغط جرّاء المصيبة التي هلت علينا من العدم نعيش في شقة بالية بالكراء في احياء PLACE D'ARM المدينة القديمة

- وماذا حدث بعدها ؟ كيف باتت حياتك على الوضع الجديد ؟

- تركت دراستي عند مرحلة الثانية الليانس اختصاص ارطوفونيا ودخلت في اكتئاب حاد بعدها لمدة اربعة اشهر، تخليت عن الناس عن المجتمع الراقي الذي كنت اعيش فيه بعدما هجروني اصحاب الطبقة المخملية؛ ولم يعد لي أي صديق، صرت فتاة اخرى تماما لا ترجو شيئا سوى الموت، وقد حاولت الانتحار مرارا لكن تم انقاذي دائما في اللحظة المناسبة، ولانه لم يبقى أي خيار اخر الّح علي شقيقي ان الجأ الى طبيب نفسي

بعد ان استمع هارون لمريضته، دون كل شيء يخصها باهتمام ثم وضع قلمه جانبا وقال لها :

- اتفق معك ان ما مر على راسك كان ثقيلا،، فليس من السّهل على الانسان ان يغير نمط حياته بين ليلة وضحاها ويُمسي في القاع فجاة بعدما كان في القمة، لكن عليك ان تدركي ان اللذين تخلوا عنك في اصعب ايام حياتك لم يحبوك بصدق من الاساس، جمعتهم بك مصالح مشتركة وما ان انقضت تلك المصلحة تخلوا عنك ورموك بعيدا عنهم

- اساسا هذا ما احزنني حضرة الطبيب

- على العكس آنسة سعدي، انت هكذا تخلصتِ منهم، فما حاجتك باشخاص منافقين يحبونك لاجل مصالحم الشخصية ؟

- لكن انا خِلت انهم ليسوا هكذا حضرة الطبيب لقد كانت خيبة امل بالنسبة لي ما مر علي ؟

- وهل تظنين ان الحياة ستكون بصفك على الدوام ؟ انت مخطئة في هذا ؟ فهي ستصف بجانبك تارة وستكون ضدك تارة اخرى ... لن تعيشي هذه الحياة دون عراقيل يا انسة والا ما ستواجهي مصاعب في حياتك كي تاخدي منها دروسا وعبر

- وما هي العبرة التي ساخدها من افلاسنا ؟

- انت من ستكتشفين هذا بعد مرور الايام واستعادة ذاتك من مستنقع الظلام الذي سمحت له ان يسحبك اليه... عموما ستكون لنا حصصا عدة نكتشف فيها ما تخبئه الايام لك

- شكرا لك حضرة الطبيب، اذا لقاؤنا في الموعد القادم ؟

- باذن الله... بالمناسبة لدي دعوة الى قصر الثقافة لاجل حضور امسية ادبية، اذا لم يكن لديك عمل بامكانك القدوم ايضا؛ ستبدا على الساعة الثانية زوالا والدعوة عامة ايضا !

- هل هذه من ضمن اساليب العلاج ؟

- تستطيعين قول ذلك

- سارى في الامر حضرة الطبيب

غادرت المريضة تاركة اياه بدوره غارق في حزنه على فراق حبيبة قلبه التي يجهل مكانها حد الساعة،، انقض اسبوع كامل عليه بلمح البصر ولم يترك فيه مكانا ولم يبحث عليها فيه،، توسل عائلتها كثيرا من زوجة خاله وسليم وفادية ان يخبروه بمكانها كي يستعيدها، لكن من دون فائدة بعضهم يقول انه لا يعرف اقامتها والاخر اخد وعدا منها وليس بامكانه ان يخلف بوعده،، طلب المساعدة من صديقه محمد الذي يعمل في مركز الشرطة لاجل البحث عنها، لكن عبث وكأن الارض انشقت وابتلعتها، صارت حياته بدونها مثل الماء تماما، لا طعم ولا لون ولا رائحة، خالية من أي حركة اعتادها منها او حيوية، وما كان يزيد الطين بلة هو ذكرياته معها التي باتت تحوم فوق راسه لا تنفك عنه ابدا،، حنينه اليها يزداد يوما بعد يوم ولا يصدق متى يعثر عليها ويضمها اليه بقوة عاقدا العزم ان لا يتركها مرة اخرى،، في ظل تلك الاثناء رن هاتفه الخاص بالمكتب تخبره اسماء ان سليم عبدالله اتى لمقابلته لاجل امر ضروري، استعاد رباطة جاشه وطلب منها ان تسمح له بالدخول، اذ ما هي الا دقائق ودلف عليه المكان يلقي التحي بنوع من البرود لاحظه هارون جيدا، فبالنهاية ريان شقيقته وقد كان هو معارضا لفكرة زواجها منه من البداية،، جلس سليم قبالته وقال بحزم :

- لن اطيل الكلام اكثر يا هارون وسادخل في صلب الموضوع

- تفضل ! كلي آذان صاغية

- لقد اتصلت ريان بي امس وطلبت مني ان ابدا في اجراءات طلاقها منك قانونيا؛ كما انها مستعجلة على الامر كثيرا، وقد اِرتأيتُ ان اخبرك اولا قبل ان أُباشر بالاجراءات !

اغمض هارون عينيه بالم لا يصدق انها ترغب في الانفصال عنه وبهذه السرعة..

- لكن انا لا اريد الانفصال عنها، اعترف انني اخطأت بحقها وظلمتها بحكمي المتسرع، لكنني تداركت الامر واريد العدول عنه، ثم لقد اعدتها الى ذمتي تلك الليلة وهي لا تزال زوجتي امام الله وامام القانون

- هارون انك تصعب الامور وحسب، ريان لا تريد الاستمرار في هذا الزواج وحتى ابي بعد الذي فعلته معها ترك الاختيار لها في تقرير حياتها وقال انه لن يتدخل مجددا

- كما قلت لك يا سليم انا لن اتراجع عن قراري، ساواصل البحث عنها وساجدها واعيدها الى البيت رغما عنها ايضا، واذا اتصلت بك قل لها انها لا زالت زوجتي بالقانون وان لا تتعب نفسها بالانفصال، فمآلها إلي عاجلا ام اجلا

ابتسم سليم ناحيته بعدما كان منزعجا منه بسبب تصرفه مع شقيقته ثم اجابه :

- فهمت عليك يا ابن عمتي، اذا ما المطلوب مني ؟

بادله الاخر ابتسامة عفوية واردف نحوه :

- ان لا تاخد بكلامها حول اجراءات الطلاق على محمل الجد،، ودع الباقي لي اذا سمحت ؟

- حسنا كما تريد؛ اساسا انت زوجها ولا يحق لي الدخول بينكما، لقد اردت سماع منك هذا يا هارون، والتاكد بنفسي انك ما زلت متمسك بريان

- شكرا لك يا سليم انا احب شقيقتك كثيرا ولن اتخلى عنها ابدا ما حييت

- فهمت... اللقاء

- مع السلامة

بعد ان غادر سليم المكتب عادت الفرحة تتسلل قلب هارون وحلق الامل فوق راسه من جديد بخصوص اجتماعه بحبيبة القلب التي عاقبته بطريقة قاسية جدا،، تلك اللحظة دلفت عليه اسماء تساله باستفسار عن سبب زيارة شقيق زوجته الى المكتب ...

- لا شيء انه بخصوص دعوة الطلاق

- وهل ستتخلى عنها بالفعل اخي هارون !!!

- لا هذا مستحيل، لقد اخبرت سليم اساسا انني لن اطلقها وساعيدها الى البيت رغما عنها

تنهدت اسماء باريحية واردفت من جديد...

- لقد ارحتني بقولك هذا ارجو ان يمُن الله عليكما بالشمل قريبا؛ فانتما تستحقان العيش بسعادة

- ارجو هذا يا اسماء،، المهم لا تقيدي لي أي موعد الان لانه يجب علي المغادرة لحضور حفل تسليم الجوائز الخاص ببلال

- هل فاز بمسابقة الرسم ؟

- اجل وقد احتل المرتبة الاولى ايضا، اتصل بي السيد حمادو قبل يومين واخبرني ان بلال في انتظار قدومي انا وريان

- وماذا ستفعل بهذا الخصوص ؟

- ساتدبر الامر، لا يوجد خيار اخر عزيزتي اسماء

- بالتوفيق حضرة الطبيب.

***

كان قصر الثقافة محمد بوضياف لمدينة عنابة يشهد حالة حشد غفير من الناس في القاعة الخاصة بالمحاضرات والنشاطات المختلفة من طرف نوادي وجمعيات الولاية،، وقد كان الثالث من ديسمبر هو اليوم العالمي للمعاقين اقاموا لاجله امسية جميلة من الثانية زوالا وحتى الخامسة والنصف مساءا للاحتفال باولئك البراعم، وشحنهم بجرعات الامل والتفاؤل كي لا يستسلموا ويحاربوا لاجل تحقيق احلامهم وطموحاتهم، فهم مثلنا ايضا قد اوصى عليهم ديننا الكريم ومن واجبنا ان نعاملهم باخلاق وطيب خاطر كما اوصانا رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم. وصل هارون حوالي الساعة الثالثة الا ربع وقد فاتته فقرة تثقيفية لمجموعة من الشباب الطموحين من نادي سفراء الادب والفنون قاموا بالقاء ابيات شعرية واخرى خواطر راقية تخص هذه المناسبة الجليلة،، كما ان احدى عضوات جمعية الاقلام الحبرية قامت بتقديم بعض المساعدات المادية من هدايا والعاب بدعم من والي البلدية لاجل ادخال الفرح لاولئك الصغار بنات وفتيان،، بعدها تمت مداخلة قام بها شاعر كبير واستاذ جامعي معروف لم يسمع به هارون من قبل باعداد مسرحية جميلة وتحفيزية تحت عنوان (الاعاقة ليست عذر) كان قد شاهدها بعد بدايتها بخمس دقائق تقريبا، وقد شدّت انتباهه تلك الفتاة الصغيرة التي لم تبلغ الحِلم بعد وهي تؤدي دور فتاة مصابة بالعمى لكنها استطاعت ان تتخطى العقبات وتحطم الرقم القياسي في العزف على البيانو... صار هارون يبحث عن بلال في شتى الاتجاهات في وسط ذلك الزحام، كما ان القاعة كبيرة جدا وليس من السهل ان يجد ضالته، وكانه يبحث عن ابرة في كومة قش،، انتبه لحظتها على احدهم يمسكه من يده اليسرى فالتفت بانتباه ليجده صغيره الذي لطالما تمنى ان يكون والده الحقيقي،، اخده اليه بالاحضان معبرا عن الشوق والحنين اليه فله مدة لم يره فيها، ثم سأله عن حاله ان كان بخير ام لا،، لم يتمكن هارون من الحديث معه باريحية بسبب الضجيج فاخده خارج القاعة الى الرواق الذي يؤدي الى قاعة الرقص وانخرط معه في الاحاديث حول شتى الميادين، وقد ساله ايضا عن علاقته بابيه وان كانت الامور تسير على خير ما يرام ام لا،، كان بلال يجيبه على حسب السؤال دون اضافة شيء او المبالغة، حتى انتبه لغياب ريان فساله عنها بعد ان انهى الاخر حديثه معه، اعتلا الحزن ملامحه ولم يعرف لحظتها ماذا يقول، وقد كاد ان يتكلم لكن صوت السيد حمادو حال دون ذلك وهو ينادي على

بلال والخوف بادي على وجهه، تقدم نحوهما وعانق ابنه بحرارة لدرجة جعلت هارون يستغرب تغييره هذا ناحيه ولده...

- انا اسف سيد رابح هذا خطئي، اخرجته دون اخد اذنك !

رفع الاخر راسه ناحيته ومد يده لاجل مصافحته مردفا :

- لا عليك، الحق علي لم انتبه له عندما قام مكانه

- لقد اخبرني بلال ان علاقتكما بدات تتحسن كأب وابنه

- اجل،، الحمدلله لقد بدا يعتاد على وجودي في حياته كما بدات اعتاده انا ايضا؛ وكذلك اصبح اخا رائعا لنور ولا احد يهتم بها مثلما يفعل هو

- سررت لاجلكما وارجو ان تكونا على هذا القدر من السعادة دائما

- شكرا لك... بالمناسبة اين زوجتك لا اراها بجانبك ؟ خلت انها متلهفة للقاء بلال !

- هي مريضة قليلا وقد تعذر عليها القدوم؛ انها تاسف كثيرا للامر وتتمنى لبلال كل التوفيق في الرسم

- اوه، عليها العافية،، على كل فلندلف الى الداخل لم يبقى وقت على تسليم الجوائز

- حسنا

بعد تلك المسرحية الجميلة والتي اذهبت عقول الجميع بثمتيل تلك الصغيرة، تمت مداخلة اخرى لكاتبة روائية وشاعرة ايضا من نادي فكرة؛ تكلمت فيها عن الاطفال المعاقين وذوي الاحتياجيات الخاصة وقدمت نصائح للامهات والى الاقارب وحتى اللذين يضطرون للتعامل معهم ان يتركوا انانيتهم وتكبرهم على الوضع الصّامت وليقدموا المساعدة دائما لمن هم اضعف منهم، فالسّعادة ليست بشراء فساتين جميلة ولا حتى الذهاب في رحلة خارج البلاد او اكل ما لذ وطاب من الاطعمة الشهية والولائم،، بل السّعادة الحقيقية موطنها القرآن وكل ما ينص عليه ديننا الحنيف في مساعدة اليتيم واطعام المسكين،، وقد كان هارون يرى اهتمام مريضته ريان سعدي بالامر كثيرا التي اتت للتو وجلست بجانبه، لدرجة ان عيناها إغرورقت بالدموع...

- هذه اول مرة تحضرين فيها لامسية ثقافية ؟

التفتت ناحيته باعين دامعة وقالت :

- صدقني لقد شعرت وكأنني وُلدت من جديد حضرة الطبيب، اشكرك جدا على احضارك لي الى هنا

- لا داعي للشكر هذا احد واجباتي تجاه مرضاي وسافرح، كثيرا اذا تمكنت من مساعدتك

- لقد عرفت لما الناس يمدحون اسلوبك؛ والصراحة معهم حق

بعد ان قالت تلك الشاعرة كلماتها الاختتامية بمناسبة هذا اليوم العالمي، تقدم المسؤول عن الحفل وقام بتتويج الفائزين بمسابقة الرسم بالميدالية الذهبية لصاحب المرتبة الاولى التي كانت من نصيب بلال، حيث وجد صعوبة في الصّعود على الدرج نحو منصة الاستيلام وكاد يعود ادراجه تحت انظار المدعوين المتفاجئين بامره، لكن امساك هارون له من معصمه وجره خلفه الى هناك بلطف اعاد له ثقته بنفسه وتقدم بخطى ثابتة يستلم جائزته بكل روح رياضية؛ يُثبت للجميع انه حتى لو كان مصاب بطيف التوحد فانه يستطيع النجاح بهواياته، وخصوصا والده الذي انكره بسبب هذا الامر، بات الان فخورا به ويحمد الله ان له ولدا مثله.

***

في مكان ما من هذه البلاد الكبيرة وفي احد المجمعات السكنية الخاصة بالآجار، ارتمت ريان على سريرها بعد هذا اليوم المُتعب في العمل في احد المطاعم الفاخرة التي تقع على السّاحل الغربي،، حملت هاتفها وشغلت اتصالها بالشبكة تتصفح موقعها الجديد الخاص بالفيسبوك كمضيعة للوقت قبل ان تخلد الى النوم،، كانت تُشاهد مقطع فيديو مضحك لفتاة صغيرة تداعب كلبا اسود تركض وراءه من بقعة لبقعة وهو يفر هربا منها كلما ذهبت اليه،، بعدها صارت تتلذذ وتتشهى بعدما مر عليها مقطع فيديو اخر لتشيز كيك بالفراولة، خصوصا انها في بداية الشهر الثاني من حملها وفي فترة وحمها؛ لم تترك شيئا الا وقد ذاقت طعمه بسبب

شهيتها المبالغ فيها في الاكل،، بقيت على حالها تمرر اصبع سبابتها على شاشة هاتفها تطالع اخبار النجوم والفنانين من مجلة سيدتي ومجلة بانوراما، حتى توقفت عند منشور قد تم نشره منذ اربعة ساعات على صفحة وزارة الفنون والثقافة لولاية عنابة، تلك اللّحظة خفق قلبها بصورة رهيبة وتعالت وتيرة تنفسها وهي ترى صورة حبيبها بجانب صورة بلال يمسك بميدالية ذهبية،، وقد ادركت عندها انه فاز بمسابقة الرسم التي اقامتها الولاية، واحتل المرتبة الاولى ايضا لعلمها ان الميدالية الذهبية تُقدم لصاحب تلك المرتبة فقط،، ترقرقت عيناها بالدموع وصارت تبكي بشراهة تتذكر ايامها الجميلة التي قضتها في كنف زوجها وحبيبها، ومغامراتها في تلك السياحة الجبلية وعند الشاطئ ايضا،، تذكرت عندما باغتها بقبلة لاجل اسكاتها وقد كانت اول قبلة بينهما، كذلك مرت على ذهنها تلك الليلة التي شاهدت فيها فيلم الرّعب the conjuring وكيف ظهرت امامه على انها تتودد اليه....

بعد ان انهيتُ عمل اخر تصميم لي لاجل ارساله الى مدرسة الفنون في كندا شعرتُ برغبة شديدة في مشاهدة فيلم رعب اتسلى به قليلا هذه الليلة، كان هارون قد انهى عمل محاضراته في المكتب وقد تسلل الى الفراش دون ان يتكلم معي حتى او نتجاذب سويا اطراف الحديث،، القيتُ نظرة خاطفة على غرفة بلال فوجدته ينام بوداعة يعانق ارنوبه ذا الاذنين الطويلتين، تافتتُ بضجر فقد سبق ووعدني ان نشاهد فيلم رعب معا لكنه كالعادة دائما ما يخلف بوعده بسبب حجته المعروفة انه بات يتعب كثيرا في الآونة الاخيرة،، لم اكثرت بالامر كثيرا وعقدت العزم على ان اشاهد الفيلم بمفردي، احضرت الفوشار والعصير والشوكولاطة في شكل قطع صغيرة من المطبخ ووضعتهم فوق الطاولة امامي بعدما ازحت تلك القطعة الاثرية، ثم شغلتُ التلفاز وقمت بايصاله بشبكة الانترت كي افتح موقع ايجي بيست، بقيتُ برهة زمينة محتارة في اي فيلم اشاهد فقد سبق وشاهدت الكثير منهم ولم يعد هناك جديد،، حتى انتبهت الى اشعار ينص على احدث الافلام الامريكية المرعبة من بينهم the conjuring الجزء الاخير، بسرعة وضعته قيد المشاهدة وقمت باغلاق الانوار مستمعة بتناول الفوشار والشوكولاطة احاول اقناع نفسي انها مشاهد تمثيلية وحسب ولا يوجد منها على ارض الواقع،، لكن ما زاد الطين بلة هو ان تلك القصة حدثت بالفعل ومبنية على احداث حقيقية،،، اللّعنة فقط لما انجرفتُ وراء حماسي الزائد وشاهدت هذه المقاطع المرعبة، كنت اظنني شُجاعة ولا اخاف لكن اتّضح العكس،، لم يمضي ساعة على مشاهدتي الفيلم وبتُ اتخيل اشخاص معي في غرفة المعيشة وفي الرواق ايضا، وكذلك اصبحت اسمع اصوات قادمة من المطبخ،، يا الهي هكذا لن استطيع اكمال الفيلم، احسن شيء اقوم به هو ان اغلق التلفاز واذهب للنوم كي لا ارى شبحا امامي الآن،، بسرعة تركتُ كل شيء كما هو وغادرت الى غرفة النوم اتسلل الى الفراش خيفة وبهدوء كي لا اوقظ هارون فلا اسلم من لسانه وتوبيخه بعدها، وضعتُ راسي على وسادتي كي انام؛ لكن عبث تلك الاصوات لم تترك ياقتي وصارت تقترب شيئا فشيئا مني وحتى النوم لم يجافيني؛ يا الهي ماذا افعل الآن ؟

الحق علي ما كان يجب ان اشاهد فيلم رعب بمفردي ماذا اخال نفسي ؟ تنفستُ بعمق احاول طرد الوساوس عن راسي بعدها التفت ناحية هارون وامسكت بدراعه بقوة واستسلمت للنوم، لكن من دون جدوى ايضا، لا ادري لما اشعر وكأن احدهم يقف عند راسي،، هذه المرة لم اقاوم اكثر وقمت بعناقه ارتمي الى حضنه بقوة لدرجة انني ازعجته وايقظته من نومه، فرك عينيه بنعاس وشغل ضوء المصباح الليلي يسألني قائلا بفضول :

- ما بالك هذه الليلة ؟

- لا شيء فقط اشعر وكأن احدهم يقفُ عند راسي

بقي يطالعني ببلاهة لا يستوعب الكلام الذي قلته له للتو ...

- ريان ارجوك انا متعب واحتاج للرّاحة،، وليس لي وقت لتوددك الان

شعرتُ لحظتها بالدماء تفور في راسي خصوصا انه ظن بي شيئا اخر، اجبته لحظتها بانفعال زائد

- انا لا اتودد اليك ايّها الاحمق،، انني اقول الصّدق حقا.. انا خائفة جدا يا هارون

- من ماذا ؟

- من the conjuring

- ماذا قلت !!!

بعدها تذكر انني سبق واخبرته انني اريد مشاهدة فيلم رعب معه حيث ضحك بخفوت على حالتي وضمني اليه مطمئنا إياي انه لا احد بالغرفة ما عدانا نحن الاثنان.

افاقت ريان من موجة الحنين تعيد تُرتيب الاحداث التي جرت معها مؤخرا، وكيف سارت الامور ناحيتها بشكل سيء جيدا؛ فقد كانت على وشك اخباره بحملها ومفاجئته، لكن وائل اللّعين وتلك الشقراء خرّبا كل شيء عليها؛ وهي الان وحيدة هنا تشتاق اليه وفي نفس الوقت غاضبة منه لانه طلقها دون ان يصدق كلامها،، تذكرت ايضا عندما قامت بتوضيب اغراضها وترك المنزل نظرات سهام القاتلة نحوها وهي تنتظرها اسفل الدرج حيث استوقفتها بمكر وقالت تبث بسمها ناحيتها...

- لقد توقعت هذا منك يا ابنة فاطمة وانا جدُ سعيدة بحدوثه؛ لانني واخيرا تخلصت منك وحدث ما كنت اتمناه من هذا الاقتران الذي تم خارجا عن سيطرتي،، وسعادتي الاكبر هي انه ليست لي يد في الامر، تحققت امنيتي دون ان أُحرّك ساكنا.. آه يا ليتني تمنيت شيئا آخر

لم ترد ريان الرد على كلامها بل غادرت بصمت مرير تجر خيبتها التي قضت على اخر امل تبقى لها،، تقصد محطة الحافلات للذهاب بعيدا وترك كل شيء وراءها كما تمنت هذا دائما.

***

اشرقت شمس اليوم على ريان التي استيقظت بحيوية ونشاط تستعد للذهاب الى عملها، فوجئت هذه المرة بشذى قد استيقظت قبلها هي وإيلين على غير العادة تقوم باعداد الفطور على طريقتها التركية مما فتحت الشهية على قلب ريان التي جلست على الطاولة مباشرة دون حتى ان تلقي تحية الصباح عليها...

- لما انت في عجلة من امرك لن يهرب الطعام بعيدا ؟

وضعت ريان قطعة الطماطم الكرزية في فمها مرفوقة برشفة من عصير التوت واجابتها :

- ان شهيتي في الاكل تزداد يوما بعد يوم يا شذى

جلست الاخيرة بجانبها بعد ان وضعت ابريق القهوة فوق الطاولة وقالت وهي تقوم بطلي الزبدة على خبز التوست :

- هذا طبيعي فانت حامل وفي شهرك الثاني !

- انني خائفة ان يزداد وزني اضعاف مضاعفة

ابتسمت شذى ناحيتها بعفوية وقالت :

- المهم ان يأتي بصحة وعافية

- امين ان شاءالله

تلك اللحظة اقبلت إيلين تتثائب نحوهما مستغربة من استيقاظ شذى في هذا الوقت بعدما اعتادوا على تاخرها في النوم لحد العاشرة، وقد سالتها بفضول تسند الكرسي وتشاركهم في الاكل ....

- خيرا يا شذى ما سر هذا النشاط ونحن اعتدنا على استيقاظك حوالي الساعة العاشرة !

- اليوم ساقدم على مقابلة في القناة التلفزيونية beur tv واذا نجح الامر فانني ساصبح مذيعة في النشرة الاخبارية

- لهذا السبب قمت باكرا ؟

اجابتها الاخرى ترفع احد حاجبيها في استغراب :

- ا وليس سببا كافيا يا ايلين ؟

التفتت ريان ناحيتها وقالت باهتمام :

- بالمناسبة يا فتيات اليوم لدي دوام جزئي في المطعم وبعدها اعود الى البيت، وقد فكرت ان نقوم بجولة سياحية فلي اسبوع في وهران ولم ازر المعالم الاثرية ؟

اجابتها ايلين بمرح :

- طلباتك اوامر يا عزيزتي، ساطلب اذنا من مدير عملي واحاول القدوم مبكرا كي ارافقك

- وانت يا شذى ؟

- لا اعلم عزيزتي لكني اعتقد ان المقابلة لن تستغرق وقتا طويلا،، لهذا ساتي معكم ايضا فانا ايضا اريد الاستمتاع بعض الشيء

- اذا اتفقنا.

***

وهران هي ثاني أكبر مدن الجزائر بعد العاصمة وإحدى أهم مدن المغرب العربي، تقع في شمال غرب البلاد على بُعد 432 كيلومترا عن العاصمة، مُطلة على خليج وهران في غرب البحر الأبيض المتوسط، تتميز مدينة بأنها من المدن المهمة في الجزائر، ويرجع ذلك لتقدمها في مجالات كثيرة مثل المجالات الصناعية والاقتصادية والتجارية وغيرها، كما تُعتبر ثاني مدن الدولة في الترتيب وكذلك تحتوي على مركز البلاد التجاري الرئيسي،، ومن مميزاتها ايضا أن بها مركز تعليمي وثلاثة من الجامعات، وأيضا مركزا للتجارة وميناء أساسي،، تحتوي العديد من الفنادق والمطاعم التي تجهز أطعمة جزائرية شهية، وأطعمة أخرى جميلة. وتشتهر مدينة وهران بوجود أبرز المعالم الاثرية والسياحية من بينها : المسرح الجمهوري وهو مبنى ثقافي كبير في وهران، وهو من المسارح الضخمة الكبيرة فيها، ويتسم المبنى باتساعه الكبير حيث يمكن أن يتسع لستمائة كرسي، ومعبد وهران العظيم والذي قام اليهود ببنائه، وبعد أن نالت الجزائر استقلالها تحول هذا المعبد إلى جامع عبد الله بن سلام، وأهم ما يميز هذا المعبد أن الأحجار التي بُني بها تم شرائها من القدس،،، كاتدرائية وهران وقد صُممت على طريقة الطّراز البيزنطي والروماني، ولكنها مزخرفة بزخارف شرقية الطابع، وكان المسيحيين يأخذونها مركزًا لهم، وتحولت الآن إلى مكتبة عمومية،،، قلعة سانتا كروز ويقال ان الرومان من قام ببناء هذه القلعة، ونظرًا لأن هذه القلعة لها موقع متميز فلازالت على شكلها القديم، وعندما تتوجه إلى هذه القلعة فيمكنك رؤية البحر الأبيض المتوسط، كما يمكنك رؤية كل نواحي مدينة وهران الجميلة من القلعة، ساحة أول نوفمبر وتعد ساحة أول نوفمبر مركز مدينة وهران كما أنها منبعًا للحياة فيها، وقد تم تشييد هذه الساحة كتكريم للشهداء اللذين توفو في ثورة الجزائر المعروفة التي نالت الجزائر فيها حريتها من فرنسا، قصر الباي الذي تم إنشاءه بأوامر من محمد الكبير، الذي كان في القرن السابع عشر واحدًا من الأمراء في الجزائر، وأصبح هذا القصر الآن وجهة سياحية يأتي إليه السياح، كما يعتبر القصر أيضًا مكانًا جيدًا للتنزه،،، واخيرا كنيسة سانتا كروز وهي واحدة من أهم الكنائس المعروفة في مدينة وهران، كذلك من العلامات الدينية الهامة في هذه المدينة، وتوجد هذه الكنيسة في وسط المدينة ويمكن رؤية المدينة بأكملها من هذه الكنيسة... جابت ريان مع صديقتيها دائرة سيدي الهواري شرقا وشمالا، تستمتع بالتفسح في هذا الجو الشتائي الذي بث فيها الحيوية قليلا،، كما انها المدينة التي اختارتها شذى كملجأ للهرب من خطيبها الذي القى بشباكه على حياتها، وكما ان ايلين فضلتها لانها مطلة على البحر وتعتبر المركز التاريخي لوهران، تقع في شمال غربها على طول رأس العين على سفح جبل مرجاجو،، وتحتفظ بآثار تشهد على مرور عدة حضارات،، قد استغرقت الصديقات ساعات كثيرة لاكتشافها واحدة واحدة واخد صور تذكارية ايضا بجانب سانتا كروز، وقد كان من حسن حظهم ايضا انهم شهدوا على حضور مهرجان الموسيقى والأغنية الوهرانية، والذي يتطلب من كل فنان

المشاركة بما لا يقل عن أغنية واحدة جديدة على الأقل،، امضت الفتيات مع بعض وقتا رائعا ولا يعوض ايضا في مدينة بعيدة كل البعد عن الاشياء التي تذكرهم بالماضي الذي تركوه خلف ظهورهم،، لقد تحققت احدى احلامهن بالسّفر مع بعض خارج المدينة واكتشاف عادات جديدة وثقافة مختلفة عن التي اعتدن عليها،، لقد كانت وهران حلم كل فتاة مراهقة لاجل اكتشاف ذواتهم والبحث عن هويتهم وهذا ما فعلته ريان بعدما طلقها زوجها،، اخدت اشيائها واستقلت الحافلة المتوجهة الى وسط المدينة بعدما هاتفت صديقتها شذى واخبرتها بكل شيء كما انها اخدت منها وعدا حرا ان لا تخبر أي احد الامر حتى ايلين التي تفاجئت بقدومها مساءا فجاة ودون سابق انذار.

***

بعد يومٍ شاق ومتعب قضته الصديقات الثلاثة يجُبن انحاء المدينة التي سلبت عقولهن وسحرهم جمالها الباهر،، جلسن قرب الوقد الحطبي تلُف كل واحدة منهن نفسها بغطاء قطني يقيها برودة ليالي ديسمبر القاسية، بعد ان اخدن حماما دافئا وتناولن العشاء،،، وراحوا يتجاذبن اطراف الحديث يرْوُون قصصا وحكايات شعبية بعضها حقيقي والبعض الاخر خرافي عن اساطير قديمة وكان يا ما كان سالف العصر والاوان، كانت ألْسنة اللّهب تتطاير في الهواء بطريقة تسر الناظرين قد اعادت ريان الى الوراء قليلا حيث ذلك اليوم الذي ذهبت فيه مع هارون وبلال الى جبال الايدوغ، كانت تلك الليلة اروع ليلة عاشتها في حياتها ولن تنساها ابدا ولو مضى عليها مئة عام،، شعرت بالحزن قليلا وهي تُعيد ذكرياتها كشريط متسلسل وقد انتبهت ايلين معها واشّرت على شذى التي كانت تتفحص هاتفها ان تنظر الى ملامح ريان،، وضعت الاخرى هاتفها على النحو الصّامت وقالت مداعبة صديقتها بمرح :

- هل تشتاقين الى زوجك يا عزيزتي ؟؟

ابتسمت ريان بسخرية على كلامها وردت عليها بحزن :

- هو لم يعد زوجي لقد طلقني !

- آه يا صديقتي المسكينة لما حظك عاثر لهذه الدرجة !

كادت ان تجيبها ريان لكن ايلين قاطعت كلامها بغضب قائلة :

- الرّجال دائما هكذا عندما يصل الامر الى الخيانة تُعمى بصائرهم وتصبح قلوبهم غلفى

- ولكن بغض النظر هو ايضا محق بعض الشيء فلا تظلمنه

رفعت ريان راسها ناحية شذى وقالت بغير تصديق :

- ماذا تقصدين بكلامك ؟ الا تعرفينني يا شذى حتى تقولي هذا الكلام ؟

- اهدئي انا لا اقصد هذا بكلامي،، ولكن ضعي نفسك مكانه، لو رايته مع حسناء يمسك بيدها او يقبلها ماذا ستكون ردة فعلك ؟ بالرغم من انه لا علاقة له بالامر !

تلك اللحظة تذكرت ريان حادثة حسناء في العيادة وكيف استثارت عليه بطريقة همجية فقط لانها رات عدوتها تقبل زوجها،، تنفست بعمق واستطردت الافكار السلبية عنها ثم اردفت نحو صديقتها :

- انا لم اقل انه مخطئ ولكن ردة فعله تجاهي كانت قاسية جدا يا بنات، لقد طلقني دون ان يصدق اي حرف مني ؟

- لقد تسّرع اعترف بهذا

نظرت ايلين نحو بطن ريان وقالت باهتمام :

- وماذا عن الولد يا ريان ؟ انت لحد الان لم تخبريه بامره مع انه من حقه ان يعرف

صاحت فيها لاخيرة بعنفوانية :

- لن اخبره، هذا الطفل ابني انا وفقط؛ ولن يعلم بامره ابدا

تفاجئت الاثنتان من ردة فعلها وقامت شذى بتهدئتها بروية مردفة نحوها :

- ولكن هذا لا يجوز يا ريان،، فالدّين يعارض فكرتك، على هارون ان يعلم بامر الطفل والا سيغضب الله منك

- وماذا سيتغير ان علم به ؟

- ربما يسامحك ويردك الى ذمته

ابتسمت ريان بسخرية على كلامها واجابت بعدم اقتناع :

- سيردني اذا ؟؟ يعني لاجل الطفل وحسب وليس لاجلي،، وهذا ما لن اسمح بحدوثه من الاساس

امسكت ايلين بكاس الشاي وارتشفت منه بضع رشفات، تلقي بحبات الفول السّوداني في فمها تستمتع بقرمشتها؛ ثم اجابت على كلام صديقتها الذي لا يمتُ الواثع بصلة :

- ريان انت الان لست بطلة فيلم هندي او تركي وكذلك لست شخصية خيالية في رواية رومنسية، انك تعيشين في واقع شرقي عزيزتي،، ونحن كمسلمين لا نستطيع التّصرف من تلقاء انفسنا انه خطا كبير،، اساسا قدومك الى هنا دون ان تخبري اي احد لا من عائلتك او من عائلة زوجك ليس صائبا صدقيني

ايّدت شذى كلامها بحزم وواصلت بدلا عنها قائلة :

- ايلين على حق عزيزتي، ثم ما ادراك ان هارون لم يتدارك خطأه بشانك ؟؟ ربما قلب الدنيا راسا على عقب فقط كي يعثر عليك يا ريان

- جميعنا ابطال في حكايتنا التي نقوم بِخّط احداثها على ارض الواقع يا إيلين ! ثم ما بالكما انتما الاثنتان ؟؟ لما اشعر انكما متفقتان مع هارون ضدي انا ؟؟ او ربما ازعجكما وجودي في البيت ؟ ان كان هكذا فاخبراني كي اضع التدابير اللازمة

اجابتها ايلين بانزعاج لحظتها كاد ان يكسر رابط الاخوة التي يجمعهما :

- هل جننت حتى تقولي هذا ؟ يبدو ان هرمونات الحمل قد اثارت اعصابك !! نحن نفكر في مصلحتك يا مجنونة لاننا لا نريدك ان تتسرعي بقرار طلاقك، اعلم انك تحبين هارون مثلما هو يحبك ولهذا تستحقان فرصة ثانية ؟

سكتت ريان وشعرت وكان الدنيا تخنقها من حدب وصوب،، بعدها قالت بحزن :

- صدقاني هذا احسن لي ولابني، لقد اتخدت قراري بالانفصال ولا عدول فيه، ثم هارون من اراد هذا ولست انا، سيبقى حبه في قلبي ما حييت لكن لا استطيع مسامحته،، لقد استهلك كامل فرصه ولم تبقى له اي واحدة

تنهدت شذى على كلامها وصارت تربت على كتفها بحب وحنان مردفة نحوها :

- حسنا عزيزتي انت ادرى بمصلحتك، وثقي اننا دائما الى جانبك عزيزتي

- اجل نحن لن نتركك ابدا يا ريان

- شكرا لكما،، لا ادري ماذا كان سيحدث لي لولا وجودكما في حياتي.

***

باشرت ريان في مزاولة عملها السّاعة الثامنة والنصف صباحا، في احد المطاعم الفخمة والتي يرتادها عدد كبير من السياح لوجوده قرب السّاحل المطل على البحر الابيض،، ارتدت صدرية قرمزية اللون فوق فستان اسود من الصوف وحجاب من نفس اللون مع حذاء رياضي ابيض؛ وبدات بكل همة ونشاط تحمل دفترا صغيرا بين يديها وقلما اسود جاف تجوب ارضية المطعم وتدور حول الطاولات تسأل الزبائن واحدا تلوى الاخر عن طلباتهم،، اثار انتباهها ثنائي من شاب وفتاة يظهر عليهما انهما متزوجين حديثا، بعدما لمحت خاتم عقد القران يزين بنصر الشابة ليدها اليسرى؛ وقد شعرت بالحنين هي ايضا واجتاحتها رغبة عارمة في ترك كل شيء وراءها والعودة الى احضان الذي تشتاق اليه اكثر من اي شيء في هذه الدنيا،، لكنها افاقت مع نفسها وطردت عنها تلك الهواجس تقنع نفسها ان كرامتها فوق كل شيء، وما فعله هارون هذه المرة لا يمكن لها ان تسامحه عليه،، واصلت عملها دون ملل او كلل تعمل بجد واجتهاد لكسب لقمة عيشها،، فمن الان وصاعدا عليها ان تعتمد على نفسها وحسب دون طلب المساعدة من اي شخص كان، كان شريف زميلها في العمل يساعدها في اي شيء يصعب عليها تداركه، وهو شاب خلوق وطيب القلب طويل القامة وحنطي البشرة يكبرها باربع سنوات قد درس الفندقة ويحاول قدر المستطاع في بناء مستقبله الذي لم يبقى له الكثير عليه،، شعرت ريان من خلال بداية عملها انه يتودد لها فقد راى فيها الفتاة المناضلة التي تجابه قساوة الواقع والمجتمع الشرقي كي تستطيع الصّمود في وجه من يريد ان يستقوي عليها، وقد اراد مرارا وتكرارا التّقرب اليها وبشتى الطّرق خلال خمسة ايام الفارطة بدعوة الى الغذاء او زيارة احد المعالم الاثرية؛ لكنها كانت تصدّه في كل مرة حتى نفد صبرها واخبرته انها متزوجة وهناك ولد في بطنها، انصدم شريف جدا من الامر وشعر بخيبة امل كبيرة؛ لكنه لم يستسلم وبقي في محاولاته للتقرب منها لعل وعسى يظفر بمراده... انتهت الفترة الصباحية ببطئ شديدا وقد كانت مُتعِبة جدا على ريان لكثرة السُّياح والزبائن

خصوصا في هذه الفترة مع اقتراب راس السنة الميلادية، وقد اغتنمت الفرصة وقت استراحة الغذاء لتذهب الى سانتا كروز المكان الوحيد الذي الفته منذ قدومها الى وهران ولاسباب مجهولة،، اقتنت لها ساندويتش همبرغر مع علبة كوكاكولا وجلست امام المعلم الاثري تاكل بنهم شديد غير عابئة بوجود الناس اللذين كانوا يرمقونها باستغراب،، بقيت على حالها تنظر الى السماء الملبدة بالغيوم شاردة الذهن في اللامكان حتى انتفضت بفزع على صوت شريف يجلس بجانبها دون طلب الاذن منها...

- شريف !! ماذا تفعل هنا ؟

نظر الاخر نحوها باعجاب شديد وقال :

- لا شيء، اردت مشاركتك وحدتك ان لم يكن لديك مانع طبعا ؟

- ولكن انا لدي مانع ؟

فتحت ريان عينيها الزمردية في ذهول وتجّمد الدّم في عروقها؛ خصوصا وانها تعرف هذا الصّوت جيدا؛ وتستطيع تمييزه من بين الالوف من الاصوات، نظرت خلفها لتتفاجئ به بشحمه ولحمه يقف بثبات وهيبة يرمقها بنظرات نارية جعلتها تزدري ريقها،، اما شريف فقد وقف مكانه هو ايضا يرمق هارون بفضول ثم سأله باستفسار :

- ومن تكون انت ؟

- هارون زعيم زوج الفتاة التي اردت مشاركتها وحدتها !

احنى الاخر راسه في خجل ولم يجد ما يقوله في موقف كهذا، استاذن منهما بالانصراف وغادر المكان في صمت تاركا ريان تواجه مصيرها مع الذي تخلى عنها بقسوة كبيرة،، ادارت جسدها ايضا لتغادر المكان لكنه امسكها من مرفقها بقوة يتوسلها ان تتوقف وتستمع اليه...

- ارجوكِ لا تذهبي !

- هارون لُطفا منك، لم يعد هناك حديث بيننا، لقد طلقتني وانتهى الامر

- يبدو ان سليم لم يخبرك بالحديث الذي دار بيننا ؟

رفعت حاجبها الايمن في استغراب واجابت :

- اي حديث ؟

- لقد اتى الى عيادتي قبل يوم امس، وقال انك طلبت منه ان يباشر باجراءات طلاقنا قانونيا والصّراحة قد شعرت بالضّيق كثيرا لحظتها

- قلت شعرت الضّيق ؟!! المهم اكمل ؟

- اخبرته حينها انني اعدتك الى ذمتي في تلك الليلة التي غادرت فيها، وانك زوجتي امام الله والقانون

فتحت عينيها في ذهول لا تستوعب كلماته التي كانت كالصّاعقة بالنسبة لها، وقد صاحت فيه بغضب عندها :

- ومن طلب منك ان تعيدني الى ذمتك ؟ هل انا دمية بين يديك ؟ تطلقني متى تشاء وتعيدني متى تشاء ؟

- اعلم انني اخطأت بحقك، وقد بحثتُ عنك كثيرا خلال هذا الاسبوع كي اعيدك الى البيت يا ريان؛ لم ايأس ابدا ولم اتخلى عنك كما زعمتِ صدقيني !

شعرت ريان لحظتها بوتيرة قلبها تزدادُ اضعاف مضاعفة، وقد قرات الصّدق في عينيه لكنها ايضا لا تريد ان تسامحه فقد اهانها ورماها كالقطة الوديعة بسبب تصديقه لاكاذيب حسناء وتكذيبه لصِدقها هي...

- تاخر الوقت على هذا الكلام الان،، فقد قررتُ ان ابدا من جديد صفحة بيضاء لا وجود لك فيها

ابتسم ناحيتها بعفوية وتقدم منها لدرجة انه لم تعد تفصلهما سوى بضع سنتيمترات، وقال لها وهو يمسكها من كلتا يديها التي نال منهما صقيع ديسمبر...

- هل انت متاكدة من انك تستطعين العيش بدوني ؟

خفق قلبها بسرعة رهيبة ولم يعد بامكانها مقاومة جاذبيته اكثر، تنحنحت بخفوت ونزعت يداها عنه توليه ظهرها...

- ارجوك لا تُصعبها علي، اساسا انا احاول جاهدة قدر المستطاع كي ابقى واقفة على قدمي

- لا تجهدي نفسك اذا يا ريان ! انت تنتمين لي مثلما انا انتمي اليك،، فلتضعي عنادك هذا النحو الصامت ولنعد الى بيتنا معا، وانا اعدك انني لن اكرّر خطئي هذا

لم تتمكن ريان من السّيطرة على اعصابها اكثر وقد صاحت فيه لحظتها بكل عنفوانية والعبرات تنساب من عينيها مثل زخات المطر...

- اساسا انت دائما هكذا تعدني بشيء ثم تُخلف بوعدك، وانا قد سئمت هذا الوضع وبتُ اخشى فقدانك في اي لحظة يا هارون،، انت من تخلى عني وانا في امّس الحاجة اليك، تركتني وحيدة دون ان تصدقني ! وليس هذا وحسب طلقتني بقسوة وجعلت والدتك تتكلم عن سمعتي وشرفي،، لما فعلت بي هذا ؟ ا لهذه الدّرجة ثقتك بي متزعزعة ؟ لقد احببتك اكثر ممن ينبغي، ولم اعد ارى غيرك في حياتي؛ ولكن ببعض الكلمات الخادعة من فم حبيبتك السابقة القيت جميع مشاعري تجاهك في البحر

وكالعالدة عندما تبدأ ريان في العتاب والمشاحنة فلا احد بامكانه ايقافُها سوى قبلة حنونة من زوجها قد جعلت قلبها الصغير يتطاير داخل قفصها الصّدري، وكل من هب ودب على ذلك المكان صار يشاهد هذا المشهد الرومنسي متاثرين باللحظة كثيرا،، ابتعد هارون عنها تاركا لها الفسحة كي تتنفس ثم قال لها وهي لا زالت تحت تاثير مخدر جاذبيته...

- هل سامحتني الآن ؟

بقيت تنظر نحوه بحب كبير لا تصدق انه ضحك عليها هذه المرة ايضا، وقد ارتمت لحظتها في احضانه تبكي بشراهة على كل ما عاشته بسببه...

- اياك ان تتركني مرة اخرى ايها الاحمق، صدقني ساقتلك حينها ولن ارحمك ابدا

ابتسم على كلامها بعفوية وقال لها :

- اعدك انني لن اتركك ابدا يا صغيرتي، لا انت ولا طفلتي التي تنمو داخل احشائك

ابتعدت ريان عنه وصارت تنظر نحوه باستغراب ثم اجابته :

- كيف علمت بامر حملي ؟

- اخبرتني منال بعد تركك للمدينة بثلاثة ايام، فكما اعتقد ان الطبيبة المشرفة على معاينتك صديقتها

- اووووه،، نرجس طلبت منها ان يبقى الامر سرا كي افاجئك به

- ونعم المفاجاة، منذ ان عرفت انني سارزق بطفلة منك زاد اصراري بايجادك في اقرب وقت

- صحيح كيف عثرت علي ؟

- بعدما يئستُ من جميع النواحي وفشلت في ايجاد اي اثر يقودني اليك، لجأت الى شقيقتك فادية كحل اخير، وقد توسّلت اليها كثيرا ان تخبرني بمكانك لكن من دون فائدة لم تشفق علي ابدا،، وبينما كنت قرب باب البناية صادفتُ عائشة تلعب الرّديا مع فتيات الحي، فقلت اجرب

حظي واسالها، وقد تناهى الى سمعها حديث امها مع والدها فاخبرتني انك بوهران اذ تذكرت عندها انك قلت لي عن ذهاب صديقتيك اليها لاجل العمل، لكن مع الاسف عائشة لا تعلم اي بلدية بالتحديد فنادت على شقيقها بلال الذي كان يلعب مباراة كرة القدم وسالته عن المنطقة فقال بعد تردد كبير انك في سيدي الهواري

- انظر الى اولئك الشقيان ! ساريهما عندما امسك بهما

- لماذا ؟ لولاهما لما استطعت الوصول اليك يا فتاتي الحالمة

اخدها مجددا اليه بالاحضان يُزيل عنه الشوق والحنين اليها الذي دام اسبوعا كاملا، لا يصدق انه عثر عليها واخيرا، اما هي فقد شعرت بالدفئ يجوب عالمها الوردي من جديد وعادت اليها فرحتها التي كانت ضائعة لحظة تركه لها،، في ظل تلك الاثناء حلقت فوقهم طيور النورس مصدرة اصوات نعيق صاخبة تتجه ناحية البحر...

- انظري انه طائر الحظ خاصتك واخيرا حلق فوق راسك وتحققت جميع امنياتك يا حبيبتي

- اي امنيات ؟

- لقد قررت ان اسافر الى كندا لاجل انهاء الدوكتوراه في بحثي العملي للعقل الباطني، وبهذا ستتسنى لك الفرص كي تُنهي تعليمك هناك والانخراط في مدرسة الفنون والتصاميم ... ا ليس هذا ما تمنيته ؟

لمعت عيناها بفرح وابتسمت ببراءة ناحيته مردفة نحوه :

- بالمناسبة ما ذكرته الآن هو تطّير يا صاحب العيون السماوية، لانه لا يوجد شيء اسمه طائر الحظ،، هي خزعبلات فقط لا اساس لها من الصحة

بعدها طبعت قبلة عميقة على شفتيه القِرمزية تحت معلم سانتا كروز ومع هطول امطار ديسمبر الباردة التي بدات تتساقط على رؤوسهما بغزارة، ثم ابتعدت عنه فليلا وقالت بمكر ...

- هذا اقل ما تستحقه حبيبي الوسيم ابن عمتي.

.. تمت بحمد الله.

.....انتظرونا مع احداث جديدة ولغز خطير سينكشف في الوسط ليقلب حياة شذى راسا على عقب.

رواية_طائر الحظ
والامنيات الثلاثة

منى عريبي كاتبة روائية من مواليد *1997*
بولاية عنابة، متحصلة على شهادة
الليسانس في الكيمياء الاساسية وشهادة
ماستار في الكيمياء الفيزيائية
اعمالها الكترونيا : كتاب اكسير الحياة،
سجينة بين ملاك وشيطان، انثى شرقية

FACEBOOK : MOUNA ARIBI
INSTAGRAM : MOUNA_HOCINE.ARIBI
E-MAIL : ARIBI023.MOUNA@GMAIL.CIM